

أوراقي ... حياتي (الجزء الثالث)

نوال السعداوي



أوراقى ... حىاتى (الجزء الثالث)

تألىف
نوال السعداوى



أوراقى ... حياتى (الجزء الثالث)

نوال السعداوى

الناشر مؤسسة هنداوى سى آى سى

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاى ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إنّ مؤسسة هنداوى سى آى سى غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره،
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليل يسرى.

الترقيم الدولى: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٣٥٤ ٥

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة هنداوى سى آى سى.

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية،
ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة
نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Copyright © 2017 Hindawi Foundation C.I.C.

All rights reserved.

المحتويات

٧	ثمن الكتابة
١٣	لحظات سَقَطَتْ فِي الْعَدَمِ
١٥	حَدَّثَ مِنْ وَرَاءِ الْوَعْيِ
٢٩	إِهْذَارُ الدَّمِّ
٤٣	الصُّورَةُ الْمَمْرُوقَةُ
٦١	المشرط والقانون
٧١	الهزيمة الكبرى
٨٥	تضامن النساء
١٠٧	الصَّدِيقَاتُ الْقَدِيمَاتُ
١٣٣	الشُّرْفَةُ فِي الدُّورِ السَّادِسِ وَالْعِشْرِينَ
١٤٣	مِنْ مُفَكِّرَتِي السَّرِيَّةِ عَامَ ١٩٤٧
١٥٧	الباحثة عن الحب
١٧٣	إجهاض الثورة
١٨٧	الطيران في الحلم

ثمن الكتابة

مقدمة قصيرة

لا أجد كتابة المقدمات، يمكن أن أكتب قصةً من ألف صفحة، ولا أستطيع كتابة مقدمةٍ من نصف صفحة، أما رفيقة عمري فهي شخصية عصبية على الفهم، تكتب في النوم كما تكتب وهي صاحبة، لا تهتم بدورة الأرض حول نفسها، أو دورتها حول الشمس. تضحك وتقول: نحن أحرار، ندور كما نشاء؛ حول أنفسنا، أو حول غيرنا، أو لا ندور. لكن عقلي يدور، رغم مشيئتي، في النوم كما في اليقظة.

أصحو من النوم كل صباح على رنين الجرس، صوتها يأتيني من حيث تكون، في أي مكانٍ فوق كوكب الأرض، هي تعشق السفر منذ كانت طفلة، لا تعود إلى الوطن حتى ترحل، مهما ابتعدت وطال الغياب، أراها أمام باب بيتي، بحقيبتها العتيقة بلون النبيذ الأحمر، حرقتها الشمس وأغرقتها الأمطار في الجنوب والشمال، أصبحت أقل حُمة مما كانت، وإن ظلت حمراء اللون، متينة العجلات قوية العضلات، أقل قوةً بمرور الزمن، تجرُّها من خلفها وهي تجتاز المطارات والمحطات، تنزلق وراءها بخفة فوق الشوارع المرصوفة الناعمة، وتغوص بثقلها في الأزقة حيث الحفر والمطبات، مليئة بالكتب وملابسها وأوراقها، مقبضها متين لا ينخلع، يحمل اسمها، داخل قطعة من البلاستيك الأبيض بحجم كف اليد.

اسمها الثلاثى كان مسجلاً فى أقسام وزارة الداخلية والشئون الاجتماعية ومصحة السجون وإدارات الرقابة على النشر والكتابة والمصنفات الفنية.

يحملق ضابط الشرطة بمطار القاهرة فى اسمها الثلاثى، يتأمل صورتها فى جواز سفرها، يتسم فى وجهها: حمد الله ع السلامة يا أستاذة. يدق بالمطرقة على جواز سفرها فتدخل. وإن وصلت القائمة السوداء إليه قبل عودتها، يعتذر لها برقة ورثها عن أمه، يناولها كرسياً لتستريح وكوب ماء: آسف يا أستاذة، عندي لازم أنفذها. وإن كان عضواً بحزب الجهاد أو داعش أو حزب الحكومة، يكشر عن أنيابه مبرطماً بصوت غليظ، ويحجزها مع حقيبتها فى غرفة الحجر الصحى؛ حيث تلتقى بأنواع مختلفة من البشر، بعضهم مرضى بالجذام وأنفلونزا الخنازير، وبعضهم مصاب بالجنون أو الكفر، منهم الكوافير سوسو، كان شهيراً فى الحى الراقى بجاردن سیتی، اكتسب ثقافة نادرة من الحلاقة للنساء والرجال، أصابعه ماهرة تدرک أفكاراً مدهشة فى الرعوس التى تغوص فيها، يأتي سكان الحى الراقى إلى محله الأنيق بشارع التنهديات، نساء ورجال من المثقفين أو الطبقة العليا، يؤمنون أن الإنسان تطور عبر ملايين السنين من فصيلة الثدييات على رأسها الشمبانزي الأم الكبرى، وأن الأرض كروية تدور حول الشمس وليس العكس، وأن الكون نشأ بالصدفة البحتة حين حدث الانفجار الكبير وانتشرت فى الفضاء ذرات، تناثرت وتجمعت بعضها لتكوين أول مادة أو أول كتلة مادية فى الوجود.

وكان من زبائن الكوافير سوسو، أيضاً، البوابون والطباخون فى قصور الباشوات القدامى والجدد فى جاردن سیتی، منهم الحاج منصور الشهير باسم طباخ الباشا؛ رجل سمين مملوء بالسمن البلدى والطعام الفاخر الذى يبتلعه سراً.

وبينما هو يترك رأسه بين يدي الكوافير سوسو، يحكى الحكايات القديمة عن الممالك والأتراك، كيف عاشوا فى الأناضول، ولا بد أن يذكر الأسلاف من أجداده وعلى رأسهم جده الكبير، الذى حكى له وهو صغير أن الله خلق للثور قرنين؛ لأنه يحمل الأرض فوق قرن، وإن تعب من ثقلها حرك رأسه ونقلها إلى قرنه الثانى.

ويضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

- لا، معقول يا سوسو، امال الزلازل والبراكين والبرق والرعد بييجوا منين؟

ثمن الكتابة

- منين يا حاج منصور؟
- لما الثور يحرك الأرض على راسه من قرن لقرن يحدث البرق والرعد، والزلازل تهز الأرض.
- يضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.
- لا، معقول يا سوسو.
- الكلام ده كان زمان قبل جاليليو.
- جاليليو خواجه يهودي نصراني ما يعرفش ربنا.
- لازم تعرف حاجة عن جاليليو يا حاج، اسمعني.
- سامعك يا خويا.
- جاليليو أمه ولدته في إيطاليا بعد العدرا مريم ما ولدت المسيح بألف وخمسميت سنة أو أكثر، وكانت إيطاليا وأوروبا كلها محكومة بالكنيسة وعاشته في الجهل والظلام، درس جاليليو الطب والهندسة والفلك، واكتشف أخطاء العلماء اللي قبله في اليونان، منهم أرسطو.
- أرسطو كان مؤمن بربنا يا سوسو؟
- أرسطو كان مؤمن بالكنيسة يا حاج منصور وبينشر أفكارها في كتبه، واعتبرته الكنيسة الفيلسوف الأعظم وأغدقت عليه الأموال والمناصب، لكن جاليليو عمل منظار جديد واكتشف خطأ أرسطو، وإن الأرض بتدور حول نفسها وحول الشمس، غضبت منه الكنيسة واتهمته بالكفر والإلحاد والخيانة؛ لأنه بيعارض الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة ونظرية أرسطو عن إن الأرض ثابتة لا تتزعزع ولا تتحرك أبد الدهر، قدموا جاليليو للمحاكمة وأدانوه، ومات فقير مسكين معزول في بيته.
- مين قال لك الكلام ده؟
- الباشا الي باحلق له شنبه ودقنه.
- الباشا بنفسه يا سوسو؟
- أيوة يا حاج منصور.
- لازم كلامه صح مية المية، لكن أنا مش حاسس إن الأرض بتدور يا سوسو!
- لأنها بتدور بسرعة كبيرة يا حاج، وانت جزء منها وبتدور معاها.

أوراقى ... حياتى (الجزء الثالث)

– مش معقول يا سوسو.

– مثلاً وانت راكب جوة القطر يا حاج، لا يمكن تحس إنه بييجرى بسرعة.

– لكن القطر غير الأرض يا سوسو، ولا إيه؟

– إيه يا حاج!

وينفجر الكوافير والحاج منصور فى الضحك.

تخرج هي، رفيقة العمر، تجرُّ حقيبتها الحمراء ذات العجلات، من غرفة الحجر الصحي بالمطار بعد عدة ساعات، أو عدة أيام حسب مزاج الحكومة والمخابرات، ثوبها مكرمش وشعرها منكوش، نامت على الكرسي وإلى جوارها الحقيقية، تلمسها بيدها إن أفاقت في الظلمة فجأة، تخشى أن يسرقها أحد وهي غارقة في النوم، أو غائبة عن الوعي من شدة التعب، وفي أحد الصباحات، دون سابق إنذار، يأتي الضابط مبتسمًا، ويقول: مبروك يا أستاذة، صدر العفو الرئاسي عن بعض المعتقلين والمعتقلات بمناسبة العيد.

– أي عيد؟

الأضحى الكبير، أو العبور العظيم، أو شم النسيم في بداية الربيع، يصحو الناس في الصباح الباكر ليشموا البصل والرنجة والفسیخ، يتمشون على شاطئ النيل، الأغنياء منهم يشمون النسيم في المنتجعات الجديدة على شاطئ البحر الأبيض بالساحل الشمالي، أو في الغردقة وسواحل البحر الأحمر.

لكن يظل الفسیخ اللذيذ من نبروه، مع أصناف الطعام الفاخر ومعه البصل الأخضر والملانة والرنجة من ضرورات العيد، لإعادة الذاكرة الطفولية والخصوصية الثقافية وتاريخ الأجداد.

كنت أحب الفسیخ وهي لا تُطيق رائحته، لا تزورني أبدًا في المواسم، لا تحتفل بالأعياد، وعيد ميلادها لا تذكره، إن نكَّرتها به تمطُّ شفتها السفلى وتنهك في الكتابة.

– كم عمرك؟

– مش فاكرة.

– مش معقولة انتي.

– انتي الي مش معقولة.

– ازاي؟

ثمن الكتابة

- إيه يهكم من عمري؟
- عاوزة أعرف انتي عشتي كام سنة.
- ليه؟
- مش عارفة.

(انتهت المقدمة)^١

نوال السعداوي
القاهرة
٢٢ مارس ٢٠١٧

^١ تتصدر هذه المقدمة كافة أعمال الدكتورة نوال السعداوي.

لِحَظَاتٍ سَقَطَتْ فِي الْعَدَمِ

حَدَثٌ مِنْ وَرَاءِ الْوَعْيِ

القلم بين أصابعي، والصَّفحة تحت يدي بيضاء، يتحرَّكُ القلم دون أن يكتب شيئاً، ترمقني الصَّفحة البيضاء بسخرية، كأنَّما لم أكتب في حياتي سطرًا. تبدو اللغة غريبة، كلماتها مبنيةً للمجهول، حروفها مقدسة، تخاطب المرأة بصيغة المذكر، كل شيء مُذكَرٌ في اللغة، حتَّى الإله والشَّيطان والموت. الصَّفحة الخالية من الكتابة لونها أبيض بلون الموت، الكفن أبيض، وسرير المستشفى أبيض، معاطف الأطباء والطبيبات، ومرايل الممرضات والممرضين. عيناى مفتوحتان لا أعرف إن كنتُ الطَّبَّية أو المريضة، الكاتبة أو الصَّفحة البيضاء غير المكتوبة، المساحات الخالية بين السُّطور، السَّاقطة من حياتي والسَّنين، تسرُّب الروح من الجسد وغياب العقل.

هل عجزت عن الكتابة أم أشرفت على الموت؟ كانت هناك علاقة دائمة بين الموت وعدم الكتابة، فوق فمي كِمَامَة، رائحة الأثير تملأ الجو، ربما هو المخدر، يلجئون دائمًا إلى المخدر في مواجهة الوعي، جسدي مصلوب فوق منضدة الجراحة في غرفة العمليات، أو ربما هي منضدة المشرحة في كلية الطَّبِّ، مربوطة الذَّرَاعين والسَّاقين بخراطيم من المطاط. أسمعهم يتكلمون عنِّي بضمير الغائب، كلمة الضَّمير في اللغة مُذكَرَة مثل كلمة إنسان، لا يوجد في اللُّغة مؤنث كلمة ضمير. أصواتهم مُتشابهة، ملابسهم بيضاء، رائحتهم واحدة، مزيج من الأثير وصبغة اليود ودخان سجائر. صوت ينادي اسمي واسم أبي، لم يكن لي أب واحد، هناك دائمًا أكثر من أب، اسم الأب الواحد أسطورة، في التَّاريخ يجب الأصل تحت صورة أب رمزي، لغة تجعلها كائنات مُذكَرَة أو لا نكون، صورة مُقدَّسة تعيش على كبت الحقيقة، تحت تأثير المخدر تطل الحقيقة المكبوتة من تحت الماء مثل رأس جبل من الثلج.

- وأين هي أمي؟

أتلّفت حولى أبحثُ عن وجه أمى بين الوجوه، أصابع حديدية تثبّت رأسى فى المنضدة، تزحف الأصابع إلى عنقى تضغط عليه، أياولون خنقى لأنى أسأل عن أمى؟ أين اختفت أمى؟ قتلوها؟ دفنوها فى مقبرة ومعها اسمها؟ شطبوا على اسم أمى، مسحوا بالأسستىكة، قالوا: ربما بعد الموت تحملين اسم أمك؛ لأنّ الحقىقة بعد الموت تظهر، ويختفى اسم الأب المزيّف.

الصّوت يُنادى اسمى مرة أخرى، يرُنّ الاسم فى أذنى مألوفًا، سمعته مرارًا فى مراحل حياتى السّابقة، رأيتة فوق أغلفة كتبى ورواياتى، الصّوت يُنادىنى بلهجة خشنة ذكورية، صوت رجل ملامحه غريبة، هذا الرّجل لا أعرفه، مع ذلك يمسك يدى المثبّته فوق المنضدة، يقول للأطباء والطبىبات إنّه زوجى.

– متى تزوجت هذا الرجل؟!

أرفع يدى لأمسك رأسى، يدى لا تتحرك، الصّداع يقسم رأسى قسمين، ذاكرتى لا تسعفنى، لحظات فى حياتى سقطت فى العدم، أحاول استعادتها دون جدوى، هذا الأثرى يُخدرنى، يستخدمون المخدر لقتل الذاكرة، أقاوم، أفتح فمى لأصرخ، صوتى لا يخرج.

مربوطة الذراعين والسّاقين، فوق فمها كمامة، تفتح فمها نصف فتحة وتقول لهم: لا أريد مُخدرًا! لا أريد أن أفقد الوعى! أنا طبيبة ولست مريضة واسمى نوال وأمى اسمها زينب، أمّا جدى السعداوى فأنا لا أعرفه، مات قبل أن أولد.

الصّوت يُنادىها باسمها وهى لا ترد، زوجها يقول لهم: إنّها ليست نائمة، وليست غائبة عن الوعى، إنّها فقط تكتب، وهى حين تكتب تصبح غائبة عن هذا العالم، لا تسمع أحدًا، ولا تردّ على أحد.

قالت لزوجها بعد ليلة الزفاف المؤلمة: سأكتب ما لا يُكتب. كلّ يوم تجلس إلى مكتبها من أوّل النهار حتى آخر الليل، القلم بين أصابعها، والصّفحة تحت يدها بيضاء، تمرّق الورقة وراء الورقة، تمرّق شعرها، تفتح فمها عن آخره تطلب الهواء، تختنق، تشد الكمامة فوق فمها، تعضّ بأسنانها الأصابع الملقوفة حول عنقها.

جسمها فوق المقعد أصبح جزءًا من المقعد، مربوطة إلى المقعد بالحبال، نصفها الأسفل مربوط لا يتحرك، النّصف الأعلى لا نرى منه إلا الرّأس المطوّق فوق المكتب، القلم بين أصابعها الطويلة السّمراء يرسم على الورقة حروفًا سوداء مبتورة، يحتكّ سنّ القلم

حَدَّثَ مِنْ وَرَاءِ الْوَعْيِ

بالصَّفحة البيضاء، يصنع صَرِيرًا خافتًا، أذناها تلتقطان الصوت داخل الصمت، ينتصب رأسها وعيناها نصف مغمضتين.

كأنما لم أكتب في حياتي، لم تمسك أصابعي القلم، لا أعرف اللُّغة، واللُّغة لا تعرفني، هذه الحروف ليست حروفي، لم أتعلّمها من أمي، يقولون عنها: لغة الأم، وهي لغة رجل غريب مات قبل أن أولد. أحاول النهوض من مقعدي وراء المكتب، قدامي وساقاي مربوطة بالحبال، أسير نحو السَّرير بجسدي المربوط، أستغيث في النُّوم بلا صوت، شريف نائم إلى جوارِي مستغرق في النُّوم.

أرقمه بشيء من الحسد، منذ تزوجنا عام ١٩٦٤ وهو ينام بسهولة، يضع رأسه فوق الوسادة وينام في نصف ثانية، ضوء خافت يسقط فوق الجدار من خلال شقوق النافذة، نسمة خفيفة تحرك النتيجة المعلقة، التَّاريخ يشير إلى العام الجديد ٢٠٠٠، يبدو الرقم غريبًا، يفتح شريف عينيه، يرمق الرقم بدهشة، يا خبر بقينا في سنة ٢٠٠٠ كده بسرعة؟! أطفو فوق السَّرير كأنما أعوم فوق الزمان والمكان.

الزمن يمضي وأنا مُتجمِّدة تحت الغطاء، أحاول النُّوم دون جدوى، كأنما نسيت كيف أنام، أحاول الكتابة دون جدوى، كأنما نسيت اللُّغة. شريف نائم إلى جوارِي، ترك سريره في غرفته وجاء إلى غرفتي، تحدثنا قليلًا قبل النُّوم، يكتب رواية جديدة وأنا عاجزة عن الكتابة، كأنما لم أكتب أبدًا، عيناَي مفتوحتان كأنما لم أنمُ أبدًا، يفتح شريف جفونه، يراني مُحمِّلة في السَّقْف.

– ما لك يا نوال؟

– مش عارفة أكتب يا شريف، لا يُمكن حاكتب أبدًا أبدًا، كل مرّة تقولي كده يا نوال وتكتبين، المرة دي هي الأخيرة يا شريف، كل مرة تقولين هي دي الأخيرة، لأ خلاص هي دي الأخيرة، ولا يمكن حاكتب، خلاص فقدت القدرة على الكتابة، حاولي تنامي يا نوال، مش عارفة أنام، خلاص فقدت القدرة على النوم.

أنهض من السَّرير وأمشي في الظلمة، على أطراف أصابعي أمشي حتّى لا يشعر بي شريف، أسير إلى الشُّرفة، نحن في الدور السَّادس والعشرين، في القرن الواحد والعشرين، أمدُّ قدمي إلى السور وأقفز في الهواء.

ثم أفتح عيني، أرى جسمي ممدودًا فوق السَّرير، إلى جوارِي القلم والصفحة البيضاء، تعلوها خطوط مُتعرِّجة بلا كلمات، بلا عبارة واحدة ذات معنى.

يفتح شريف عينيه، يرانى صاحبة شاخصة إلى السقف. يربّت على كتفى: نامى يا نوال. أهمس بصوت خائر: تفتكر يا شريف إن فيه تناقض بين الزواج والإبداع؟ يضحك شريف، جايز يا نوال ... لكن خلاص نعمل إيه بعد خمس وثلاثين سنة؟!

الكتابة فى حياتى كانت تأخذنى إلى بئر عميقة فى بطن الأرض، إلى مكان يخلو من البشر، إلى مساحة لا يشاركنى فيها أحد، لا أسمع صوتًا، لا شيء يتحرك، صمّت مطبق كالموت. كنت أحمل قلمى وأوراقى وأغادر البيت، أمشى وأمشى دون توقف، أتلّفت حولى كأنما أبحث، أتطلّع إلى الأرض والسّماء والبيوت والشوارع والعمارات والأزقة، أبحث عن شقّ أهرب فيه، أختفى داخله وأغلق ورائى سبعة أبواب، لا يكفي بابّ واحد لطرد الأصوات، أبحث عن الصّمت داخل الصّمت. أتلّفت حوّاليّ لا أعرف إلى أين أذهب، أسير بحذاء نهر النيل، أتوقّف لحظة أحمّل فى المياه، أمدّ قدمى فوق السُّور وأقفز.

أصحو من النّوم مبلة بالعرق، الأوراق مُبعثرة فوق السرير، والقلم فى يدي، إلى جوارى رجل نائم.

النتيجة فوق الجدار مكتوب عليها التّاريخ، اليوم والشهر والسنة، أحمّل فى الرقم ١٩٥٦، هل عادت عقارب السّاعة إلى الورا أربعة وأربعين عامًا وأنا غارقة فى النّوم؟ الرّجل النائم يفتح عينيه، الظلمة شديدة لا أرى من ملامحه إلا العينين، من خلال الضّباب الأسود يبرز الأنف، عظمة كبيرة تتوسط الوجه مقوسة قليلًا، تحت الأنف شارب أسود كبير. لا شيء ينفّرني فى الرجال مثل الشّعر فوق وجوههم، يُذكرني بالفصائل السّابقة لنشوء الإنسان.

كان نائمًا على جنبه الأيسر، ظهره ناحية الحائط، وجهه ناحيتى، التّاريخ فوق الحائط يُشير إلى عام ١٩٥٦، قشعيرية باردة تزحف إلى جسدى، ذاكرتى تعود إلى السّطح بالتّدرّج، أخرج من بطن الأرض جزءًا جزءًا، أصحو فوق شيء يهتز، جفونى ثقيلة أفتحها بصعوبة، التّاريخ فوق الحائط ثابت عند عام ١٩٥٦، النّافذة مفتوحة بدون زجاج ولا شيش، الهواء البارد ينفذ إلى جسدى، وأنا راقدة فوق ظهري، أسناني تصطك، أرتجف بالحمّى، فى حلقي غصّة وفى أنفى رائحة دم، عيناى تدوران فوق الجدران، المكان غريب لم أره من قبل، الحائط بلا طلاء لونه أسود تلوّه بقع أكثر سوادًا، الشقوق فى الجدران تُشبه الشقوق فى الأرض، يتدلى من السّقف سلك كهربى مات فوقه ذباب أسود. عيناى مغمضتان

حَدَّثَ مِنْ وَرَاءِ الْوُعْيِ

والزَّمن لا يتحرك، التَّاريخ ثابت عند عام ١٩٥٦، بالضَّبْط يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٦، أشدُّ جفوني لأصحو، عيناى مفتوحتان من قبل، لم أغمضهما لحظة واحدة طول الليل، كنت أُفكِّرُ في الهروب، كيف أهرب وإلى أين؟

الليل كان طويلاً بلا نهاية، مسمار في الحائط يتدَلَّى منه معطف أبيض تعلوه بقعة دم، حقيبة صغيرة من الجلد الأسود، ملقاة في وسط الغرفة، من حولها تبعثرت أدوات طبيَّة، سماعة لها خرطوم أسود طويل، حقنة لها إبرة طويلة، أربطة شاش وقطن، وصورتى فوق بطاقتى ممزَّقة ومعها اسمي.

لا يزال نائمًا على جانبه الأيسر، وجهه ناحيتي، ذراعه اليمنى ممدودة فوق السَّرير. كنت أترك مساحة كبيرة بيننا، مسافة طويلة أطول من ذراعه الممدودة، يده ضخمة كبيرة، أصابعه غليظة، لم أر في حياتي أصابع غليظة بهذا الشكل. أتلفتُ حولي أبحث عن مكان الباب، الظُّلمة شديدة لا أرى الباب، كأنما الغرفة بدون باب، أربعة جُدران عالية سوداء، ولا منفذ للهروب.

هذه الليلة صيف عام ١٩٥٦ تعود إلى ذاكرتي، ومعها ليلة أخرى في صيف عام ١٩٤١، بالضَّبْط ٣٠ أغسطس ١٩٤١، أردت الهرب من بيت أبي وأنا في العاشرة من العمر، لم تكن الليلة مُفزعمة مثل تلك الليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٦. اللحظات المنسية في حياتي تطفو فوق سطح الذاكرة، عيون سوداء صغيرة تلمع وسط حُضَمٍّ من السَّواد، نجوم تظهر في الليل من وراء سحابة كثيفة سوداء. الهروب من بيت الأب أقلَّ إفزاعًا من الهروب من بيت الزَّوجيَّة. كلمة «زواج» تعني باللغة العاميَّة «الجواز»، كانت جدتي تقول: «ربنا كتب علينا الجواز يا بنت ابني، مصيرك الجواز زي كل البنات، القَدْر والمكتوب ع الجبين لازم تشوفه العين، جوازتي كانت جنازتي يا بنت ابني، نحمدك يا رب على كل المصايب ولا يُحمد على مكروه سواك.»

منذ السَّادسة من عمري، وأنا أحفظ هذه الكلمات الثَّلاث عن ظهر قلب، أنطقها في نفْس واحد: «ربنا، المصائب، الجواز.»

كلمة الحب لم تكن هي الجواز، كنت أغنِّي مع الرَّاديو للحبِّ، لم نكُفَّ نحن البنات عن الغناء للحب، لم أسمع في حياتي أغنية واحدة عن الزَّواج.

الحب مصيدة الفئران تدخلها البنات آمنات مغمضات العيون مثل القطط المغمضة، يفتحن عيونهن مفزوعات، تحول الحبُّ إلى أربعة جدران سوداء في بناء آيل للسَّقوط هو بيت الزَّوجيَّة.

فى العاشرة من عمرى خفق قلبى بالحب الأول، لم أكن أرى من الرّجل إلا عىنىه، كان يمكن أن أموت من أجله، اختفى الرّجل لحسن حظّى قبل أن أهرب من بيت أبى، سافر ولم يترك إلا صورة ضوئية اختفت هى الأخرى، وسقطت فى العدم. التقيت به صدفة بعد ثلاثين عامًا، رأيت وجهًا غريبًا له أنف طويل مُدبب وشفتان رفيعتان إلى حد التّلاشى، أيمكن أن يقبّل بهما امرأة؟! عىناه صغيرتان غائرتان بلا بريق ولا ضوء، كيف كانت عىناه تغرقنى كالشّمس، لم أستطع الحملقة فىهما، كنت أسقط فى ما يشبه الإغماء إن رنّت حروف اسمه فى الجو.

فى العشرين من عمرى خفق قلبى بالحب التّانى، عىناه كالحب الأوّل كانتا هما الشّمس، هربتُ من بيت أمى وأبى، تركت كتبى وأوراقى وأقلامى وملابسى وصور طفولتى، سرت فى الطّريق إليه لا ألتفت وراثى، تحوّل الحبُّ لسوء الحظّ إلى زواج، فتحت عىنى على الجدران الأربعة السّوداء، داخل مطبخ فى بيت قديم آيل للسّقوط فى حيّ بمدينة القاهرة اسمه المنيل.

بالأمس رأيت فيلمًا مُفزعًا مخرجه «ستانلى كوبريك»، مأساة الجنود الأميركيين فى حرب فيتنام، مكنة الحلاقة ذات الموصى الحادّة تدور على رءوس الشّباب فى ربيع عمرهم، تجتثّ شعورهم عن فروة الرّأس، الخراف يسلمون جلودها فى المذبح. يتحول الشاب الفنان الرقيق إلى قاتل سفاح، يدرب على القتل دون أن يطرّف له جفن، يقول له المدرب العسكرى: سلاح فى يدك مثل سلاحك بين فخذيك منبع القوة والرجولة.

تدور الكاميرا على أجسام الشّباب فى معسكر التدريب، يُمسكون باليد اليمنى البندقية، وباليد اليسرى يُمسكون العضو الذكري أسفل البطن، يسرون فى صف طويل يشبه القطار الطويل يسير فوق القضبان، كل منهم يمسك قضيبه.

كنت جالسة فوق الكنبّة الزرقاء العريضة فى الصالة، إلى جوارى شريف يتابع الفيلم، دخل المدرب العسكرى غاضبًا إلى أحد الشّباب يأمره أن يسلم سلاحه، نهض الشاب واقفًا يرمقه بعينين يختفى سوادهما تحت الجفن، تحولت العىنان إلى مساحة من البياض بلون الثلج، المدرب العسكرى يقترب منه، يأمره أن ينزع سلاحه، الشاب واقف فى مكانه ثابت، البياض فى العىنين ثابت، الننى الأسود الصغير اختفى تمامًا تحت الجفن، اللون الأبيض فى العىنين كالثلج، تحرك إصبع واحد على الزناد، انطلقت الرصاصات فى صدر المدرب العسكرى، سقط إلى الأرض غارقًا فى دمه، توقّف الشاب يلهث، جلس فوق المرّحاض،

حَدَّثَ مِنْ وَرَاءِ الْوُعْيِ

وضع فوهة البندقية في حلقه، ضغط بإصبع واحد، تفجر الدَّم من حوله، فوق الجدار الأبيض اللامع من السيراميك، فوق السَّقْف الأبيض، وبلاط الأرضية الأبيض، غرق البياض في دم أحمر.

منذ طفولتي يُفزعني الدَّم الأحمر فوق الملاءة البيضاء، دم العذرية والحيض والختان، قطعة دم متجلطة تنزلق من جسدي وأنا أمشي في الشارع، نقطة دم تتركها الإبرة فوق ذراعي بعد أن ينزعها الطَّبيب، وجه الطَّبيب يُشبه وجه المدربِّ العسكري في الفيلم، وجه ممسوح الملامح رمادي اللون كالجرانيت، والعينان ممسوحتان إلا من البياض الأبيض بلون الثلج، يقف أمامي شاهراً الإبرة في وجهي مثل البندقية.

انتهى الفيلم بعد منتصف الليل، أطفأ شريف جهاز الفيديو، ذهبنا معاً إلى النُّوم، أصبح لكلِّ منَّا غرفة نوم مستقلة، داخل كل غرفة مكتب صغير ومكتبة لها رفوف تحمل الكتب والأوراق والصُّور وخطابات الحب السَّريَّة، تعودت الكتابة والنُّوم داخل غرفة خاصَّة، لها باب لا يفتحه أحد، الكتابة مثل النُّوم تحتاج إلى الصَّمت المطبق، الصَّمت داخل الصَّمت. منذ الطفولة تفزعني الأفلام كأنَّما هي الحقيقة، يفزعني الظَّلام في الليل، أتسلَّل من سريري لأنام بجوار أمي أو أختي، تجاوزت السَّتين عامًا والطفلة في أعماقي هي الطفلة، أخاف الظَّلام حين أمشي وحدي في الليل، منظر الدَّم في الأفلام يرتعد له جسدي، يسألني شريف كيف اشتغلتِ طبيبة وجراحة في مستشفى الصِّدر بالجيزة؟ وكيف أمسكتِ المشرط في يدك وفتحت الصِّدر والبطن دون أن يطرَّف لك جفَن؟

وأقول لشريف: إنَّها امرأة أخرى تلك التي اشتغلت بالطَّب والجراحة، أو ربما يختلف الدَّم المراق تحت أيدي الأطباء والطَّبيبات عن الدَّم المراق تحت أيدي العساكر والأزواج.

صور من الماضي ماتت وراحت في العدم، أحاول استعادتها دون جدوى، اللون الأحمر القاني يلطخ السُّطح الأبيض، مشهد أراه في النُّوم حين يغيب الوعي، حين يتسرَّب اللاوعي إلى الوعي، منذ الطفولة يرتعد جسدي لمنظر الدَّم.

قطرة حمراء فوق ملاءة السرير البيضاء، من أين يأتي الدَّم في الطُّفولة؟ ولماذا يتكرَّر دون انقطاع؟ منذ التَّاسعة من عمري رأيت الدَّم في الفراش، تعودت رؤيته الشَّهر وراء الشَّهر، السَّنة وراء السَّنة حتَّى أدبرت طفولتي.

لم تعد البقعة الحمراء فوق الملاءة تُفزعنى، أصبح غيابها هو المفزع، أفتح عيني كلَّ صباح وأبحث عن البقعة الحمراء فوق الملاءة، في ملابسى، في ثنايا النسيج الأبيض أبحث عن قطرة واحدة حمراء.

تمطُّ سامية شفيتها الرَفِيعتين وتقول: هذه أشياء غير مُهمَّة يا نوال، المهم قضية تحرير العمال والفلاحين من الرأسماليَّة والإمبرياليَّة. ويضحك شريف حين يسمعها تنطق هذه العبارة في نفس واحد، يعرف أنَّها صديقتى منذ المدرسة الثانوية في حلوان الداخليَّة، وقد أصبحت زميلة له في حزب اليسار منذ أكثر من نصف قرن.

رغم الاختلاف تستمر صداقتى بها، الصداقة القديمة منذ الطُفولة تصبح مثل علاقات الدَّم، حين كتبت عام ١٩٦٥ عن الختان ومشاكل المرأة الجنسيَّة قالت: إنَّنى أخون القضية الوطنيَّة. وفي عام ١٩٧٢ حين كتبتُ عن النظام الطبقي الأبوي، قالت: لا يوجد إلا النظام الطبقي فقط أو المشكلة الاقتصادية. وفي عام ١٩٨٢ حين بدأنا نُشكِّل تنظيمًا للنساء اعترضتُ، وقالت: لا تمثل النساء طبقة ولا يحق لهن تكوين تنظيم مُستقل. ثم نطقت كلمة «فيمينست» وهي تمطُّ شفيتها الرَفِيعتين بامتعاض.

لكن سامية تغيرت مع مرور الأعوام، وفي عام ١٩٩٥ حضرت مؤتمرًا للمرأة في نيويورك، ثم عادت تتحدث عن النظام الطبقي الأبوي. وفي عام ١٩٩٧ أصبحت ترأس تنظيمًا نسائيًا مُستقلًا، ومجلة للمرأة من النوع الفيمينست. وفي عام ١٩٩٨ بعد أن أصدر وزير الصحَّة قرارًا بمنع ختان البنات فتح شريف الجريدة ذات صباح، رأى صورة سامية تتلقى الجائزة أو الوسام باعتبارها الرائدة في مجال النضال ضد الختان.

في المدرسة الثانوية كانت البنات يبحثن في ثنايا ملابسهن الداخليَّة عن القطرة الحمراء، كان اختفاء الدَّم في حياة البنات يعني كارثة، تخشى البنات الحمل السَّفاح. لا يغسل العار إلا الدَّم، الرِّجال يقومون بالغسيل، والنساء يفقدن الدَّم، يتحول القاتل إلى بطل يحمي الشرف، تُدفن البنات في الخفاء، ويُدفن معها اسمها واسم أمها، يتألق اسم الأب بعد مقتل البنات.

منذ قصَّة العذراء الطاهرة في التَّاريخ تخشى البنات الحمل السَّفاح، يدور السُّؤال في رؤوسهن وهن نائمات: أيمكن أن تتكرر القصَّة في التَّاريخ؟ هناك قصص تكررت وجاء ذكرها في كتب الله، كم مرة تكرر عصيان بني إسرائيل لأوامر الله؟ كم مرة تكرر غفران الله لبني إسرائيل؟ كم مرة أرسل الله إلى البشر رسولًا يحثُّهم على الإيمان به؟ كم كان عدد

الأنبياء والمرسلين؟! كم مرة تكرر نزول الأنبياء إلى النَّاسِ؟ كم مرة أرسل الله مندوبه إلى سيدنا إبراهيم، وسيدنا موسى، وسيدنا عيسى، وسيدنا محمد؟! لماذا إذن لا يتكرر نزول مندوب الله إلى إحدى البنات لتحمل كما حملت ستنا مريم العذراء؟! في المدرسة الابتدائية ورد السؤال إلى ذهني وأنا نائمة، كالحلم الأثم كتمته في أعماقي، ثم اكتشفتُ أن جميع البنات أحلامهن آثمة. وفي المدرسة الثانوية أيضًا همستُ لي الزميلات بما يدور في عقولهن أثناء النوم، قالت صافية: إنها منذ قرأت قصَّة العذراء مريم وهي تحلم بمندوب الله يهبط إليها في الليل. وقالت سامية: إنها لا تؤمن بالله مع ذلك يأتيها المندوب في الحلم. وفي كلية الطبِّ قالت صديقتي بطة: أما أنا يا نوال فقد جاءني المندوب في الواقع والحقيقة وليس في الحلم. ثم كركرت بالضحك، بالشهقات المتقطعة كهواء محبوس يخرج من عنق زجاجة ضيق.

كنتُ غارقة في النوم حين التفتُ الأصابع الغليظة حول عنقي، كما يحدث في الأحلام حاولت أن أفتح فمي لأصرخ، صوتي لا يخرج، الأصابع الغليظة قويَّة، أقوى من أصابعي، أفتح فمي طلبًا للهواء، أشهق بصوت مكتوم، كان يمكن أن أستغيث وأوقظ الجيران، لكنني رأيت أن الموت أهون من الفضيحة.

كلمة «الفضيحة» كانت تخرق أذني منذ ولدت، ولادة الأنثى كانت في حد ذاتها فضيحة تتكتم الأسرة الخبر، تتخفى الأم الوالدة عن عيون النَّاسِ، يغرق بيت المولودة الأنثى في الصمت.

كلمة «أنثى» في حد ذاتها فضيحة، إن قال لي أحدُ أنتِ أنثى أصفعه على وجهه. كلمة «جنس» ترنُّ في أذني نابية. لا أستطيع أن أنطق كلمة «جوزي» بالعامية، أنطقها باللغة الفصحى المحترمة وأقول زوجي. كنت قد تزوجت للمرة الأولى تحت اسم الحب الكبير، قصة طويلة بدأت وأنا في العشرين من العمر فتاة عذراء، وانتهت وأنا في السادسة والعشرين زوجة عذراء، تحولت إلى أم عذراء، ثم تحررت بالطلاق.

لماذا لم أفقد عذريتي حتى اليوم، بعد أن تجاوزت السَّتين عامًا؟ لكن العذريَّة مثل القضاء والقدر، مكتوبة على جبين النساء، ليس في مقدور البشر أن يهتكوا عرْض المرأة الصَّالحة التي تعرف الله، وتعرف أنه اصطفى العذراء مريم من نساء العالمين، هي الوحيدة ذكر اسمها في كتابه الكريم، ولها سورة كاملة في القرآن باسمها «مريم»، تتطلع النساء إلى هذا النَّمونج الأمثل للطهر والنقاء؟!

منذ الطفولة أرى السَّيِّدة مريم العذراء النَّمُوذَج الأعلى، أم المسيح، الوحيدة دون النَّساء أجمعين تمَّ تعريفها بالاسم في القرآن، جميع النَّساء الأخرى باسم مجهولات الاسم، حواء زوجة سيدنا آدم، وزوجات سيدنا محمد عليه السلام لم يُذكر اسم واحدة منهن في القرآن، حتى السَّيِّدة خديجة لم يُذكر اسمها.

كان طبيعياً أن يتجه طموح الفتاة المسلمة المثالية إلى مريم العذراء وليس أي امرأة أخرى، منذ أدركني البلوغ في سن التاسعة من العمر أقسمتُ بيني وبين الله، أنني سوف أكون مثل ستنا مريم، وسوف أحمل وألد دون أن أمارس الجنس وأصبحت أنتظر كلَّ ليلة مندوبَ الله.

وطال الانتظار العام وراء العام، ثم جاءني رجل يتخفى في الظلام، وهمس في أذني أنه مندوب الله. كنت فتاة مثالية يرتعد جسدي حين أسمع كلمة «الله»، أغمض عيني وأهمس: يا رب أرجو أن تذكر اسمي في كتابك الكريم كما ذكرت اسم ستنا مريم، ولماذا تصطفئها هي وحدها، ألا يمكن يا رب أن تصطفئ امرأتين وقد اصطفئ أكثر من عشرين رجلاً من الأنبياء الصالحين؟!

كان ذلك في الطفولة السَّاذجة والمراهقة الأولى، ثم دخلت كلية الطب، أصبحت أفصل بين الحُلم والواقع، بين الوهم والحقيقة. وقعت في حب حقيقي وتزوجت زواجاً حقيقياً على سنة الله والرسول، وحملت وولدت وأصبحت أمّاً حقيقية غير عذراء وغير طاهرة. كان هناك شيء غير طاهر يحدث لي في الليل، شيء لا يبعث على اللذة بل الألم والإثم، كان زوجي الأوَّل رجلاً مكتمل الرُّجولة، كان فدائياً شجاعاً يُضحي بحياته من أجل الوطن، عاد من جبهة القتال كافراً بالوطن.

- الخيانة يا نوال!

- خيانة الحكومة يا أحمد.

- الحكومة هي الوطن يا نوال.

- الحكومة شيء والوطن شيء آخر.

- هذا وهمُّ يا نوال.

- هذه حقيقة يا أحمد.

- لأ، وهم، كل شيء وهمُّ يا نوال، خلاص أنا اكتشفت الحقيقة، كنت مخدوعاً.

جسدي يرتعد حين سمع صوته في الليل يردد: «وهمُّ يا نوال»، كان يصحو طول الليل، يحقن نفسه بجرعة مضاعفة من الماكسيتون فورت، يجلس وراء المكتب ويمسك

حَدَّثَ مِنْ وَرَاءِ الْوُغِيِّ

القلم بين أصابعه، يكتب كلمتين اثنتين لا غير: «الثلاثة وهم» ثم يشطبهما ويبدأ من جديد «الثلاثة وهم» يشطبهما بالقلم ثم يكتبهما أول السطر.

كان يكتب بقلم رصاص، ويشطب بالقلم ذاته، حين ينقصف القلم يضعه في البرّاية، يحركه المرّة وراء المرّة حتى يصبح له سنٌّ طويل رفيع مدبّب. يكوّر الورقة القديمة ويرميها في الصفيحة تحت المكتب، تمتلئ بالورق المكوّر، يُفرغها في صفيحة القمامة في المطبخ، ويعود يجلس إلى المكتب.

يُفرغ البرّاية من النُشارة بعد أن يبري القلم وراء القلم، لا يترك القلم إلا بعد أن يصبح أقصر من عُقلة الإصبع. لم يكن يخرج من البيت إلا ليشتري أقلام الرصاص، رُزَم الورق الأبيض، وعُلبه الماكسيتون فورت من الصيدلية في شارع المنيل.

كنت قد تخرجتُ واشتغلتُ طبية في مستشفى قصر العيني الجديد أو مستشفى المنيل الجامعي، يبعد عن بيتنا مسافة نصف ساعة على القدمين، أخرج في الثامنة صباحاً وأعود في الثالثة بعد الظهر، أراه جالساً وراء المكتب في غرفة النّوم، كانت الشّقة صغيرة، بها غرفة واحدة، وصالة صغيرة للطعام، ومطبخ صغير، وشرفة صغيرة تطلُّ على فرع النّيل الصّغير، يتكوّن البيت من أربعة أدوار، في كل دور شقتان متقابلتان، ونحن في الدور الثالث.

كان راتبي الشّهري عشرة جنيهات ونصفاً، أشتري بها الطّعام ومصاريف البيت، كانت أمه تعطيه تسعة جنيهات كلّ شهر، نصيبه من ميراث أبيه، ينفق الجنيهات التسعة على شراء الأقلام الرّصاص والورق وعُلب الماكسيتون فورت. قبل الطّلاق بفترة قصيرة لم تُعدّ الجنيهات التسعة تكفي، كان يحقن نفسه بجرعة تتزايد يوماً وراء يوم، وهذا أمر معروف في الطّب، إن الجسد قادر على التّغلب على أي سموم تمثي في الدم، مخدرات أو منبهات، يدخل الماكسيتون فورت تحت المواد المنبهة، يحتاج المدمن إلى زيادة الجرعة حتى يتغلب على مقاومة الجسم للمادة الكيميائية.

كان يفتح حقيبتي ويأخذ منها ليشتري الماكسيتون فورت، أصبحت أخبئ الحقيبة في مكان لا يعرفه، بدأ يبيع أثاث البيت، لم يكن عندنا إلا أشياء قليلة، لم يبق إلا السّرير الصّاج الأسود العريض، والمكتب الخشبي والمقعد الواحد الذي يجلس فوقه طول الليل يكتب عبارة واحدة من كلمتين:

«الثلاثة وهم»، ثم يكوّر الورقة ويلقيها في الصّفيحة.

قبل الطلاق بثلاثة أيام خلع الشيش والزجاج من النافذة، وعاد يحمل علبة الماكسيتون فورت، نمت طول الليل أرتجف بالبرد، كان السرير تحت النافذة، لم يكن عندنا إلا بطانية واحدة، فتحت عيني قرب الفجر، رأيته جالسًا يكتب ويشطب ويرمي الورق في الصفيحة. حين رأيته أفتحت عيني رمقني بنظرة غريبة، رأيته رجلًا غريبًا، صوته أصبح غريبًا.

– صحيتى يا دكتور؟

– أيوه.

– قوليلي: الثلاثة دول وهم ولا لأ؟

– الثلاثة مين؟

– الأب، الوطن، الحب.

– حقيقة وهم ... لا يهم، المهم هو أنك تبطل هذا السم الذي تحقن به نفسك!

– لا يعالج السم إلا السم ... وداوني بالتي كانت هي الدواء.

– لا يمكن حياتنا تستمر بهذا الشكل.

– طبعا خلاص الحب راح يا دكتور!

– مش عارفة.

– أنا عارف، الحب وهم كبير.

– لأ.

– يعني مؤمنة بالحب؟

– أيوه.

– مين هو الرجل السعيد يا دكتور؟ لا يمكن أكون أنا؛ لأنني أنا خلاص انتهيت!

– كل شيء يتوقف على إرادتك أنت.

– انتهت الإرادة وكل شيء، لم يبق إلا الموت، وكما كنا نقول أيام الحب: نعيش سوا

ونموت سوا، إيه رأيك نموت سوا؟

ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٦ قبل أن يطلع الفجر.

العالم يحتفل بعيد الثورة الرابع وأنا أختنق، أصابع غليظة تلتفت حول عنقي في

الليل، أحاول أن أصرخ، صوتي لا يطلع كما يحدث في الحلم، أفتح فمي طلبًا للهواء، أشهق

بصوتٍ مكتوم، كنت أفضل الموت على أن يسمع صوتي أحد.

حَدَّثَ مِنْ وَرَاءِ الْوَعْيِ

في حياة النساء كان الموت أفضل من الاستغاثة، المرأة في الشقة المجاورة كانت تستغيث، أسمع صوتها في الليل وأنا نائمة، يفتح الجيران نوافذهم يسمعون صوتها. امرأة أخرى تستغيث في العمارة المجاورة، في الصباح أسمع الناس يتهامون. أبُ يضرب ابنته؛ لأنها تأخرت في الليل، رجل يضرب زوجته؛ لأنه وجد حصوة في صحن الأرز، زوج يقتل زوجته؛ لأنه يشكُّ في سلوكها، يتهامس الناس: وما له؟ الشرف فوق كل حاجة، كل رجل حر في بيته، الرجال قوَّامون، ربنا قال: «واضربوهن»، بنات حواء، ربنا قال: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

يغلق الجيران نوافذهم وينامون، تصحو المرأة على الفضيحة، سيرتها على كل لسان، تكف بعد ذلك عن الاستغاثة. لم أصرخ تلك الليلة، منذ الطفولة لم ألجأ إلى الصُراخ حين يقترب الموت، كنت أفكر في طرق المقاومة أو الهرب.

منذ صيف عام ١٩٥٦ حتى صيف عام ١٩٦٠ فقدت جزءاً من ذاكرتي، أربعة أعوام كاملة نسيت ملمس الأصابع الغليظة حول عنقي، سقطت في العدم كأن لم تكن، لم يبقَ منها إلا ظلال سوداء فوق جدار أسود، ثم اختفت هذه الظلال أيضاً وراحت في العدم. في النوم وأنا غائبة عن الوعي، تبدأ الظلال في الظهور من بطن الخضم الأسود مثل قمة جبل الثلج تحت الماء.

إِهْدَارُ الدَّمِّ

بِدَايَةُ عام ٢٠٠٠.

القلم بين أصابعي والصَّفحة تحت يدي بيضاء، مساحة من الفضاء تنتظر كلماتي، النَّافذة مفتوحة أمامي على السَّماء، أُحْمَلِقُ في مساحات من الخَوَاءِ، أبحث عمَّا كان أبي يقول إنَّه الحقيقة. منذ الطفولة كنت أجادل أبي، لم يكن عقلي يقبل أي شيء دون برهان، يغضب أبي ويقول: هناك حقائق ليس لها برهان، يرمقني بنظرة حمراء لأكف عن الجدل، ولم يكف عقلي عن التساؤل.

كان عقلي مشكلة حياتي، أردت التَّخلص منه منذ الطُّفولة. في سنِّ المراهقة أصبحت بلا عقل، فتاة وادعة مطيعة لا تجادل، لا يدور في رأسها سؤال، أشياء أخرى تدور في جسدها، رغبات عارمة يرتجُّ لها الجسد، أحلام في اليقظة والنُّوم عن الحب، أشياء لها ملمس مادي، الجسد يُعانق الجسد في اللَّيل، ترمقني أُمِّي بنظرة حمراء لأكف عن الحب، لم يكن جسدي يكف عن رغباته.

أصبح جسدي مشكلة حياتي، أردت التَّخلص منه منذ المراهقة، في سِنِّي الشَّباب الأولى أصبحت بلا جسد، امرأة ناضجة مثالية حسنة السيرة والسلوك، زوجة مطيعة لزوجها في البيت، مطيعة لرئيسها في العمل، تُضحِّي بحياتها من أجل الأسرة، وإن قامت الحرب تُضحِّي بالأسرة وتموت فداء الوطن.

مرت بي أيام أمشي في الطَّرِيق مثال الخيال، شبح من الأموات، شاحبة الوجه مُطبقة الشَّففتين في صمت، لا شيء يتحرَّك في عقلي أو جسدي، منذ زمن طويل فقدتهما، أترنَّح وأنا أمشي مثل خيال. كان الموت قريبًا مني أكاد ألمسه بيدي، الموت من أجل الوطن، من أجل

الله، من أجل زوجى. يعلو الله فوق الجميع، من بعده يأتي الوطن أو الملك أو الرئيس، بعد ذلك يأتي الزوج.

فى الليل، كنت أهتف يسقط الملك يسقط الزوج يسقط الإنجليز. كان ذلك فى طفولتى، تغيرت الأسماء فى مرحلة الشباب، أسمع الشباب يهتفون، يسقط الرئيس يسقط الأمريكان، أشاركهم الّهتاف وأضيف من عندى ويسقط الزوج.

صديقتى صفيّة تهتف معى يسقط الزوج، تنضم إلينا الصديقات الأخريات سامية وبطة، الثلاث زوجات مطيعات يلمن بالطلاق فى الليل، أربعة وأربعون عامًا يلمن بالطلاق، يتكرّر الحلم كلّ ليلة حتّى انتهى القرن وجاء القرن الجديد الواحد والعشرون. ذاكرتى تروح وتجيء فى الزّمن على نحو عجيب، يتلاشى نصفُ قرن فى لحظة، واللّحظة الحاضرة تمتدُّ أمامى لا نهائية، يلتحم الماضي بالحاضر فى لحظة واحدة، الصّوت يتسرّب إلى أذنى واضحا كأننى أسمعهُ الآن، اقتلوها الكافرة عدوّة الله. أهبُّ من النّوم على الصّوت يزعق فى شارع الحيزة، النّافذة مغلقة بالشيش الخشبى والزجاج المزدوج، شريف نائم فى سريره المجاور لسريري، كان لنا سريران مُنفصلان فى غرفة نوم مشتركة، الجدران بيضاء نظيفة والملاء ناصعة البياض، الأرض من البلاط النّاعم، أنزلق فوقه حين أمشى، فوق المنضدة السّاعة تشير إلى الواحدة، النتيجة فوق الحائط ثابتة عند ٣١ ديسمبر ١٩٩٨، عيد رأس السنة الجديدة، أشياء مُفزعة تحدث دائميًا ليلة العيد، منذ طفولتى لأحب الأعياد، يمتلئ قلبى بالحزن حين يتألّق العالم بالفرح.

أهدروا دمها الكافرة عدوّة الله.

جفونى مثقلة بالنّوم، يسرى الصّوت إلى أذنى قبل أن أفتح عيني، أضواء خافتة تتسرّب من شقوق الشّيش، أمشى إلى النّافذة على أطراف أصابعى، أتوقّف لحظة لألتقط أنفاسى، أطل من بين الشّق، الشّارع ليس فيه أحد، عربة كارو يجرّها جمار، صاحبها راقد فوق ظهره يهتز مع اهتزاز العربة، سيارات مُسرعة تظهر أنوارها ثم تختفي، الشّق ضيقّ، أخشى أن أفتح النّافذة، الصّوت يزعق، يردد بعض الأسماء، يرنُّ اسمى واسمُ أبى وجدي السعداوى الّذى مات قبل أن أُولد.

– اقتلوهم الكفرة أعداء الله.

أذناى من وراء النّافذة المغلقة تلتقطان الأسماء واحدًا وراء الآخر، يرنُّ اسمى فى الجو: نوال السعداوى. يخترق رأسى مثل طليقة الرصاص، يفتح شريف عينيه، يرانى واقفة وراء النافذة جامدة مثل تمثال.

- فيه إيه يا نوال؟

- سامع الصُّوت؟

يفتح شريف النَّافذة، من أين ينبعث الصُّوت، الميكروفون فوق مئذنة الجامع المجاور لنا، أو الجامع الآخر الجديد في الشَّارع الخلفي، أو الجامع القديم وراء الكنيسة، أو المئذنة الجديدة بدون جامع، تبرز بين البيوت من فوق ميكروفون ضخم، يربَّت شريف على كتفي: نامي يا نوال وبكرة الصبح نعرف إيه بيحصل في البلد.

يأتي الصُّبح ولا نعرف شيئاً. لا أحد في الكون يعرف الحقيقة إلا الله والسَّيِّد الرَّئِيس. هكذا قال يوسف إدريس لشريف عبر أسلاك التِّلِفون، يضحك ويقهقه بصوت يهزُّ الأسلاك. أيوه يا شريف محدش عارف حاجة، البلد على كف عفريت، فاكِر حريق القاهرة في يناير اثنين وخمسين، الحكومة والإنجليز حرقوا البلد عشان يضربوا العمل الفدائي في القنال، أنا مُتوقع حرايق في البلد مش حريق واحد، الجماعات الإسلامية دي عملها السَّادات عشان يضربنا يا شريف، عشان يضرب اليسار كله، وطبعاً معاه الأمريكان، أنا باسمع اسمي في الميكروفونات فوق الجوامع، الجوامع دي كلها بنتُّها الحكومة بفلوس أمريكا، عشان يتخلصوا منا يا شريف، أنا عارف إن الحكومة والأمريكان عاوزين يخلصوا مني أنا بالذَّات؛ لأن مقالاتي في الأهرام أخطر من المقالات في صحف المعارضة، عاوزين يقتلونني يا شريف.

- مش أنت لوحك يا يوسف، فيه ناس كثير عاوزين يقتلوهم أكثر منك، لو كانت الحكومة عاوزة تتخلص منك كانوا شالوك من الأهرام يا يوسف.

- أيوه يا شريف، لكن أنا عارف إن الحكومة سايباني أكتب عشان تكون عندنا معارضة وديموقراطية، لكن المسألة تطورت وخلص مش عاوزين أي معارضة، على فكرة أنا سمعت اسم نوال، مش عارف إزاي يهدروا دم امرأة؟

- زي ما بيهدروا دم الرَّجل يا شريف.

- لكن المرأة غير الرَّجل يا شريف.

- مش فاهم.

- في الصَّعيد مثلاً دم الرَّجل هو المطلوب في الثَّار، وفي السَّياسة أيضاً دم الرَّجل هو المطلوب.

- ليه يا يوسف، هو الرَّجل فقط اللي عنده دم؟!

كان الجدل يدور بين شريف ويوسف عبر أسلاك التِّلِفون، يضحك يوسف بصوت عالٍ، تهتزُّ الأسلاك مع قهقهته ويتحول الحديث من السَّياسة إلى المرأة.

كان يوسف إدريس زميلاً لأحمد حلمى فى كلية الطب وأحمد المنيسى وفؤاد محيى الدين وغيرهم من الطلبة، لماذا بدأ أحمد حلمى مختلفاً عن الجميع؟! الصّوت الهادئ المنخفض، الكلام القليل، الخطوة فوق الأرض الواثقة غير المتسرعة؟ العمل فى صمت دون ضجّة، فى الاجتماعات فى المدرج الصّغير كنت أراه جالساً فى الصّف الأخير، يتنافس زعماء الطلبة على الميكروفون وهو فى مكانه جالس، يدقون بقبضة اليد على المنصّة ويلقون الخطب، يثرثرون بأصوات عالية وهو صامت، يتكلمون فى وقت واحد يقاطعون بعضهم بعضاً، وإذا تكلم أحمد حلمى صمت الجميع.

حين التقيت لأول مرة بشريف حتاتة عام ١٩٦٤ تذكرت أحمد حلمى عام ١٩٥١، برزت ملامحه من العدم، الجبهة العريضة، والشعر الأسود الغزير، الحاجبان الكثيفان، العينان، الأنف، الصّوت، المشية فوق الأرض، الكلام القليل والعمل فى صمت، مات أحمد حلمى بعد أن عاد من الحرب مهزوماً، ماتت الروح قبل أن يموت الجسد، كان يحقن نفسه بالسم لينسى الخيانة، مات شهيد الوطن مثل أحمد المنيسى دون أن يُقام له حفل تأبين. كان زعماء الطلبة مثل زعماء الأحزاب السّياسيّة، تعلموا منهم قواعد اللعبة، لم يُستشهد منهم أحد، لم تسقط من أحدهم قطرة دم، أصبح فؤاد محيى الدين وزيراً للصّحة ثم رئيساً للوزراء، كان فى كلية الطب ضمن اليسار، عضو لجنة العمال والطلبة، وفى عهد عبد الناصر كان يخطب عن الاشتراكية والقطاع العام، وفى عهد السّادات لم يعترض على شيء، جلس فى مقعد رئيس الوزراء، يتلقى التوجيهات من السيّد الرئيس، الانفتاح والرأسمالية والسّوق الحرة والقطاع الخاص، ثم سقط فى مكتبه ومات بالسكّنة القلبيّة وهو رئيس الوزراء فى عهد حسنى مبارك.

التقيت بفؤاد محيى الدين لأول مرة عام ١٩٥١، فى اجتماعات طلبة كلية الطب بالمدرج الصّغير، تخرّج قبلنا بعدة سنوات وتخصّص فى الأشعة، طويل القامة نحيف الجسم أنيق الملابس يشبه الطاوس، عيناه تتجاوزان كلية الطب إلى وزارة الصّحة ومجلس الوزراء. التقيت به أكثر من مرة وهو وزير للصّحة، كنا نتحدث فى الأدب والإبداع، تتجاوز عيناه جدران مكتبه ويتنهد قائلاً: كنت أتمنى أن أكون أديباً مبدعاً مثلك ومثل يوسف إدريس. ثم يضحك، إيه رأيك يا نوال نتبادل المواقع، تبقى أنتى وزير الصّحة وأنا أديب مشهور فى العالم زيك. أضحك وأقول له: إذا بقيت وزيرة الصّحة لازم يرفدونى بعد أسبوع.

صوت أبى الميت كان يهمس فى أذنى، الوزير يأتى بقرار ويذهب بقرار، والأديب لا أحد يعيّنّه ولا أحد يعزله إلا قلمه.

لم يكن فؤاد محيي الدين صديقًا، رغم حديثنا عن الأدب والفن، كان هناك حاجز زجاجي يقف بيني وبينه، ربما كنت أحس أن ميوله السياسيّة تحجب ميوله الأدبية، أن طموحه في المنصب العالي أكثر من طموحه الأدبي. يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٨١ كان لقائي الأخير بفؤاد محيي الدين، كان جالسًا إلى جوار رئيس الدّولة حسني مبارك فوق الكنبة المذهّبة في قصر العروبة، إلى جواره محمد حسنين هيكل، ثم فؤاد سراج الدّين، وشخصيات أخرى ممن أدخلهم أنور السادات السّجن قبل اغتياله بشهرٍ واحد. هذه الاعتقالات عُرفت باسم مذبحه سبتمبر الأسود عام ١٩٨١، كنت واحدةً من المسجونين، ثم أصدر حسني مبارك قرارًا بالإفراج عن الدفعة الأولى من المسجونين بعد اغتيال السادات بشهرين، انفتح بابُ السّجن في صباح ذلك اليوم وحملوني من الزنزانة داخل سيارة فولكس فاجن إلى قصر العروبة، حيث استقبلنا رئيس الدّولة ورئيس الوزراء فؤاد محيي الدين.

كنت أرتمي حذائي الكاوتش، أخفيت داخله رسالة إلى رئيس الدّولة أطلبه بالتحقيق في جريمة اعتقالي دون سبب إلا كتابة رأيي، قبل الاجتماع أخرجت الرسالة من حذائي وناولتها لرئيس الدّولة، قرأها كلها حتى آخر سطر ثم قال لي: معلش يا دكتورة نوال. رنّت كلمة «معلش» في أذني غريبة، هل يضعونني في السّجن دون جريمة ثلاثة شهور ثم يقولون لي معلش؟ ألقى رئيس الدّولة علينا خطبة عن نظامه الجديد في ظلّ الديموقراطية والحرية والقانون، علينا أن ننسى الماضي ونتطلع إلى المستقبل، قال بلغته هذه الحروف: بلاش ننبش القبور. وكان يعني أن ننسى فترة السّجن، أن ننسى ما فعله السادات بنا، وأن ننتظر ما يفعله الرّئيس الجديد.

لم يقنعني هذا الكلام، كنت أرى أن تقييم الماضي ضرورة لعدم تكرار الأخطاء، وأن التحقيق فيما حدث يتمشى مع القانون، ثم لماذا ينتظر النّاس دائمًا ما يفعله رئيس الدّولة، لماذا لا يعملون بدلاً من مجرد الانتظار؟ ولماذا يصبح رئيس الدّولة هو الفرد الوحيد الذي يعمل والذي يتخذ القرار ونحن علينا أن نجلس في بيوتنا وننتظر؟

بدأ فؤاد سراج الدّين يتكلّم بعد أن انتهى رئيس الدّولة من كلمته، قال فؤاد سراج الدين: يا سيادة الرّئيس، لقد أنابني زملائي لأتكلّم عنهم. دُهِشت لهذه العبارة الأولى؛ لأنّ أحدًا لم يأخذ رأيي في موضوع الإنابة هذه، كان عددا ثلاثة وعشرين شخصًا، منهم واحد وعشرون رجلًا، وامرأتان فقط، أنا واحدة منهما، سألت زميلتي: هل تعرفين شيئًا عن هذه الإنابة؟ هزّت رأسها بالنفي، سألت الزميل الجالس إلى جوارني، فقال: لا أعرف شيئًا يا دكتورة نوال، لكنّي سمعتُ أنّ محمد حسنين هيكل اقترح على اثنين من أصدقائه

المقربين إنابة فؤاد سراج الدين للتحدث نيابة عن الجميع، وأبلغوا رئيس الوزراء الدكتور فؤاد محيى الدين بهذا القرار لإبلاغه للسيد الرئيس، وبالطبع لم يأخذ رأينا أحد. قلت: كيف ينوب عنّا أحد دون أن نعلم؟ هذا تصرف غير ديموقراطي ... كيف نقبله نحن الذين دخلنا السجن؛ لأننا اعترضنا على التصرفات غير الديمقراطية؟ ابتسم الزميل فى أسى وقال: يا دكتورة نوال الأفضل أن نسكت وإلا أعادونا إلى السجن!

لم يُعبّر فؤاد سراج الدين عما كان يجيش فى صدرى، رفعت يدي وطلبت الكلمة بعد أن انتهت من كلمته، رمقتنى بعض العيون بشيء من الضيق، ثلاثة أو أربعة من كبار الأسماء الذين كانوا داخل السجن بالأمس ثم أصبحوا اليوم شيئاً آخر، يتطلعون إلى رئيس الدولة ورئيس الوزراء ويرمقون المساجين الآخرين شزراً.

أعطاني رئيس الدولة حق الكلام، تكلمت، قلت كل ما عندي فى أقل من خمس دقائق، تشجّع بعض المسجونين الآخرين وطلبوا الكلمة، ربما تلغتم أحدهم خوفاً أو رعباً، إلا أنه فتح فمه وعبر عن رأيه، زميلتي المسجونة تكلمت وطلبت حماية النساء الحوامل فى السجن، وتكلم شاب عن رعاية صغار السن وعدم تعريضهم للضرب أو التعذيب ... وفجأة رأيت محمد حسنين هيكل ينظر فى ساعته فوق معصمه، وقال هذه العبارة: أظن أن وقت السيد الرئيس ثمين ولا يسمح بمزيد من الكلمات وأقترح قفل باب الحديث.

فى لقاء لى مع محمد حسنين هيكل بعد بضعة شهور سألته: لماذا قلت هذا الكلام، وهل وقت الرئيس أثنى من وقت ثلاثة وعشرين شخصاً دخلوا السجن دون جريمة؟ وإذا كان هو لم يقفل باب الحديث لماذا تقفله أنت وكنت مسجوناً معنا؟ ثم لماذا لم تأخذوا رأينا فى موضوع إنابة فؤاد سراج الدين ليتكلم عنا؟ ألم تفعلوا بنا ما يفعله أى حاكم دكتاتور رغم أنكم تكتبون عن الديمقراطية؟!

كان شريف معى فى هذا اللقاء وسمعنى أقول هذا الكلام، نظر إليه محمد حسنين هيكل وقال: الدكتورة نوال صعبة أوى مش كده ولا إيه يا دكتور شريف؟ ابتسم بهدوء وقال: نوال تُعبّر عن رأيها وهذا حقها.

بعد اللقاء مع رئيس الدولة يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٨١ خرجت من قصر العروبة، قالوا لنا داخل القصر: إن قرار الإفراج صدر ويُمكننا العودة إلى بيوتنا. اجتزت حديقة القصر الكبيرة أشم رائحة الزهور، رمقنى أحد الصحافيين فأقبل نحوى، نظر إلى حذائى الكاوتش مندهشاً، وقال: أتقابلين رئيس الدولة بهذا الحذاء الكاوتش؟! قلت: ولماذا تنظر إلى حذائى يا أستاذ؟!

وقفت عند محطة الأتوبيس أنتظر سيارة أجرة تحملني إلى بيتي في الجيزة. فوق الأرض وضعت حقيبتي بها ملابس السَّجْن، أرمق النَّاس وهي تمشي في الشَّارع، كيف يمشون هكذا دون أن تقبض عليهم الشُّرطة، كأنما لم أمش في الشَّارع أبداً بهذه الحرِّيَّة؟ كأنَّما رجال البوليس سوف يأتون بعد لحظة لإعادتي إلى السَّجْن. لم تكن كلمتي أمامَ رئيس الدَّولة هي الكلمة المطلوبة، انتزعَتْها من بين برائث السُّلطة وزملاء السَّجْن. لم يطلبها أحد، لم يرغب في سماعها أحد. تقلصت وجوه الرِّجَال حين تكلمت، بما فيها وجه رئيس الدَّولة، كيف تتكلم امرأة بهذا الشَّكل في أمور لا يتكلم فيها أحد. كلمة فؤاد سراج الدين لم تخرج عن تقديم الشكر والامتنان لرئيس الدَّولة؛ لأنَّه أطلق سراحنا. كلمة زميلتي لم تخرج عن طلب حماية المرأة الحامل في السَّجْن باسم الشَّفقة، كلمة الشَّفقة تطرب لها آذان الرِّجَال، الشَّفقة بالمرأة الحامل الضَّعيفة، ضَعف النَّساء يُؤكِّد قوَّة الرِّجُل، الرُّجولة هي القوة والقوامة، الرِّجَال قوامون على النَّساء. زميلة السَّجْن كانت ترتدي الحجاب، تؤكِّد به هوية الأنثى التي يطلبها الرِّجَال. لم تتقلص الوجوه حين تكلمت الزميلة المحجبة، خرجت من السَّجْن وأصبحت صورتها في كل مكان، تكتب في صحف الحكومة والمعارضة، تتحدث باسم الإسلام والتراث والحجاب، أصبح لها مقال أسبوعي في إحدى الصُّحف الحكومية الكبرى، صورتها بالحجاب على رأس المقال، على وجهها ابتسامة أنثوية ناعمة، شفتاها متوردتان.

أمام باب الشَّقة في الجيزة وضعت حقيبتي على الأرض، رأيت اسمي فوق رقعة نحاسية صغيرة، ضغطت على الجرس، فتح شريف الباب، مش معقول! أي مفاجأة! كان يظن أنَّني في السَّجْن، لم يُنشر الخبر بعدُ في الصُّحف. ألقيت ملابس السَّجْن في صفيحة القمامة، وأخذت حمَّامًا ساخناً، تمددت فوق السَّرير النُّظيف الدافئ، المُلءاة بيضاء ناعمة تفوح برائحة صابون معطر، أدفن رأسي في الوسادة النَّاعمة، أغمض عيني كأنِّي في حُلْم سأسحو منه بعد لحظة، وأجد نفسي في زنزانة السَّجْن.

جاءني ابنتي منى وابني عاطف من المدرسة آخرَ النهار، أخفاني شريف في الغرفة ليصنع لهما المفاجأة، أراهما من ثقب الباب جالسَيْن في الصَّالة، سحابة من الحزن تطفو فوق الوجوهين الحميمين، عيون أطفال خطف بريقها غيابُ الأم، خيالهما قادر على اختراق جدران السَّجْن، يكسر القضبان الحديد، يرى الأم جالسة فوق الأرض، تكتب بأصابعها فوق التراب رسالةً إلى أطفالها.

فى صباح اليوم التالى قرأ شريف الصُحف، خبر الإفراج عن المسجونين فى الصفحة الأولى، برقيات التهنة إلى السيد رئيس الدولة يتبارى على نشرها الكتّاب المعروفون، دُوو الأعمدة اليومية الثابتة أو المقالات الأسبوعية الطويلة، لم يفتح أحدهم فمه حين صدر قرار الاعتقال، وتم حبس أكثر من ألف شخص دون تحقيق ودون جريمة، كتب أغلبهم يؤيدون قرار الحبس، وصمت الباقون. قلت لشريف: الصمت فى مثل هذا الوقت جريمة أو على الأقل مشاركة فى الجريمة.

فى جريدة الأهرام ظهرت برقية التهنة لرئيس الدولة بقلم يوسف إدريس، الكاتب الكبير، ظهر اسمه بالبنط العريض، كأنما هو بطل الإفراج عن السجناء، لا يفوقه بطولة إلا رئيس الدولة، أصبح البطلان محطّ الأنظار، واختفى المسجونون داخل البيوت أو بين السُطور، لا تُنشر أسماءهم إلا بالبنط الصغير جدًّا، لا يكاد يُرى بالعين المجردة.

حين كنت فى السجن كتبت رسالة إلى توفيق الحكيم ويوسف إدريس، قلت لتوفيق الحكيم: أنت رئيس اتحاد الكتّاب، ورئيس لجنة القصة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، وأنا عضوة باتحاد الكتّاب، وعضوة بلجنة القصة، وقد دخلت السجن دون تحقيق ودون جريمة، أرجو أن ترفع صوتك ضد هذا الحبس غير القانونى، وأن ترسل مندوبًا من اتحاد الكتاب ليكتب تقريرًا عن حالة الزنزانة التى أعيش داخلها.

وفى الرسالة نفسها إلى يوسف إدريس قلت له: أنت زميل لى فى اتحاد الكتاب ولجنة القصة، ولك مقال أسبوعى بجريدة الأهرام، أرجو أن تكتب شيئًا ضد قرار الحبس دون تحقيق ودون جريمة.

لم ينطق توفيق الحكيم أو يوسف إدريس بكلمة واحدة، لم يجتمع اتحاد الكتاب ليقرر إرسال مندوب ليرى حال الزنزانة، وفجأة بعد قرار الإفراج يخرج يوسف إدريس عن صمته ويرسل إلى رئيس الدولة يهنئه بعبارات التمجيد والولاء.

بعد أيام جاء يوسف إدريس إلى بيتنا فى زيارة، قال: إنّه جاء للتهنة، وكان يريد أن يشتري لى باقة ورد، لكن جميع محلات الورد كانت مغلقة. وضحك شريف، يا يوسف بلاش مبالغة، معقول كل محلات الورد قفلت؟! سهر معنا يوسف إدريس تلك الليلة، ربما كان تحت تأثير مادة الماكستون التى أدمن عليها مثل أحمد حلمى، يصبح لسانه ثقيلًا فى الكلام، يحتقن وجهه ويتورم قليلًا، يداه أيضًا تتورمان، يميل إلى السهر والكلام دون انقطاع، يصور له الوهم أنه بطل.

— عارف يا شريف مين السبب وراء صدور قرار الإفراج عن المساجين؟

– مين يا يوسف؟

– أنا يا شريف، أنا اللي ...

شريف يستمع إليه، يتسم بهدوء ونوع من السُّخريّة الخفيفة، يعرف أن يوسف إدريس لم يردّ على رسالتي، ولم يكتب كلمة واحدة ضد قرار الحبس، وأنّه يعيش وهم البطولة منذ كان طالباً في كلية الطبّ، وأنّ مادة الماكسيتون المنبهة تُسري في دمه، تصور له الوهم كأنّما هو الحقيقة.

كان يوسف إدريس يجلس أمامي منفوخاً بالماكسيتون وغرور العظمة، أصبح يحمل لقب الكاتب الكبير، وأصبحت أنا السجينة رقم ١٥٣٦. الألم في عمودي الفقري، والنّوم فوق أرض الزنزانة، صمت الزّملاء والزّميلات من الكُتّاب والأدباء، وصمت نقابة الأطباء، أرسلتُ رسالة إلى نقيب الأطباء فلم يرد.

تلك الليلة لم يَكُفَّ عن الكلام، يقول إنّه السَّبب وراء خروجنا من السُّجن. وكان شريف يتثأب ويريد أن ينام، وأنا أيضاً مللت كلامه عن بطولته الوهميّة، وقلت وأنا أتثأب: أعتقد يا يوسف أنك في حاجة إلى الذهاب إلى بيتك لتنام. قال: ولكني لا أريد أن أنام. قلت: ولكننا نريد أنا وشريف أن ننام. نهض متثاقلاً واقفاً فوق قدميه، وقال: عرفتِ يا نوال أنّي كنت السَّبب وراء قرار الإفراج عنكم؟ قلت: وكيف أعرف وأنت لم تنطق بكلمة واحدة حين كنّا في السُّجن؟!

مثل البالونة المنفوخة بالهواء تثقبها إبرة رفيعة، انكشمت البالونة وجلس يوسف إدريس بعد أن كان واقفاً، رمقني بشيء من الغضب، لم أنس أنه صمّت حين كان الكلام واجباً. أكثر ما كان يغضبه أنه لم ينس هو أيضاً، أكان ضميره يؤرّقه؟! أكان يحقن نفسه بالماكسيتون لينسى دون أن ينسى؟! كان أحمد حلمي يقول: الماكسيتون ليس مثل المخدرات يُضعف الذاكرة، إنّه أخطر المنبهات جميعاً، يُشعل الأحاسيس، تلتهب خلايا العقل إلى حد نسيان كل شيء، مع ذلك تظل الذاكرة مشتعلة لم تنس شيئاً.

أول مرة أسمع عن قائمة الموت أو إهدار الدم كان عام ١٩٨٨، أرسلت الحكومة حراسة أمام بيتي في الحيزة، وبودي جارد لحماية حياتي، لم أكن أدرك فكرة إهدار الدم، لم أسمع اسمي يرُنُّ في الليل من فوق الجوامع. وقال شريف: ما رأيك أطلب لطيفة الزيّات في التليفون، لا بد أن لديها بعض معلومات؟

لم تشأ لطيفة الزيات أن تتكلم عبر الأسلاك. أنت عارف يا شريف، التليفونات عليها رقابة، أنا جاية الجيزة ويمكن أمر عليكم بالبيت، بوسلى نوال يا شريف.

كانت لطيفة الزيات صديقتى منذ نهاية الستينات نلتقى بصفة منتظمة في اجتماعات لجنة القصة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، وكان لها أخ يحتل منصباً كبيراً في الدولة، يلتقى بالسادات أحياناً، يهمس لأخته لطيفة أحياناً بمعلومات لا يعرفها أحد. حين فقدت منصبى في وزارة الصحة في أغسطس عام ١٩٧٢ همست لطيفة في أذنى: السادات يقول لسانك طويل. وأطلقت ضحكها العالية على شكل قهقهات متقطعة، ومدت يدها البضة الناعمة وأمسكت يدي، وراحت دون انقطاع، يتورد وجهها الممتلى، يقفز الخدان المكتنزان إلى أعلى، يضغطان على العينين الصغيرتين، تنغلق الجفون إلا من شق ضيق يطل منه جزء من الننى على شكل خط أسود، يصبح وجهها مستديراً كوجوه الأطفال، يهتز جسمها المربع الممتلى. أسمع ضحكها في الشارع قبل أن أدخل بيتها، تذكرنى بضحكة أمى، لكن جسد أمى لم يكن يهتز، وكان لضحكها رنين في الجو يشبه رنين الفضة المجلوة. لم تكن أمى تدخن ولم يكن صوتها مبحوحاً أو مشروحاً بالدخان. كنت أضحك مع لطيفة وأقول لها: أنت مدخنة يا لطيفة. تموت على نفسها من الضحك، ثم تصمت فجأة، تكسو وجهها سحابة حزن وتقول: أعمل إيه يا نوال، خلاص ما فيش لذة في حياتى إلا دى. وتشير إلى السيارة بين شفتيها.

كانت تجلس إلى جوارى في لجنة القصة، يجلس توفيق الحكيم عند رأس المائدة؛ فهو رئيس اللجنة، يجلس نجيب محفوظ وثروت أباظة عن يمينه، ويجلس يوسف إدريس ويوسف الشارونى عن يساره. يفتح توفيق الحكيم الحديث عن الاشتراكية والرأسمالية، ثم يطرح السؤال: هل الله اشتراكي أم رأسمالي؟ يقهقه يوسف إدريس ويقول: أعتقد أنه من أهل الوسط يا أستاذ توفيق. تقهقه لطيفة الزيات وتقول: يعنى قصدك من الحكومة؟ لم يكن مثل هذا الحديث يعجب بقية الأعضاء، لكن أحداً لم يكن يعترض على الرئيس، منذ الإله أختاتون ورمسيس الأول، يحترم المصريون الملوك والرؤساء. يدرك توفيق الحكيم هذه الحقيقة ويسترسل في حديثه متجاوزاً الخطوط الحمراء، يحكى بعض الفكاهات عن الملك فاروق، يضحك يوسف إدريس ويقول: النكتة دى فيها إسقاط يا أستاذ توفيق؟ إسقاط على مين يا يوسف؟! وينفجر أعضاء اللجنة بالضحك، تتصاعد القهقهات مع دخان السجائر حتى السقف.

ثم ينتقل توفيق الحكيم من السِّياسة إلى المرأة، لا يمل الحديث عن المرأة، رغم أنه كان يحمل لقب عدو المرأة. تلمع عيناه وهو يتحدث، تدوران على وجوه الرِّجال أعضاء لجنة القصة، ثم تثبتان على وجه واحدة من الأدبيات.

رغم كهولة توفيق الحكيم كان يتمتّع بحيوية تفوق الشَّبَاب، شعره الأبيض مع البريق في العينين يُضفي عليه جاذبية خاصّة. تنقضي السَّاعة وراء السَّاعة وهو يحكي النُّوادر والفكاهات عن أيام شبابه، يحرك رأسه ويديه في حماس ويقول: المرأة ملاك أو شيطان ولا ثالث لهما. يهتف أعضاء اللُّجنة في نفس واحد على رأسهم يوسف إدريس: تمام يا أستاذ! يرمقني توفيق الحكيم بطرف عين، يراني صامته مترفعة عن الرَّد، أفكّر في شيء آخر، تطلق لطيفة الزِّيأت ضحكها، القهقهة المتقطعة المتصلة، تشعل سيجارة جديدة بأصابع ترتعش قليلاً، يهتز جسمها مع الضَّحك، تمد يدها المهتزة تحت المائدة وتمسك يدي، تقرب فمها من أذني وتهمس: عينه عليكي يا نوال!

– مين يا لطيفة؟

– يعني مش عارفة؟!

حين دخل اسمي قائمة الموت عام ١٩٨٨، همستُ لطيفة الزِّيأت في أذني: بيقولوا يا نوال روايتك سقوط الإمام فيها إسقاط!

– إسقاط!

– أيوه يا نوال.

– إسقاط على مين؟!

– على السَّادات.

– ده مات يا لطيفة من سبع سنين!

– بيقولوا لسه عايش.

وأطلقت ضحكها الطويلة المتقطعة الأنفاس، أشعلتِ السَّيجارة وراء السَّيجارة، تحكي لي الحكاية المرة بعد المرة، تنسى أنّها حكَّتها من قبل، ترتعش أصابعها وهي تُشعل عود الكبريت، تضحك بعد كل عبارة تنطقها وتمد يدها لتمسك يدي.

عام ١٩٩٢ دخل اسمي قائمة الموت مرّة أخرى، وضعتِ الحكومة حراسةً مُسلَّحة أمام بيتي في الجيزة، وبودي جارد يُرافقني ليل نهار، قال شريف: حياتك في خطر يا نوال، ولا بد من السَّفر إلى مكانٍ بعيد.

لم نكن نعرف من أين تنطلق الرّصاصة، من الجماعات الإسلامية أم من الحرّاس؟ كانت صديقتى القديمة بطّة في مؤتمر إعلامى دولى في لندن، وكانت سامية في نيويورك في مؤتمر نسائى دولى، جاءت صافية إلى بيتى وسألتنى: هل لطيفة الرّيات صديقتك يا نوال؟ قلت لها: نعم، هي صديقتى. قالت صافية: غريبة أوى، ليه هي بتقول كلام ضدك يا نوال؟ كلام ضدى؟ يمكن مجرد إشاعات يا صافية. لأ يا نوال، ده كلام مكتوب في المجلة، خدى اقري يا ستّى!

كانت مجلة أدبيّة عربيّة، وحوار أجرته إحدى الصّحافيات مع لطيفة الرّيات، سألتها هذا السّؤال: كيف تفسرين نجاح روايات نوال السعداوى المترجمة إلى اللّغات الأجنبيّة؟ جاء رد لطيفة الرّيات: لأنّ نوال السعداوى تكتب للغرب!

قبل ذلك بأيام قليلة كانت لطيفة الرّيات في بيتى، كانت تقول لى: إننى أهم روائية عربيّة، وإنها سوف تُصدر كتابًا نقدياً عن أعمالى الأدبيّة. كانت تتحدّث بحماس، وتضحك مع شريف وتقول له: أنت يا شريف كاتب مبدع، روايتك «الشبكة» جميلة جدًّا، هل تنوى ترجمتها إلى الإنجليزيّة؟

– دي رواية طويلة جدًّا يا لطيفة.

– وما له؟

– أنا مشغول بترجمة روايات نوال.

– اشمعنى يعنى؟

– روايات نوال بتعجبني.

عام ١٩٨٠ ظهر أوّل كتاب لى باللغة الإنجليزيّة، كان شريف هو الذى تحمّس لترجمته، نجح الكتاب وتُرجم إلى لغاتٍ مُتعدّدة، ومن بعده بدأ النّاشرون في أنحاء مختلفة من العالم يطلبون ترجمة كتبى الأخرى.

وأصبح جرس التّليفون يرنّ في بيتنا، الأدباء الكبار يأتون إلينا في زيارات مفاجئة، جاء عبد الرحمن الشّرقاوى يحمل عددًا من كتبه، أهذاها لى ولشريف. بعد أن انتهت الرّيارة، قال لشريف وهو يودّعه على الباب: «عندك كارت بلانش، إذا شفت إن كان كتاب من كتبى ممكن ترجمته ونشره في لندن!» وقال شريف بهدوء: «أنا روايتى ولست مُترجمًا يا عبد الرحمن.» كانت الرّيارة الأولى والأخيرة لعبد الرحمن الشّرقاوى، قرأنا نعيه في جريدة الأهرام بعد شهور قليلة. وكان يوسف إدريس يضحك مع شريف، يداعبه ويقول: يعنى اشمعنى نوال يا أخى اللى أنت نازل ترجمة لرواياتها، ما تترجم لى رواية أو مجموعة

قصص يا شريف! ويضحك شريف معه ويقول: لازم تعملي شوية إغراءات يا يوسف، ثم أنت عندك الحكومة كلها ومؤسساتها والمترجمين بتوعها.

قرأ شريف معي ما كتبته لطيفة الزيات عني، وبدأ عددٌ من الماركسيين والماركسيات يُردِّدون ما قالته لطيفة، وعدد من النقاد الأدباء والأدبيات العاجزين عن نشر أعمالهم في الخارج. كان نجاح روائيةٍ مصرية خارج البلاد أمرًا غير مألوف، وهي لا تتبع لا الحكومة ولا حزبًا ولا المجلس الأعلى للثقافة.

حين عادت سامية من الخارج قالت لي: والله يا نوال حاجة تفرِّح إن كاتبه مصرية تحصل على هذا التقدير والاحترام في العالم. قلت لها: وما رأيك فيما أشاعته صديقتك لطيفة؟ مطت سامية شفيتها الرفيعتين وقالت: شيء طبيعي يا نوال، أنا كمان باحقد عليك، الغيرة تنهش قلبي وأحيانًا أقول يا رب تموتي يا نوال!

يضحك شريف، ويقول: أنا باحب صراحتك يا سامية، لكن المشكلة ليست الغيرة أو الحقد، المشكلة إن نوال كاتبة مستقلة لا تستند إلا على قلمها، ويمكن أن تنقد الشرق والغرب والحكومة والمعارضة واليسار واليمين، والمشكلة أيضًا تتعلق بالمناخ العام والإحباط ... لطيفة الزيات ويوسف وكثير من الأصدقاء كانوا زملاء لي في الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني، حين بدأنا الحركة عام ستة وأربعين ضد الملك والإنجليز كان المناخ العام أفضل من اليوم، كنا في مرحلة الشباب عندنا مبادئ وحماس وأمل، المناخ الجيد يُبرز أحسن ما في الإنسان، لكن الحركة ضربت ودخلنا السجون، لم يهزمنا السجن لكننا انهزمنا من الداخل، تفككت الحركة، وتفرق الزملاء، وانتشرت الإشاعات، المناخ السيئ يُبرز أسوأ ما في الإنسان، وأنت يا نوال من جيل آخر جاء بعدنا.

أما جيلنا فقد تمزق بين الطُموح والإحباط، بين تأييد السلطة ومعارضتها، لطيفة الزيات هي المثل على ذلك، هذه الضحكة العصبية دليل على التمزق والإحباط، رعشة الأصابع والإفراط في التدخين، وابتلاع حبوب الفاليوم. إنها تعرف تمامًا أنك ناقدة للغرب أكثر منها، وتعرف أيضًا أن الغرب ليس شيئًا واحدًا، وهناك في الغرب من هم أكثر تقدُّمًا وأكثر اشتراكية من الاشتراكيين عندنا، المسألة ليست غرب وشرق، هي تعرف ذلك، ويوسف إدريس يعرف ذلك، لكن المسائل الشخصية تتغلَّب على المسائل العامة، والإحباط يُؤلِّد الإشاعات، وما معنى أن يكتب أديب أو أديبة للغرب أو للشرق. وأغرب شيء هؤلاء الذين يقولون: إن الأعمال الأدبية الناقدة لمجتمعنا تسيء إلى سمعة مصر في الخارج! أعظم الأعمال الأدبية لا بد أن تكون ناقدة لمجتمعها، أهم أعمال يوسف إدريس أو نجيب محفوظ

الأدبية هي التي نقدت النظام الحاكم، وأشكال الظلم أو القهر في بلادنا؛ لكن يوسف إدريس ونجيب محفوظ في الأهرام، أكبر جريدة حكومية في مصر، وهما جزء من النظام، يتمتعان بحصانة السلطة، وقد ترجمت أعمالهما إلى اللغات الأجنبية عبر وزارة الثقافة أو المجلس الأعلى للثقافة، وكلها مؤسسات حكومية؛ لكن أعمالهما لم تنجح في الخارج كما نجحت في مصر؛ لأنَّ النجاح الأدبي في بلادنا لا يعتمد على جودة العمل فقط ولكن على الدعم الحكومي أيضًا، ولا يمكن للكاتب أن يشتهر ويحمل لقب كاتب كبير دون أن تكون له علاقات طيبة بالمسؤولين الكبار، وهذه هي المشكلة بالنسبة لك يا نوال أو غيرك من الأدبيات أو الأدباء الذين لا يسرون في فك السلطة.

إنَّ السلطة في مصر تملك كل مؤسسات الثقافة والنشر والإعلام والترجمة، ويمكنها أيضًا مصادرة أعمالك، وتشويه سمعتك، لكنها لا تملك مصادرة أعمالك المترجمة في الخارج. شاءت الصدفة يا نوال أن تتزوجي شريف حتاتة، وأن يقوم شريف بترجمة رواياتك! أتعرفين يا نوال آخر إشاعة عنك؟ يقولون: إنك تزوجتيني لأترجم أعمالك! كان شريف يضحك، يحاول أن يخفف عني وطأة الألم.

كنت في بداية يناير ١٩٩٢، نتأهب للرحيل إلى المنفى، أصبح الخطر يحوطنا من كل جانب، يتحدث الناس كل يوم عن قوائم الموتى، الأسماء التي تم إهدار دماها، جرائم تحدث دون أن يقبض على القتلة، الهمس يدور بين الناس، لا يعرفون الوهم من الحقيقة، ولا الإشاعات من الحقائق. كانت الحراسة المسلحة أمام بيتنا، والبودي جارد يتبعني حيثما أذهب، لا أعرف من أين تنطلق الرصاصات. في النوم أرى دمي مهدرًا فوق أسفلت الشارع، تزحف قشعريرة باردة إلى جسدي من الرأس إلى بطن القدمين، والصوت يزعق: اقتلوها الكافرة عدوة الله والإسلام.

الصُّورَةُ الممزَّقَةُ

كنتُ غارقة في النُّوم، رأيت أبي جالسًا في الصَّالة يقرأ، رفع عينيه إليَّ واندesh قليلاً. نوال؟! متى جئت؟ كيف كان الحفل؟ تساءلْتُ في دهشة: أي حفل؟ قال: حفل نقابة الأطباء. عادت ذاكرتي في الحُلم أربعين عامًا إلى الورا، قلت لنفسي: هل يذكر هذه الليلة؟! إنها الليلة التي مات فيها، الخميس ١٩ فبراير ١٩٥٩، أراه جالسًا في الصَّالة يُحدِّثني وأعرف أنه ميّت. انتهى القرن العشرون أصبحنا في القرن الواحد والعشرين والألفية الثالثة، الرقم ٢٠٠٠ إلى جوار تاريخ اليوم يبدو غريبًا، ياه، سنة ٢٠٠٠؟! لم أكن أعرف أنني سأعيش حتى القرن الواحد والعشرين، كأنما أختلس من الزَّمن قرناً جديداً وأعود طفلة في السَّابعة من العمر أتذكر طفولتي. تبدو أقرب مما كانت، وكانت تبدو بعيدة في الماضي، كان الأمس يبدو كأنه العام الماضي أو القرن الماضي، ثم تَغَيَّرَ الزَّمن مع التَّقَدُّم في العمر، أصبح القرن الماضي كأنه الأمس، أرى وجه أبي الميت قريبًا، أكاد ألمسه بأطراف أصابعي رغم مرور نصف قرن، أكاد أسمع وقع قدميه على البلاط في الصَّالة، في المرآة يُطالعني وجهه كأنما لم يَغِبَ أبدًا. يقول لي شريف: إن الحزن على فراق أبي لم يفارقني. ربما هو يعرف حقيقتي أكثر مني، ربما كان حبي لأبي أكبر حب في حياتي، لا يفوقه إلا حبي لأمي، قلبي يَنُوء بحبها بعد أن فرَّقنا الموت، أيكون الفراق هو شرط الحب؟!

أفقتُ من النُّوم على جرس التِّلْفون، صوت سامية يقول: أنتِ نائمة والمظاهرات مشتتة في جامعة الأزهر، وقد أذاعوا اسمك ضمن من أهدروا دماءهم من الأدباء، صوتها يأتيني كأنما في الحُلم، ألم يُهدروا دمي من قبل؟! ماذا تقولين يا لطيفة؟! أنا لست لطيفة يا نوال، أنا سامية، لطيفة ماتت من ثلاث سنين.

أفقت من النوم، النتيجة فوق الحائط مكتوب عليها التاريخ بخط واضح، ٩ مايو عام ٢٠٠٠، سماعة التليفون لا تزال في يدي، صوت سامية يسري إلى أذني، وهي تقول: الشيخ في الجامع اللي جنب بيتنا عمل خطبة في الجمعة عليكى يا نوال، قال: إن كتبك كلها كفر في كفر، والجماعات الإسلامية حركوا الطلبة في الأزهر عشان يعملوا مظاهرات ضد رواية نشرتها وزارة الثقافة، يقولوا فيها كلام ضد القرآن، والطلبة في الأزهر هتقوا ضد وزير الثقافة وضد السيد الرئيس، يعني المسألة مش رواية، المسألة النظام كله، والطلبة غلابة مش عارفين حاجة، بيروحوا في الرّجلين! وأنت يا نوال يُمكن يعملوك كبش فداء. الشيخ في الجامع كان بيحرّض الناس ضدك، لكن تعرفي إيه اللي حصل؟ أخويا كان في الجامع بيصلي معاهم، قال لي: الناس خرجوا من الجامع بعد الصلاة وراحوا المكتبات يشتروا كتبك! قلت بصوت أبي الميت: ربّ ضارّة نافعة يا سامية. تنهدت بصوت حزين وقالت: يمكن اشتروها عشان يحرقوها مش عشان يقروها.

- يحرقوها يحرقوها، يا سامية!
- خسارة الكتب تنحرق يا نوال.
- الحريق يأكل الورق وليس الكتب يا سامية!
- الكتب مصنوعة من الورق ولا إيه؟
- أيوه في القرن الماضي، لكن إحنا في القرن الواحد والعشرين، يا سامية، والكتب أصبحت غير قابلة للحرق، تعبر القارّات عبر الأثير دون الحاجة إلى ورق أو مطبعة.
- ممكن يحرقوا الكمبيوتر.
- الكتب ليست في الكمبيوتر.
- أمال فين يا نوال؟
- في اللوح المحفوظ من مادة غير قابلة للحرق.
- واللوحة المحفوظ ده فين؟
- في السماء يا سامية.
- عند ربنا؟! (ضحكة قصيرة مكتومة تنمُّ عن عدم الإيمان في الطفولة، والإيمان في الكهولة).

- لأ يا سامية.
- أمال فين يعني؟

- اللوح المحفوظ ده اسمه «الديسك» من مادة صلبة قوية، وفيه ملايين النسخ، بلايين النسخ، تنتشر في الكون زي الفيروسات في الجو وتتكاثر عبر الإنترنت والويب، والقوى الإلكترونية المعروفة والمجهولة.

- وإيه القوة المجهولة؟

- فيه حاجة جديدة اسمها الكوارك أصغر من الإلكترون ويحمل طاقة أكبر، فيه قوى مجهولة داخل الذرة، وداخل خلية المخ، لا زال المخ مجهولاً يا سامية، مخ الإنسان، والخلية الحية والجينوم والذرة والكواكب والشمس والقمر والنجوم، لكن أهم حاجة إن الكتب لم تعد قابلة للحرق!

كانت جدتي آمنة والدة أُمي ترمقني بغضب وأنا في السَّابِعة من عمري، تقول عني إنَّني لا أطيع مثل البنات في عائلة شكري بيه. كلما كانت جدتي تقول شيئاً غير مقنع أسألها ليه؟ تلسعني بالعصا الخيزران وتصرخ: مش عاوزة أسمع منك كلمة ليه دي أبداً يا بنت ... فاهمة؟!

لم أكن أبكي كما تبكي البنات، أدق الأرض بقدمي بغضب، وأقول ليه تضربيني؟! يشتد غضب جدتي حين تراني أدق الأرض بقدمي، وحين تسمعني أُرِدُّد كلمة ليه، أكثر ما يغضبها أنَّها لا ترى في عيني أي دموع، إنَّها جدتي زوجة شكري بيه مدير القرعة العسكرية عاشت مقهورة وماتت مقهورة حبيسة البيت كالقصر وقبر من الرُّخام، لم يكن لها أن تُنْفَسَ عن غضبها المكتوم إلا بلسع الأطفال بالعصا الخيزران، لم أعرف في طفولتي ماذا كان يغضبها، حتى همست أُمي في أذني بالثالوث المقدس، الرب والأب والزَّوج، كنت أراها ترمق السماء بغضب وتقول: يا رب! لم تكن تنطق الكلمة الثَّانية ولا الثالثة، وسألت أُمي: ليه مش بتنطق جدي، وضعت أُمي يدها على فمي وقالت: اسكتي.

في الليل أصحو مختنقة بالدموع الحبيسة، تتجمع في حلقي كالغصة، أسمع شخير جدتي وهي غارقة في النَّوم، ملامحها تبدو مستسلمة بلا حول ولا قوة. في النهار تبدو قوية قاسية أتمنى موتها، في النَّوم تبدو ضعيفة مستسلمة، أكره قوَّتَها بمثل ما أكره ضعفها، أود ألا تصحو وتموت وهي نائمة. أعود إلى النَّوم وأحلم أن جدي هو الذي مات، أكره جدي أكثر من جدتي، أدعو الله أن يأخذَه، أراه في الحلم نائمًا يشخر، أود أن أُطْبِقَ أصابعي حول عنقه. أنتفض من نومي مذعورة، أنهض من السَّرير وأمشي على أطراف أصابعي، أجلس في الفرندة الواسعة، أتذكر أن جدي مات منذ سنوات، الذي ترقد إلى جوارِي في السَّرير

أوراقى ... حياتى (الجزء الثالث)

هى خالتى فهيمة، وهى التى أسمعها تشخر فى الليل، وهى التى أريد أن أطبق على عنقها بأصابعى.

فى ضوء مصباح الشّارع كتبت فى مفكرتى السّريّة: حين تراودنى فكرة القتل أمسك القلم وأكتب، أرى كلماتى فوق السّطور تنتفض، لولا الكتابة لأمسكت السّاطور وقتلتها أو قتلت نفسى.

بيت المرحوم جدى، ضاحية الزيتون، ١٩ أبريل ١٩٤٥

بعد ستة وثلاثين عامًا من هذا اليوم، وجدت نفسى داخل زنزانة فى سجن النّساء بالقناطر، كانت لى مفكرة سرية أخبئها تحت الأرض كما كنت أفعل فى بيت جدى وأنا فى الرابعة عشرة من عمري، يدي ترتعش بالغضب وأنا أكتب هذه الفقرة فى مذكرات السّجن: تتطلب الكتابة شجاعة مثل القتل، لو لم تعرف أصابعى القلم ربما عرفت الفأس أو الساطور، يدها، فتحة القاتلة، حين أمسكت الفأس وقتلت زوجها، تشبه يدي وهى تمسك القلم، لا شيء فى حياتى أؤمن من القلم، الكتابة تتطلب شجاعة مثل القتل وأكثر.

سجن النّساء بالقناطر، ١٤ نوفمبر ١٩٨١

كنت جالسة أكتب تلك الليلة من شتاء عام ١٩٦٠، حين دخل زوجى إلى غرفتى. أمامى فوق المكتب تراكت الأوراق، رواية طويلة سهرت عليها طوال الليلي والشهور والسنين، كانت تنمو فى أحشائى كالجنين، أحوطها بذراعى، أهدها فى سكون الليل، رأسى يسقط وينام فوقها وأنا جالسة، أهبط معها إلى بطن الأرض حيث الصمت داخل الصمت. كانت الرّواية تأخذنى إلى عالم آخر، أنسى فيه نفسى وابنتى وإخوتى وأقرب النّاس من دمي ولحمي، فما بال رجل ليس من دمي ولا لحمي ولا يربطني به شيء، إلا ورقة زواج.

حين اقتحم غرفتى فجأة لم أتعرّف على ملامحه، هذا الوجه الأبيض السمين المتورّد لم يكن يجذبني فى الرّجال، هذا الجسم المربع الممتلئ باللحم ينفرني فى النّساء فما باله بالرّجال، والعينان ليس فيهما ما أبحث عنه، والأنف ليست له الارتفاعة التى أحبها، والصوت ليست فيه النبرة التى تجذب أذني، كل شيء فيه ليس ما أريد فى الرجل، فما بال أن يكون زوجي؟!

لا بد أنها امرأة أخرى تقمّصت جسمي واسمي وذهبت معه إلى مكتب المأذون ووقعت العقد، امرأة غيري ساخرة عابثة لا تؤمن بالحب، ترتدي معطف الأطباء دون أن تؤمن بالطب، تكره الرجال والأمراض ورائحة المستشفيات، لم تدخل كلية الطب إلا من أجل أبيها الميت وأمها الميتة، تكره الزواج منذ الطفولة، لم تتزوج للمرأة الثانية إلا لتمسح من ذاكرتها المرة الأولى.

كان زوجها الأول فدائياً، مات بعد أن عاد من الحرب، لم يبقَ منه إلا خيال رجل، وهذا الخيال أيضاً راح وسقط في العدم. قبل الزواج بدأت رواية طويلة. بعد الزواج كفت عن الكتابة، رقدت الأوراق فوق مكتبها مثل جثة هامة.

كل ليلة حين أنام أظن أنني لن أصحو، في الصباح تعود إليّ ذاكرتي مع ضوء الشمس، أرتدي ملابس الخروج، أحمل حقيبتتي الجلدية السوداء التي تُشبه حقائب الأطباء، أتذكر أنني تخرّجت في كلية الطب وأصبحت طبيبة. الساعة فوق معصمي تُشير إلى الثامنة، أسرع الخطو في الطريق إلى المستشفى، أتوقّف لحظة ألتقط أنفاسي، أتذكر أنني تزوّجت ولي طفلة تحتاج إلى كوب لبن وزوج يحتاج فخذ دجاجة محمّرة.

ذاكرتي مثل جبل الثلج تحت الماء، لا أكاد أعرف الزوج الأول من الثاني، كلاهما كان يُحب فخذ الدجاجة المحمّرة. صديقتي بطة تكرر بالضحك وتقول: حين ينطفئ النور يتساوى جميع الرجال. تعترض صافية وتقول: لا يفرق بين الرجل والرجل إلا الحب. لم تكن سامية تؤمن بالحب، تقول عنه رومانتيكية طفولية، الحب وهم كبير يا نوال، الحب قبل الزواج يفسده، والحب بعد الزواج ينتهي بالطلاق، تزوّجيه يا نوال لأنك لا تحبينه، لا يصلح للزواج إلا رجل لا يخفق له قلبك، على الأقل حين يخونك مع واحدة ثانية لا تشعرين بالألم!

وامتلأت عيناها بدموع محبوسة، كانت تنتفض بالغضب، صوتها يتقطع وأنفاسها تلهث: تصوّري يا نوال ... تكرر هذه العبارة مع اللهاث: تصوّري!

– أتصور إيه يا سامية؟

– شيء لا يمكن أصدقه!

– إيه يا سامية؟

– تصوّري يا نوال ...

صوتها يختنق تكفُّ عن الكلام، تنشج بصوت مكتوم، أنفاسها تتقطع مع كلماتها، تصوّري يا نوال ... مش قادرة أتصور يا نوال ... تصوّري رفاة جوزي، الرجل المثالي

صاحب المبادئ، الرجل اللي دخل السُّجون عشان المبادئ، تصوري رفاعة ... هل ممكن حد يصدق أن رفاعة يعمل كده؟! من يوم ما مسكوه ودخل السُّجن وأنا زي النُّحلة رايحة جاية عشان يطلُّعوه.

- عمل إيه رفاعة يا سامية؟

- تصوري إنَّه له علاقة بواحدة تانية!

- وعرفتِ إزاي؟

- وقع في إيدي جواب كتبه لها باين مسكوه قبل ما بيعت لها الجواب.

- مجرد جواب يا سامية.

- رسالة حب يا نوال!

- مجرد حب عذري حب طاهر رومانتيكي.

- رفاعة رجل مادي جدلي ماركسي لا يمكن يؤمن بالكلام الفارغ ده!

حين سمعت بطة القصة أطلقت ضحكاتها الساخرة وقالت: كل الرِّجالة خائنين يا سامية يمين ويسار ووسط، وكل النِّساء خائئات، بنات حواء أو بنات مريم العذراء، الفرق الوحيد بينهم أن الرجل خيانتته مكشوفة، لكن المرأة بير من جوه بير. والعلاج الوحيد إنك تخونيه زي ما خانك، وربنا قال العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم. وكمان من حظك السعيد أنه محبوبس في السُّجن! ترددت صفية في التعليق، أطرقت قليلاً تفكر، ثم رفعت إلينا وجهها شاحباً وقالت: الطلاق عندي أحسن من الخيانة؛ لأنك يا سامية حتخوني نفسك مش أي حد تاني.

صوت صفية كان يرتعش قليلاً، وهذا الشحوب بدا غريباً، أتعيش صفية المأساة نفسها؟! لم تكن صفية مثل سامية وبطة، تميل أكثر إلى الكتمان. كان في شتاء عام ١٩٦٠، وكان لا بد من مرور أربعين عاماً حتى أسمع صفية تقول: خلاص يا نوال أنا قررت الانفصال عن مصطفى.

كنت أقول لنفسي لا يمكن أتزوِّج دون حب، كيف يجمعني فراش واحد مع رجل لا أحبه، وتسالني بطة: وليه مش بتحببيه يا نوال، رجل محترم من رجال القانون مركزه مرموق وعنده عربية وشقة وفلوس وواقع في غرامك لشوشته، ليه ترفضيه؟ عيبه إيه يا نوال؟ هذا السؤال «عيبه إيه» ظل يحيرني نصف قرن، كنت أسمع من أبي وأمي وجدتي وخالاتي وعماتي، عيبه إيه العريس يا نوال؟ سؤال لم أعرف جوابه، وبطة تلح في السؤال.

- مش عاوزة تتجوزيه ليه؟

- مش عارفة.

- عيبه إيه؟!

- يمكن ...

- يمكن إيه؟!

- عينيه ...

- ما لها عينيه؟!

- مطفية.

- حاتعملي بعينه إيه في الجواز يا نوال؟!

تكرر بطةً بضحكتها المتقطعة، شهقاتها ترنُّ في أذني مثل هواء محبوسٍ يندفع من عنق زجاجة ضيق، ضحكتها مُعْدِيَة، أضحك رغم الثقل في القلب، رغم أنني لا أحبه سأتزوجه، رغم انطفاء عينيه، رغم أنني أكره رجال القانون، يصبُّهم القانون في قالب واحد كالأسمنت. السؤال يدور في رأسي، لماذا أتزوجه وأنا لا أريد أن أتزوجه؟ قوة في السماء أو الأرض تدفعني إلى الزواج رغم إرادتي؟! قوة غامضة كالوهم، كضغط الهواء الجوي، قوة إلهية أو شيطانية تدفعني إليه رغم أنفي وأنا في كامل الوعي.

تلك الليلة من شتاء عام ١٩٦٠ تأخرت في العيادة، جلست إلى مكثبي بعد أن انتهيت من آخر مريض، وضعت رأسي بين يدي الاثنتين وسقطت في ما يشبه النوم، هذه الحالة المتأرجحة بين النوم واليقظة، اللحظة التي يغيب فيها العقل الواعي، تختفي الأنا العليا تحت سطح البحر، يبرز رأس جبل الثلج من تحت الماء، يرمقني مثل عين في السماء، عين مفتوحة لا يطرف لها جفن، ساهرة طوال الليل لا تنام. أمسك القلم وأكتب كلماتي فوق الورق متقطعة أنفاسي ألهث، ذؤابة ضوء يضربها الهواء تكشف عن الشيء المتخفي في الظلام، لا ينتمي إلى طقوس اللغة أو الكتابة، يتمرد على كل ما هو مألوف، يخلق من حوله اضطراباً وقلقاً وتشكيكاً في كل ما درجت على الإيمان به، يفرض عليّ القطيعة مع مفردات اللغة، والاستغناء عن الثواب والعقاب، يدفعني نحو المجهول خارج المفهوم.

أفقت على صوت سامية، كانت تمر عليّ بالعيادة حين تشدد بها الأزمة، زوجها رفاعة في السجن مع أسعد شقيق صفيّة. منذ الأحداث الأخيرة في العراق امتلأت السجون بكل من رأى أنّ الوحدة الفيدرالية مع العراق أفضل من الاندماج الكامل، كان جمال عبد الناصر يرى أنّ الوحدة الاندماجية أفضل، دخل السجون كل المعارضين في الرأي.

جاءت سامية وراحت تشرح لى الفرق بين الوحدة الفيدرالية والوحدة الاندماجية. كان لصوتها نبرة خطابية تؤلم الأذن، إن ارتفع صوتها أو انخفض تظل هذه النبرة المؤلمة، إن فرحت أو ضحكت يظل لصوتها رنين متشائم يوشك على البكاء. منذ المدرسة الثانوية كانت صديقتى، يجذبني إليها اختلافها عن بطة وصفية وبقية الزميلات، وجهها النحيل الشاحب دون مساحيق، شفاتها الرفيعتان المزمومتان بقوة غير أنثوية، أحاديثها عن ماركس والفرق بين الديالكتيكية المادية وغير المادية، ولينين وعبد الناصر. تغيرت سامية قليلاً قبل زواجها من رفاة أيام الحب، بدأت تكحل عينيها قليلاً، تضيف على خديها وشفتيها شيئاً من اللون الأحمر الشاحب، لم تتغير نبرة صوتها بل زادت حدة. وتواصل حديثها، أستمع إليها ورأسى بين يدي الاثنتين: تفتكري عبد الناصر مخلص للبلد يا نوال؟ الوحدة العربية فشلت بانفصال سوريا عن مصر، والديموقراطية فشلت بدخول المعارضين السجون، والاشتراكية فشلت، لا فيه تنمية ولا فيه تذويب الفوارق بين الطبقات، والأموال اللي عادت لمصر بعد تأميم قناة السويس وتأميم الشركات كلها راحت في جيوب الطبقة الجديدة من ضباط الجيش وأعاونهم، لا يمكن عبد الناصر يكون مخلص للبلد يا نوال! يزداد صوتها تشاؤماً حين تنتقل من حديثها عن عبد الناصر إلى زوجها رفاة.

- تفتكري رفاة مخلص يا نوال؟

كنت منشغلة بسؤال آخر يدور في رأسى، لماذا أتزوج رجلاً لا أحبه؟

- هل عبد الناصر مخلص يا نوال؟ هل رفاة مخلص؟ هل الإخلاص الزوجي منفصل عن الإخلاص الوطني؟

- إيه اللي يجبرني يا سامية إنى أتجوز رجلاً لا أحبه؟ أهي خيانة له أم خيانة لى نفسى؟

- المناخ العام الفاسد يؤدي إلى حياة خاصة فاسدة.

- الفساد فى الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية يؤدي إلى فساد فى الحب والجنس؟! خيانة النفس هي خيانة الآخر.

- يا خسارة يا نوال، كان بيني وبين رفاة حب جميل قبل ما نتجوز، المشكلة فى

مؤسسة الزواج يا نوال؟

- المشكلة فى النظام كله يا سامية.

- عشان كده الراجل منهم ممكن يكون يخون مراته، والواحدة فينا ممكن تكذب على

نفسها وتقول لجوزها أنا باحبك وهي مش طايقة تشوفه، أو تقوله أنت الرجل الوحيد فى

حياتى وهو مش الوحيد!

أطبقت شفتي في وجوم، تذكرت أنني قلت لزوجي الأول إنه أول حب في حياتي مع أنه كان الحب الثَّاني، وسوف أقول لزوجي الثَّاني إنني أحبه مع أنني لا أحبه، قوَى غيبية تدفعني إلى الكذب، تختفي وراء سحابة في السماء، أو ربما هو عام ١٩٦٠ عام الهزيمة الصغرى، كما كان صديقي رجاء الشاعر يقول. تنبأ بوقوع هزيمة ١٩٦٧ قبل أن تقع بسبعة أعوام، وفي إحدى الندوات الأدبية بالعيادة ألقى قصيدة مطلعها هذه الأبيات:

كل شيء من حولنا ينبئ بالهزيمة،
السُّحب في السَّماء ووجوه الرِّجَال العسكرية،
لا أمل في هذه الطبقة الجديدة ولا في كتابة الشعر،
الكلية الحربية لا تخرِّج إلا الجهلاء،
إن أصبحوا هم الوزراء
فليس أماناً إلا الموت أو السُّجن
أو المنفى خارج البلاد.

قوة تشبه اليأس أو الهزيمة تدفعني إلى الموت أو الزَّواج، كان العريس صالحاً في نظر الجميع، حتى أم إبراهيم أصبحت تلح عليّ كل يوم: إتجوّز به يا ضكطورة ده الجواز سُترة وعشان تجيبي للمحروسة بنتك أخ أو أخت. وفي حفل الزَّواج الصَّغير همست صفية في أذني: نظره سليم ستة على ستة ومش لابس نظارة نظر زي جوزي. وكركرت بطة بضحكها وقالت: عينيه مطفية أحسن يا نوال عشان ما يشوفش حاجة! ومطت سامية شفيتها في امتعاض، الواقع يا أخواتي أن الإخلاص انتهى من الوجود!

لم يكن يتركني أكتب داخل غرفتي، لا يكف عن فتح الباب والدخول، يحاول قراءة ما أكتب، لا شيء يجهض الرِّواية قبل أن تكتمل إلا العين الغربية، لا أحد يقرأ ما أكتب داخل غرفة بابها مغلق. لا أحب النور الكهربائي الشديد الإضاءة، يكفيني الضوء المتسرب من المصباح في الشَّارع، أو لمبة صغيرة يسمونها سَهارة، أو لمبة جاز حين تنقطع الكهرباء. يكفيني أن أرى حروفي فوق الورق، ويغرق بقية المكان في الظلمة. تنمو الرِّواية في خيالي كالظُّلال المتحركة في الأركان، تبدأ ذاكرتي تصحو حين ينام الكون. أجلس في الظُّلمة ساكنة داخل الصَّمْت، لا تصحو ذاكرتي إلا بعد ساعتين أو ثلاث ساعات أنسى فيها مشوَّشات النَّهار. أنزع قشرة المخ، الأنا العليا والكذب، أشدها بأصابعي مثل خصلة شعر أو قطعة من فروة

الرأس، أحسها تحت يدي مثل الندبة، أو الجرح القديم المفتوح، يلتئم في الظلمة مع مرور الزمن داخل السكون. تبدأ ذاكرتي تصحو، يتحرك القلم فوق الورق، يندفع وحده فوق السطور، صوت في أعماقي كالوحي تمليه الكلمات، تتدفق الرواية كمياء النهر الهادئ، يصبح شلالاً الساعة بعد الساعة، ينتفض القلم بين أصابعى، يسري في ذراعى تيار ساخن يصعد إلى رأسى ويهبط إلى القدمين، شحنات من الدم تتدفق إلى جسدى كالمصابة بالحمى، أنتفض وأنا جالسة في مقعدى وراء المكتب.

لم يكن يتركنى لأكمل الكتابة، كأنما الرواية جنين في أحشائى من صلب رجل آخر يريد إجهاضها، يفتح الباب ويدخل، إن وجد الباب مغلقاً يدقه بقبضة يده، يفتح الراديو بأعلى صوت، يطرق بالقبقاب فوق بلاط الحمام، يجلس في الصالة ويتحدث في التليفون بصوت يصل إلى الجيران، أو يتحدث مع الزوار في غرفة الاستقبال ويقهقه بصوت يرجّ الجدران.

كانت أمه تزورنا كثيراً، أسمع صوتهما من وراء الباب المغلق، يشكو لها منى: «أتجوزت يا ماما واحدة مجنونة، تصحى في نص الليل تكتب..»

تممصص الأم شفيتها في حسرة، «معلش يا ابنى كل شيء قسمة ونصيب، وأنت اللي اخترتها، والكتابة مافيهاش ضرر، أحسن ما تخرج زي النسوان الثانية في الشوارع وتصرف الفلوس على مافيش، كان لازمك يا ابنى واحدة تانية مكسورة العين تكون بين إيديك وتحت رجلك، لكن خلاص أهي بقت مراتك، يمكن ربنا يهديها لما تولد، ربنا يرزقك بابن يقولك يا بابا، ويقول لي يا نينة، ياما نفسى أعيش وأشوف ابنك يا رب يا كريم، وأهي حامل في شهرين..»

– حامل في شهرين؟!

ترن الكلمات في أذنى وأنا منكفئة أكتب، أرفع رأسى من فوق المكتب، أتلّفت حولي كمن تصحو من الحلم، أو كمن تسقط في النوم، صوت يتحدث عن امرأة حامل في شهرين، صوت غريب لم أسمع من قبل، والمرأة الحامل أيضاً لا أعرفها، ليست هي أنا بالتأكيد، إن كانت هي أنا فالأمر شديد الخطورة، كارثة! كيف يحدث الحمل دون حب ودون زواج، دون أن أفقد العذرية؟!

ربما هو حلم، منذ الطفولة يراودنى هذا الحلم، في السابعة من عمري كنت أتحسس بطنى تحت الغطاء، أخشى أن يرتفع بالحمل. كانت البنات في المدرسة يتهامنن بكلمة لا أفهمها، الحمل السّفاح، تشرحها لي البنات دون جدوى، الشيطان إبليس هو وراء الحمل

السَّفاح، قبل أن أنام أسد شقوق النافذة بالصُّحف القديمة حتى لا يتسلل منها إبليس، صديقتي القبطية إيزيس لم تكن تسد شقوق نافذتها، كانت تؤمن بالحمل المقدس، وليس الحمل السَّفاح، تشرح لي الفرق بينهما، ستنا مريم العذراء، تسلل إليها مندوب الله في الليل وحملت بسيدنا المسيح، هذا هو الحمل المقدس، أتحمس تحت الغطاء ارتفاعاً بطني، كنت في السابعة من عمري أنشد المثلالية في كل شيء حتى الحمل.

– حامل في شهرين؟!!

الصوت الغريب يخرق أذني مثل رصاصة، أنتفض في مقعدي وراء المكتب، يسقط القلم من يدي، أرفع وجهي من فوق الأوراق، أرى أمامي امرأة عجوزاً تلف رأسها بطرحة سوداء، بشرتها بيضاء ووجهها سمين مستدير، عيناها صغيرتان غائرتان في اللحم، ترمقني بنظرة الحدأة، نظرة فاحصة مدققة تهبط إلى بطني تخترق جدار الرحم، تستكشف الجنين في أحشائي، تفتح فخذه تبحث عن عضو الذكر، تريد التأكيد أنه طبق الأصل من صلب أبيه وليس من صلب رجل آخر.

منذ تزوجت كان الغثيان يصيبني كلَّ صباح، أغلق الباب وأفرغ معدتي في الحوض. في طفولتي سمعت جدتي تقول: إِنَّ الزَّوْجَ يصد النفس عن الأكل، وقالت أُمِّي: إنه الحمل وليس الزَّوْجَ، عرفت أَنَّ الحمل يعني انقطاع الدَّم.

حملت في الزَّوْجِ الأوَّلِ وأنجبت طفلة جميلة، كانت ابنة الحب وليس الزَّوْجِ، لم أكن أومن إلا بالحب، تصورت أَنَّ الزَّوْجَ بدون حب ينتج عنه أطفال مشوهون. أتحمس بطني وأنا جالسة وراء المكتب، في أحشائي حمل غير مقدس، جنين مصنوع من الكذب، نطقت كلمة «أحبك» لرجل لا أحبه، يقاسمني الفراش تحت اسم الزَّوْجِ، بشرته بيضاء، وجهه سمين ممثلي مثل أمه وأنا أحب الوجوه النحيفة الرشيقة، قامته قصيرة، جسمه مربع مكتنز باللحم وأنا أحب القامة الطويلة المشوقة، يداها صغيرتان بيضاوان ناعمتان خجولتان، أصابعهما قصيرة مضمومة، وأنا أحب اليد الكبيرة الشُّجاعة المفتوحة.

كل صباح أفتش عن قطرة حمراء في ملابسني أو فوق الملاءة، أفتح عيني كل يوم أبحث عن نقطة دم، تظل الملاءة نظيفة بيضاء ناصعة البياض، يصدمني اللون الأبيض، يذكرني بالموت والمرض والكفن الحريري ومعاطف الأطباء والأسرة البيضاء ورائحة المستشفى.

بدأت أرى في الحُلْمِ مُلاءة حمراء بالدم، منذ طفولتي كرهت دم الحيض، ويسألونك عن الحيض قل هو أذى، ولا تقربوا النساء حتى يطهرن. كان الغثيان يصيبني منذ الطفولة حين أرى بقعة الدم في ملابسني أو فوق الملاءة، أصبحت أنشدها في النُّوم واليقظة، أحلم

بها، أستحضرها، أشدها من برائن القضاء والقدر، أضرب بطني بقبضة يدي، أففز من فوق السور في الشرفة، كنا نسكن في الدور الأول في بيت أبيض كبير من دورين، لم يكن ارتفاع الشرفة كافيًا لإسقاط الجنين، إنه جنين شرس يتشبث بجدار الرحم كالقملة تلتصق بجلدة الرأس، جنين مكتنز الوجه عيناه صغيرتان غائرتان في اللحم مثل أمي وأم أبيه.

حاولت طرد الجنين الغريب من جسدي، ابتلعت حبوبًا سامة لأقتله داخل الرحم، حقنت نفسي بعقاقير الإجهاض، قفزت من الشرفة فانكسرت ذراعي اليمنى دون أن يسقط الجنين. أخذتني بطة بسيارتها البويك إلى مستشفى قصر العيني، أصبح زوجها الدكتور حمدي رئيس أحد أقسام الأمراض الباطنية، صورة الأشعة كشفت عن كسر في عظمة «الريدياس»، علق الدكتور حمدي ذراعي في عنقي برباط من الشاش. أخذتني بطة إلى قسم الجراحة لعمل جبيرة من الجبس حول ذراعي، سرت إلى جوارها في الممر الطويل، النوافذ الكبيرة المطلة على النيل، وجوه الممرضات الشاحبة، وجوه المرضى والمریضات الأكثر شحوبًا، وجوه الأطباء ممتلئة باللحم رغم الشحوب، تعرّفت على بعض الأساتذة وزملاء الدراسة، توقف أحدهم وهتف: مش معقول؟ دراعك ما له يا نوال؟

تذكرت صوته الناعم الرقيق، حين كان يقول عن الطالبات الأنسات الكوارير «القوارير» يقلب القاف إلى كاف كنوع من الرقة. إزيك يا ست بطة، وإزي الدكتور حمدي، إيه الحكاية يا نوال دراعك فيه إيه؟

كنت في حالة من الإعياء، الألم والحزن وغثيان الحمل غير المقدس. ثلاث سنوات مضت منذ جاء إلى بيتنا يطلب يدي من أبي، كان يومًا حارًا مليئًا بالغبار، وكانت أمي في فراش المرض. في غرفة الصالون جلس مع أبي يتحدثان في السياسة. كانت له سيارة شيفروليه زرقاء طويلة، يرتدي بدلة بيضاء لامعة من الشاركسكن، شعره لامع، حذاؤه لامع، الدبوس في الكرافتة لامع، الفص اللامع في الخاتم حول إصبعه، النظارة الزجاجية تلمع فوق عينيه، كل شيء فيه يلمع، لا شيء فيه منطفئ إلا العينان.

كان يرمقني من تحت النظارة بنظرة فاحصة، يرمق ذراعي المعلق في عنقي برباط الشاش، لا بد أن وجهي كان شاحبًا؛ لأنه قال: إنتي عيانة ولأ إيه يا نوال؟ تطوعت بطة بالرد نيابة عني، عندها كسر في الريدياس يا دكتور رشاد.

- ورايحين على فين يا بطة؟ تعالوا معايا ع القسم لازم دراعك يتجيبس يا نوال؟
كان ذلك منذ أربعين عامًا، التقيت بالدكتور رشاد عدة مرات أخرى، في اجتماع بوزارة الصّحة، أو نقابة الأطباء، أصبح له منصب كبير في الجامعة وفي الدولة وفي المجلس الأعلى

للبحوث الطبية. يرمقني من تحت النظارة بنظرة مخلبية. كان من أعوان عبد الناصر، ثم أصبح من أعوان السادات. حين دخلتُ السَّجْنَ عام ١٩٨١ قال لصديقتي بطة: نوال تستاهل السَّجْنَ عشان تبطل كتابه! وفي عام ١٩٩٣ حين عرف أنني أعيش في المنفى خارج مصر قال لصديقتي بطة: تستاهل عشان الكلام الي كتبتَه ضد حرب الخليج! ده كلام فارغ!

منذ عامين سألتُه إحدى الصُّحفيات في حوار طويل نُشر في جريدة كبرى، سألتُه عن رأيه في كتابات بعض النِّساء، سهر القلماوي وأمينة السعيد ولطيفة الزيات وغيرهن. قال إنهن نساء عظيمات تستحق كل منهن ما حصلت عليه من جوائز. ثم سألتُه الصُّحفيَّة: وما رأيك في كتابات نوال السعداوي؟ وجاء رده: كتاباتها تستهين بالقيم الإسلامية والتقاليد الشرقيَّة، نحن هنا في الشُّرق نوؤمن بالروحانيات لكن القيم في الغرب مادية وإباحيَّة، وهي تكتب للغرب.

لم أقرأ هذا الحوار في الجريدة، لكن بطة قرأت لي هذه الفقرة عبر الأسلاك، ثم قالت: الدكتور رشاد لم يغفر لك أنك رفضتَه، الرجل لا ينسى المرأة التي رفضتَه، يظل الجرح مفتوحًا لا يلتئم. على العموم يا نوال الدكتور رشاد أحسن من غيره، إنتي عارفة زكريا، الدكتور زكريا الي كان بيدرس لنا الفسيولوجي، الراجل ده هو الوحيد الي أشاع إنه عمل معايا علاقة مع إنبي لا حبيته ولا فكرت فيه يوم واحد، كان لازم ينفِّس عن إحباطه بالإشاعات، أي راجل يعلن إنه عمل علاقة بامرأة تأكدي إنها الوحيدة الي رفضتَه! والغريب يا نوال إن الدكتور زكريا بقى من كبار الأدباء فجأة، عملوه عضو في اللجنة الأدبية العليا أو معرفش المجلس الأعلى للقصة والرُّواية، حاجة زي كده مع إنه عمره ما نشر كتابًا واحدًا في الأدب أو كتب قصة واحدة! المسائل بقت كلها عك في عك؛ وأكبر دليل على العك إن الدكتور رشاد كمان بقى يفتي في الأدب النسائي مع إنه مالوش في الأدب ومالوش في النِّساء!

كركرتُ بطة بضحكتها المنقطعة المرحه، لكن صوتها أصبح مبوحًا مشروحًا، تتخلله بعض الشبهقات من حين إلى حين، تشكو الشيخوخة وآلامًا مجهولة السبب، وصداعًا في مؤخرة الرُّأس، فحصها زوجها الدكتور حمدي وقال لي: إنها مثل الحصان ولا شيء فيها مريض إلا عقلها.

- تصوري يا نوال صاحبك بطة الي عمرها ما عرفت ربنا سافرت مكة ورجعت لابسة طرحة وماسكة سبحة؟

أمام المرأة فى غرفة نومى رأيت الوجه الطويل الشاحب، الذراع اليمنى الملفوفة فى الجبس الأبيض، مُعلّقة فى عنقى برباط من الشاش، البطن المرتفع قليلاً تحت الثوب الواسع، عادت إلىّ الذاكرة شيئاً فشيئاً، مثل قطرات الماء البارد يتساقط فوق رأسى.

هذه المرأة داخل المرأة؟ أهى أنا؟ زوجة لرجل لا تحبه، طبيبة فى مهنة ليست مهنتها، تحمل فى أحشائها جنيناً ليس جنينها، تعيش فى بيت ليس بيتها، تخرج كلّ يوم رغم أنفها إلى مرضى لا تطيق رائحتهم.

النتيجة فوق الحائط ثابتة عند العام ١٩٦٠، هذه الذراع الملفوفة بالجبس تعود بى إلى بداية عام ١٩٥٥، بالضبط أول يناير ١٩٥٥. صحت من النوم مشرقة متألفة كالشمس فى اليوم الجديد، ارتديت ثوبى الجديد بمناسبة العام الجديد ونجاحى فى كلية الطب بتفوق، أصبحت طبيبة امتياز فى المستشفى الجامعى (قصر العينى الجديد). أرى نفسى فى المرأة داخل ثوب أبيض فيه زهور وردية، عيناى السوداوان يكسوهما البريق، قلبى يخفق بالحب، حول إصبعى خاتم الخطوبة يحمل اسمه، لمحتة من النافذة قادماً فى الطريق يحمل باقة ورد، أدخلته الخادمة إلى غرفة الاستقبال. كان هناك باب من الزجاج يفصل الصالة عن غرفة الاستقبال، وستارة فوق الباب صنعتها أمى بإبرة التريكو. كان أبى جالساً فى الصالة يقرأ، سأل الخادمة منّ جاء؟ قالت الدكتور أحمد. كانت تعرفه من الزيارات السابقة، وحفل الخطوبة الصغير منذ عامين. خلع أبى نظارة القراءة ونهض. تصورت أنها سيدخل إلى غرفة الاستقبال ليسلم على الدكتور أحمد، لم يكن طبيباً بعد، طلبة السنة النهائية فى الكلية كانوا يحملون لقب دكتور. كان أبى غاضباً؛ تأخر أحمد عن زملائه فى التخرّج بسبب سفره مع الفدائيين إلى جبهة القتال فى القنال.

طلب منى أبى أن أرددّ إليه خاتم الخطوبة وأطلب منه ألا يزورنا فى البيت. قال ذلك بصوت منخفض لا يصل إلى غرفة الاستقبال، الباب الرّجائى بين الصّالة والغرفة كان مغلقاً، أبى كان هادئاً بالطبيعية، صوته لا يرتفع إلا عند الغضب الشديد، لم يكن غاضباً هذه اللحظة، أصدر قراره فى هدوء كامل، ابنته الطبيبة لن تتزوج طالباً فاشلاً تخلف عن زملائه عامين.

تطورت الأمور على نحو غريب سريع، لا أعرف ماذا حدث بالضبط، رأيت أمى تأتي إلى الصّالة مرتدية ثوبها الأزرق، فى قدميها شبشب أزرق تسميه البانتوفلى، سارت بخطوة سريعة إلى الباب الرّجائى وأغلقتة بالمفتاح، وضعت المفتاح فى جيبيها ثم عادت إلى غرفتها،

جاءت الخادمة وقالت: إِنَّ الدُّكْتُورَ أحمدَ تركَ باقَةَ الوردِ فوقَ المنضدةِ في غرفةِ الاستقبالِ ثم انصرفَ.

كان لغرفةِ الصالونِ بابٌ آخرٌ يقودُ إلى الحديقةِ الصغيرةِ والبابِ الخارجِي من دونِ المرورِ بالصالةِ، هل سمعَ صوتَ أبي؟ هل سمعَ صوتَ المفتاحِ يدورُ في البابِ الزجاجِي حينَ أغلقتَه أُمِّي؟!

كنت واقفةً في الصالةِ متجمدة، جسمي متجمدٌ وعقلي متجمدٌ، ارتدى أبي ملابسه وخرج، واقفةً في مكاني لا أتحرك، رعدة خفيفة أصابتني من قمة رأسي إلى قدمي، كأنما ماء ساقع ينسكب من السقف فوقي وأنا واقفة، الدقات تحت ضلوعي تتصاعد، الدموع تتراكم في حلقي كالغصة، والغضب المتراكم منذ ولدتني أُمِّي أربعًا وعشرين سنة. كنت أدق الأرض بقدمي حين أغضب في السابعة من العمر، لم أعد أدق الأرض بقدمي، لم يكن أمامي شيء قابل للكسر إلا الباب الزجاجي المغلق، وجدتني أندفع نحوه، أضربه بقبضة يدي اليمنى ضربة واحدة هائلة.

لم أفقد الوعي هذه اللحظة، كنت في كامل الوعي، كامل الانتباه، لم أحس بأي ألم، فقط دخلت قبضة يدي في الباب الزجاجي وخرجت من الناحية الأخرى.

بقي معصمي داخل اللوح المكسور، حركت ذراعي لأشد يدي خارج الزجاج، سقط اللوح الكبير بكل ثقله فوق معصمي مثل السكين، سقطت قبضة يدي إلى أسفل فجأة، رأيتها تتدلى لا أستطيع رفعها مهما حاولت، كفَّ قلبي عن الدق وتفجَّرَ الدَّمُ بلونٍ أحمر يُطِّخُ الباب الأبيض والبلاط وثوبي الأبيض.

اللون الأحمر القاني فوق السطح الأبيض أعادني إلى الحلم الطفولي القديم، رأيت نفسي طفلة تحبو تمسك أمها يدها حتى لا تسقط، رأسي أثقل من جسمي لا أستطيع أن أرفعه فوق عنقي، لا أستطيع أن أرفع يدي، ذراعي ثقيلة مخدرة. شددت جفوني لأصحو من النوم، رأيت وجه أُمِّي أوَّلَ ما رأيت يبرز وسط الضباب، كان شاحبًا رماديًا بلون الضباب، انفرجت شففتها عن ابتسامة خفيفة، سمعت صوتها يأتي من بطن الأرض: الحمد لله جت سليمة يا نوال. كانت ترتدي الثوب الأزرق والبانطوفلي الأزرق في قدميها. ثم رأيت وجه أبي، كان طويلًا شاحبًا، يردد ما قالته أُمِّي: الحمد لله جت سليمة يا نوال. من حولي معاطف الأطباء البيضاء، مرايل الممرضات، الجدران البيضاء، رائحة المستشفى، وأنا راقدة في السرير الأبيض، داخل ثوب أبيض، ذراعي اليمنى ملفوفة بالجبس الأبيض.

أفقت من البنج ورأيت الدكتور عبد العظيم، كان أستاذًا بقسم الجراحة فى مستشفى القصر العىنى الجدىد، عاد لتوّه من لندن بعد أن تخصص فى جراحة الأعصاب والعضلات الدقىقة، طوئل نحىف له وجه مبتسم، قال: مبروك يا دكتورة نوال، العملىة نجحت تسعین فى المائة والباقى علك أنت. لم أفهم شىئًا مما یقول، فى الیوم التالى شرح لى الحقیقة: العملىة كانت صعبة، استغرقت أكثر من تسع ساعات، أنسجة المعصم تمزقت وأربطة العضلات، عملت كل جهدى یا دكتورة نوال عشان أرجع كل حاجة زى ما كانت، أنا عملت اللى علىّ والباقى على ربنا. وسمعت أبى یقول: كان یمكن تفقدى یدك الیمنى كلها لولا عناية الله، ومهارة الدكتور عبد العظيم، دى أول عملىة جراحىة من هذا النوع یجرىها بعد عودته من الخارج. وقالت أمى: ربنا بیحبك یا نوال، وإن شاء الله یدك ترجع زى ما كانت مش كده یا دكتور؟

لم یكن الدكتور عبد العظيم متأكدًا أن یدی الیمنى سوف تعود كما كانت، كان یشك فى الشفاء الكامل، النتیجة لن تُعرف إلا بعد التئام الجرح وإزالة الجبس، كان الجبس ضروریًا حتى لا یتحرك المعصم.

بدأت أستعد قوّتى فى الیوم الثالث، فى الیوم الرابع رأیت الدكتور سعید عبده واقفًا إلى جوار السّریر، كان أستاذًا فى الكلىة للصحة العامة، یجمع بین الطب والأدب، یكتب عمودًا منتظمًا فى الجریدة بعنوان «خدعوك فقلالوا». قرأ لى بعض المقالات والقصص فى مجلات الكلىة، سمع كلمتى فى حفل تأبىن الشهید أحمد المنسى ومناسبات أخرى. قال الدكتور سعید عبده: تقدرى یا نوال تجهزى كلمة تلقىها فى حفل التخرج نیابة عن الطلبة؟ أنا شایف إنك فى حالة كویسة، والصوان حىكون هنا جنبك فى حوش المستشفى، یدوب خطوتین، ویمكن استخدام الترولى إذا كان المشى صعب علك، إیه رأىك؟ إنت الوحىة بین طلبة الطب اللى عندك قلم وممكن تكتبى كلمة أدبىة كویسة وتلقىها فى حفل التخرج؛ ده حفل مهم جدًا یا نوال، عمید الكلىة حىضر ورئیس الجامعة وكمال الدین حسین وزیر التعلیم، غیر كل الأساتذة والطلبة والطالبات.

كان ذلك منذ خمسة وأربعین عامًا، وأصبح فى درج مكتبى صورة فوتوغرافىة لى جالسة وراء المیکرفون على المنصة: ذراعى الیمنى ملفوفة بالجبس ألقى كلمتى فى حفل التخرج بدایة عام ١٩٥٥، عن یمینى یجلس وزیر التعلیم وعن یسارى رئیس الجامعة ثم عمیة كلىة الطب. هذه الصورة بقیت فى درج مكتبى عامین ثم تمزقت مع صورتى فوق بطاقتى الشّخصیة وبطاقة نقابة الأطباء، وصور أخرى فى الشّباب والطفولة. كانت الصور

ضمن أوراقتي التي حملتها معي من بيت أبي، ذكريات طفولتي، لحظات عمري غير المنسية ومفكرتي السرية، انقضَّ عليها يمزقها، أصابعه الغليظة ترتعد، عيناه اختفى النني تحت الجفن، والبياض بلون الثلج تخترقه شعيرات دموية جاحظة، يمسك الصورة بين إصبعين ويصرخ: دي صورتك في حفلة التخرج مع العميد والوزير، طبعًا بقيتي دكتور عظيمة وأنا فاشل مدمن، إزاي تعيشي مع فاشل مدمن يا دكتورة؟ لكن فين كلامك بتاع زمان، نعيش سوا ونموت سوا، مش عاوزة تموتي معايا ليه يا دكتورة؟ عاوزة تمشي وتسيبيني أموت لوحدي؟!!

مزقَّ الصُّورة، ألقى بها في صفيحة القمامة، وانقضَّ على الصور والأوراق كلها يمزقها ورقة ورقة، ثم انقضت أصابعه الغليظة المرتعدة حول عنقي، كان في حاجة إلى جرعة جديدة من الماكسيتون فورت لا يستطيع شراءها من الصيدلية، لم يجد في حقيبتي قرشًا واحدًا، لم يجد في البيت شيئًا يمكن أن يبيعه، لم يعد يؤمن بالله أو الوطن أو الحب. يصرخ بصوت يسمعه الجيران: الثلاثة وهم، والإخلاص وهم. كأنما تكشفت له الحقيقة النهائية ولم يبقَ إلا الموت ... لكن قبل أن يموت الفدائي لا بد أن يُقتل، الدرس الأول تلقاه في حرب العصابات: لا تَمُتْ قبل أن تَقْتل عدوك.

بقيت الصُّورة الممزَّقَة في الدرج السنة وراء السنة، خمس سنوات، حتى عام ١٩٦١، دقَّ جرس الباب ودخلت تُريًا حمدان، كانت تسكن إلى جواربي في شارع الجيزة، تشغل منصبًا كبيرًا في مبنى التلفزيون الجديد. سألتني: عندك رواية للشاشة الصغيرة يا دكتورة نوال؟ قلت: لا أكتب للتلفزيون يا أستاذة ثريا. سألتني: ليه يا دكتورة؟ قلت: لا أعرف، لم أجرب. قالت: حاولي تكتبي حاجة للتلفزيون؛ عندك قلم مميز ولك قرَّاء وقارئات، والشاشة في حاجة إلى أعمال أدبية جيدة، وهي نادرة، هيه قولي لي متى أتسلم الرواية منك؟

جلست في الليل أفكّر، فتحت الدُرج حيث الأوراق القديمة والذكريات الطفولية، لمحت صورتي الممزقة ضمن الأوراق، تأملتها طول الليل، قبل شروق الشمس أمسكت القلم وصفحة بيضاء، كتبت عنوان الرواية: الصورة الممزقة.

كانت هي الرواية الأولى التي كتبتها لشاشة التلفزيون، رواية طويلة عُرضت في ثمانين حلقات، كل حلقة أربعون دقيقة، كنت أتابعها بعد أن أعود من العيادة ... أم إبراهيم تجلس عيناها فوق الشاشة، تمسح دموعها وتنشج بصوت مكتوم. في درج مكثبي حتى اليوم دوسيه كبير مكتوب عليه «الصورة الممزقة»، من مائتين وعشرين صفحة، أفكر اليوم في طبعها داخل كتاب حتى لا تسقط من التاريخ.

المشرط والقانون

أحملق في المرأة وأنا واقفة في غرفتي، ذراعي ملفوفة بالجبس، النتيجة فوق الحائط ثابتة عند العام ١٩٦٠، صورة الأشعة على المكتب والتقارير، كسر في عظمة الريداس اليمنى. منذ خمسة أعوام كدت أفقد يدي اليمنى بسبب الغضب، عادت يدي كما كانت إلا من جرح عميق فوق المعصم غائر حتى العظم.

غضبت من أبي وضربت الباب الزُّجاجي. اليوم أنا غاضبة من نفسي، من هذه المرأة داخل المرأة، تزوجت بلا حب وحملت بلا حب ثم قفزت من الشرفة لقتل الجنين، لكن الجنين لم يحدث له شيء، فقط انكسرت ذراعي اليمنى.

رفعت اليد الملفوفة بالجبس وضربت الوجه داخل المرأة، انكسرت، وانقسم وجه المرأة قسمين، أصبح لها وجهان، في كل وجه عين واحدة.

استدرت لأرى المرأة العجوز ورائي، رأسها ملفوف بالطرحة السوداء، ترمق ذراعي داخل الجبس بنظرة الحدأة المستكشفة، «حصل إيه كفى الله الشر يا دكتورة نوال؟»، «أبدًا ما فيش حاجة يا طنط، رميت نفسي من البلكونة»، ثم ضحكت، ضحكت هي الأخرى غير مصدقة ما أقول، أدركت أن الحقيقة حين أقولها لا يُصدّقها النَّاس. وكان ابنها حين يسألني «أتحببيني يا نوال؟» أرد بسرعة: لأ. يضحك غير مصدق ما أقول. وقالت أمه في اليوم التالي: خدي إجازة من المستشفى يا دكتورة عشان صحتك وصحة العيّل اللي جوه بطنك. ترمق بطني بنظرة حانية كأنمًا ترى حفيدها، ابن ابنها الغالي، تضمه داخل جفونها، تصعد نظرتها إلى صدري ثم وجهي، تلتقي عيناها بعيني، ترمقني بنظرة الحدأة.

لا شيء يربطني بهذه المرأة أو ابنها إلا الجنين في أحشائي، قطعة من هذين الغريبين داخل جسدي. فكرت في التخلُّص من جسدي، راودتني فكرة الانتحار، نظرت إلى الأوراق

المتراكمة فوق مكتبى، الرواية! تشدنى إليها لأكملها قبل أن أموت، قررت تأجيل موتى إلى بعد الانتهاء من الرواية.

لم أعد قادرة على الكتابة، أمسك القلم بيدي اليسرى، أصابع اليد اليمنى لا تزال ضعيفة بعد إزالة الجبس، لا أستطيع أن أمسك القلم بين أصابعى، ينزلق من بينها كأنما هي فاقدة الحياة، أعيدها إلى الحياة يوماً بعد يوم بالتدريب، تمرينات لعضلات الأصابع والمفاصل، تحريك المعصم، تحريك الذراع، تكرار التمرينات عشر دقائق كل ساعة، أهبط إلى الحديقة الصغيرة خلف البيت أمسك فأساً صغيرة، أشغل بها كل يوم نصف ساعة، ثم أجلس تحت شجرة الكافور، ترمقني عصفورة صغيرة واقفة فوق الفرع بعيون حزينة.

إنه عام ١٩٦٠، عام الهزيمة الصغرى، هزيمتي الخاصة وانسحابي من الحياة، حنيني إلى الموت، أيام الحزن العميق والأحداث المؤلمة الساقطة من الذاكرة، لولا النسيان ربما مات الإنسان، داخل خلايا المخ مضافة تنقي العمر من لحظات الضعف والهزيمة، تلقي بها في قاع التاريخ، تظل كامنة في البئر، داخل قوقعة سميقة، جرح مفتوح غائر في اللحم، نظن أنه النائم، فإذا ما حلت بنا هزيمة أخرى أدركنا أنه لم يلتئم، يطل من تحت الجلد مثل رأس الدمل، إن هي إلا هزة واحدة حتى تسقط القشرة وينزف الجرح.

ثلاثة شهور من الحزن، كنت في التاسعة والعشرين من عمري أرى نفسي عجوزاً في نهاية حياتي، أنشد الموت وأنا راقدة إلى جواره في السرير العريض، أحمل في أحشائي جزءاً منه لا أعرف كيف أتخلص منه، أبحث في أركان البيت عن سم أبتلعه، أفتح العلبة السوداء في الصيدلية الصغيرة البيضاء فوق الحوض، أبتلع الحبوب السامة حبة وراء حبة ثم أتوقف فجأة، يلوح لي وجه ابنتي الطفلة تبكي على موت أمها، عيون أخواتي الأربع القاصرات بلا أم ولا أب، ليس لهن في الحياة إلاي، تنهمر دموعي ... أبكي عليهن قبل أن أبكي على موتى.

فوق المائدة في الصالة تتراكم الصحف، تأتيني كل صباح من تحت عقب الباب، أركلها بقدمي. صورة الدكتور حمدي زوج صديقتي بطة تظهر في الصحف، يُدلي بتصريحات عن الديمقراطية، يُردد ما يُقال عن أعداء الثورة، يدعو الله أن ينزل عليهم الطير الأبايل، تجعلهم في بئر سجّيل. كل من يعارض جمال عبد الناصر يصبح من أعداء الثورة، كل من يرى أن الوحدة الاندماجية لن تنجح بين مصر والعراق. فشلت الوحدة بين مصر وسوريا، أصبح رجاء الشاعر من أعداء الثورة، طارده البوليس حتى هرب إلى باريس، أسعد شقيق

صفية دخل المعتقل ومعه رفاة زوج سامية. تمط شففتيها وتقول: شوية عساكر يا نوال مسكوا الحكم وعاملين إرهاب في البلد!

مسرح الأحداث في حياتنا الخاصة هو السرير، ربما أيضًا مائدة الطعام، يدور كل شيء داخل الأربعة جدران، قد يتسرب شيء خارج الأبواب المغلقة إلى آذان الجيران، ارتطام أجسام بالحوائط والجدران، تكسير الصحون وتطاير الشظايا في الجو، زعيق متدرج الصوت يعلو وينخفض، ثم يدب الصمت. في الصباح ينخرط الزوج في عمله، تنخرط الزوجة في عملها، يعود الاثنان في نهاية اليوم إلى مكانهما بين الجدران الأربعة، حيث تتكرر المأساة.

كانت تحلم كل ليلة بالفرار دون جدوى، لماذا كانت تعجز؟ الخوف من الفشل للمرة الثانية في الزواج؟ الخوف من ألسنة الناس؟ الخوف من الوحدة؟! رغم أن الوحدة كانت تبدو لها مثل النجمة بعيدة المنال! اهو التناقض التاريخي في عتمة هذه العلاقة التي يسمونها الزواج؟

كنت أتفادى الخروج معه إلى حيث يرانا الناس، قامتي أطول من قامته، يدي سمراء محروقة بالشمس، أصابعي طويلة رفيعة، أصابعه قصيرة ممتلئة بالراحة وعدم العمل، قدمه صغيرة بيضاء شاحبة لم تلمسها الشمس، خطوتي فوق الأرض واسعة قوية، خطوته ضيقة مترددة مهتزة، لم يكن لي أن أراه يمشي حتى يعتريني المرض، لا أعرف هل أستسلم للقلق أم أسرح في الأحلام، يمشي بجوارري في المدينة المكتظة يهز ذراعيه، كأنما له ذراع أقصر من ذراع، جسمه يهتز بحركة تؤلم العين، عضلاته مرتخية من طول الجلوس في المكتب والبيت، يركب السيارة من البيت إلى المكتب، لا يمشي، لا يمارس الرياضة، ذراعه إن تعرت تبدو بيضاء تكشف من تحتها عروقًا طويلة متعرجة تمشي فيها دماء زرقاء، أرمقها بدهشة مع أنها عروق طبيعية؛ فالدم الأحمر يبدو تحت الجلد بلون أزرق. كنت أنسى الطب والمنطق، يصيبني القلق كلما تعرت ذراعه، كأنما كشف عن عاهة مستديمة، يتباهى بها أمام الرجال، ينافسهم فيما يسمونه الذكورة، أنكمش داخل نفسي خزيًا، أبقى في مكاني مسمرًا مذهولة لا أعرف إن كنت في حالة من اليقظة أو أعط في النوم.

ذات يوم جاءني صديقة جديدة من الأدبيات، دق الجرس، فتح لها الباب وأدخلها غرفة الاستقبال، سألتني «جوزك اللي فتح لي الباب؟» ترددت قليلاً «لأ مش هو» ثم تراجعتم وقلت «أيوه هو». كان في نظر العالم رجلًا وسيماً مملوءًا بالرجولة، لكن عين الأدبية تكشف

ما تحت الجلد. جلست أمامها في غرفة الاستقبال أتفادى النظر إلى عينيها، كانت لي هاتان العينان قبل الزَّواج، كأنما في حياة سابقة كنت مثل زرقاء اليمامة أرى ما لا يراه النَّاسُ، فما الذي حدث لأفقد البصر؟

كنت أمسك عقله الأبيض المرتخي أدلكه وأجادله؛ لتسري فيه دماء حمراء بدل الزرقاء، كنت أقاوم الطبيعة، ويصيبني الإعياء أو المرض، لا يعرف هو ما يعتريني، يتطلع في الشقة الواسعة لا يعرف لماذا لا أفرح، الأثاث الفاخر، الفساتين الحريرية التي اشتراها لي، والشبابش ذات الوردية الذهبية والكعوب الرفيعة العالية، وفخذه الخروف المشويَّة فوق المائدة والسَّيَّارة الطَّويلة أمام الباب، وصوته يزعم «عاوزة إيه أكثر من كده؟» أمسح دموعي حائرة مذهولة، أتهم نفسي بفقدان البصر، كيف لا أرى كل هذه النِّعم؟

أعود إلى طبيعتي الأولى، وتنقلب النِّعم إلى النِّقم، كلمتان متشابهتان رغم التناقض، لا يفرق الواحدة عن الأخرى إلا نقطة أو نقطتان.

في السابعة من عمري ضربني المدرس على أصابعي بالمسطرة بسبب نقطة حبر سقطت من سن القلم، تحولت كلمة بعل إلى بغل، لم أعرف حينئذ أن كلمة بعل تعني الزَّوج. وفي مرة أخرى سقطت نقطتان من الحبر فوق كلمة اللاه، أصبحت اللاة، لم أعرف أنها مؤنث كلمة اللاه، وتعني الإلهة الأنثى التي كان يعبدها العرب ثم حرَّم الإسلام عبادتها. شطب المدرس بالقلم الحبر الأحمر على الكلمة ولسعني بالعصا الخيزران.

كانت الرِّواية هي هدف حياتي، قرَّرت تأجيل موتي حتى أنتهي منها، دربت يدي اليسرى على الكتابة، أصبحت أكتب باليدين الاثنتين، أستبدل الواحدة بالأخرى حين يحل بإحداهما التعب، أحتضن القلم بين أصابعي وأكتب. يتسلل نور النهار من شقوق الشَّيش وأنا مُنكفئة فوق الأوراق، أسمع زقزقة العصفور فوق شجرة الكافور تفرد ريشها تحت أشعة الشَّمس، تلتقي عيناها بعيني وتبتسم ثم تطير مُحلَّقة في الجو.

كان هو يُشاركني السَّرير، لا شيء يُفسد الحياة الزَّوجيَّة إلا السَّرير المشترك، والحمام المشترك، انتهاكات يوميَّة للحياة الخاصَّة.

صحوت من النُّوم ذات يوم رأيته يقرأ أوراقى، كأنما كان ينتهك جسدي، ربما كان انتهاك الجسد أقل أُلماً. سمعت صوتي يقول: دي أوراقى مش من حَقك تقرأها! رأيته يمسك الرِّواية، يلقي بها من النافذة، وجدنتي أقفز وراء الرِّواية من النافذة، تصورت أنني بهذه القفزة سوف أنقذها.

هذه اللحظة كان يمكن أن تُنهي حياتي، أن يتحطم رأسي فوق الأسفلت، لم تكن لحظة جنون، كنت عاقلة في كامل الوعي، كانت لي تجربة سابقة، قفزت من سور الشرفة

فلم أفقد حياتي، كسر في الريداس اليمنى ثم التأم العظم. هذه الرواية سهرت عليها الليالي والأيام، والشهور والسنين، أكثر من ثلاثمائة ورقة بحجم الفولسكاب الكبير، عقلي قال في تلك اللحظة: إن أنقذت الرواية أنقذت حياتي.

لحظة من الخيال ربما، وجدت نفسي أمشي فوق الماء، أهتز قليلاً لكنني أوصل المشي، أدخل إلى سراديب طويلة تشبه الممرات في مستشفى قصر العيني، طوابير المرضى والمريضات يفتشون الأرض إلى جوارهم قُفِّف وأطفال يخبطون الهواء بسيقان مُعَوَّجَة يرمقون الأطباء بنظرة استجداء، يدبُّ الأطباء فوق البلاط بكعوب قوية عسكرية، معافهم بيضاء ناصعة البياض، عيونهم من خلف النظارات مُطْفَأة أو مُغْمَضَة، ينقرون بأصابعهم الغليظة على صدور الأطفال الذين تحملهم النساء فوق صدورهن المهذلة، وأنا أمشي بين طوابير المريضات أترنح فوق ساقين يتساقط من بينهما الدم، تنفرج شفاههن الشاحبة عن صوت خافت: «ربنا يشفيكي يا بنتي»، يمسحن عيونهم الذابلة بطرف الجلباب الأسود المغطى بالتراب، أشق طريقي بينهن بصعوبة، أتفادى النظر إلى عيونهن، لكن صدري يمتلئ بالدفء، أحتفظ في ذاكرتي بهذه النظرة الحانية في العيون الذابلة.

فتحت عيني فوجدتني غارقة في الدم، راقدة فوق منضدة من الرُخام تشبه مناضد المشرحة أو غرفة عمليات الجراحة، فوقها ملاءة من المشمَّع الأحمر، فوق رأسي كشاف كهربائي قوي الضوء، راقدة فوق ظهري مفتوحة الساقين، الذراعان والقدمان مربوطة بأحزمة جلدية في قوائم حديدية ترتفع فوق المنضدة، أسمع الأطباء يتبادلون الكلمات غير المفهومة، يشمخون بأنوفهم ويقولون «إفاكيوويشن» عقلي مشلول مخدَّر، ترنُّ الكلمة في أذني منذ المدرسة الثانوية «إفاكيوويشن»، خرجت مع البنات في المظاهرة عام ١٩٤٦، كنا نهتف في وجه الإنجليز في نفس واحد: «إفاكيوويشن ويز بلاص»، وتعني «الجلاء بالدماء»، أو طرد الاحتلال الأجنبي من بلادنا بالحرب المسلحة، لكنها تعني في لغة الطب أو الجراحة، طرد الجنين من الرحم بالأدوات الطبية المسلَّحة، بمعنى آخر: عملية «الإجهاض».

كان هو نائماً إلى جواربي في السرير العريض، شخيره يسري في أذني مثل دقات الساعة المشروخة، عيناى مفتوحتان شاخصتان إلى السقف، تحرَّرتُ من القيد الذي كان يربطني به، عملية «الإفاكيوويشن» حررتني من الاحتلال الأجنبي لجسدي، نزعت عن نفسي الجسد الغريب الذي كان جزءاً مني، بدأ الطلاق يلوح في السماء مثل شفق الفجر، أنفاسي تلهت كأنما أجري وأنا راقدة في السرير.

كان يتغطى بالملاءة من الرأس حتى القدمين، تُطَلُّ قدماه البيضاوان من طرف الملاءة مضغوطين صغيرتين، كأنما حُشِرَتَا داخلَ حذاء من الحديد، كأقدام الفتيات فى الصين القديمة، كانت أمه تذلُهما كلَّ ليلة منذ طفولته، تَلْفُهما فى جراب من الصوف، داخلَ صندوق مبطَّن بالحريز، تُبخرهما، تَحْشَى عليهما من عين الحسود. فتح عينيه ورأنى مفتوحة العينين شاخصة إلى السقف.

- صاحبة ليه؟

- بافكر.

- فى إيه؟

- فى الطلاق.

انتفض واقفاً غاضباً، قال إن الطلاق بيد الرجل وحده، الطلاق يتم بإرادة الرجل حين يريد وليس بإرادة المرأة حين تريد، الطلاق حق مطلق للرجل بحسب القانون، وهو رجل قانون، رغم قامته القصيرة المربعة شَمَحَ بأنفه مثل الأطباء فى المستشفى وقال: أنا رجل قانون! ثم نطق عبارة باللغة العامية انفجر بعدها شريان فى رأسى: «نجوم الضُّهر أقرب لك من الطلاق يا دكتورة!»

منذ طفولتى سمعت أبى يردُّ هذه العبارة.

«إذا كان ثمن الحرية فادحاً فإن ثمن العبودية أفدح.»

وعاش أبى المنفى فى منوف عشرة أعوام، لم تغفر له الحكومة التمرُّد على الرؤساء، ولم يغفر لها خيانة الشعب، اشتغل موظفاً فى هذه الحكومة ثلاثة وثلاثين عاماً حتى مات، كلَّ يوم يفكر فى الاستقالة ثم يتراجع، كان العائل الوحيد لأسرته وعياله التسعة وأمهم، كالمربوط فى الساقية، يقول عن نفسه رَهينُ المَحْبَسِينَ: الوظيفة الحكومية وسرير الزَّوجية. قبل أن يموت بشهور قليلة أحالته الحكومة إلى المعاش، أصابه انتعاشٌ كأنما يولد من جديد، فردَّ زراعته من آخرهما وأخذ شهيقاً أعقبه بزفير طويل، وقال: أخيراً تحررت بعد ثلاث وثلاثين سنة سجن، أخيراً سأقرأ وأكتب ما أريد، ثم مات أبى فجأة قبل أن يكتب شيئاً أو يترك أثراً.

قبل أن يموت، قال: لو عادت حياتى إلى الوراء ربما لم أدخل الحكومة ولا الزَّواج، إنهما المصيدة والمقبرة. وكان يقول: اتركى وظيفة الحكومة وافتحى عيادتك الطبية يا نوال، لا شيء يقتل الإنسان مثل الوظيفة الحكومية.

وفي التاسعة من عمري سمعت أبي يقول لأخته رقية: «الطَّلَاق لك أفضل من الزَّواج التعيس، اخلعيه يا رقية، من حق المرأة أن تخلع زوجها إذا رَدَّتْ له المهر وتنازلت عن النفقة»، كان أبي دارساً للشريعة الإسلامية في الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي ودار العلوم.

لولا أبي ما استطعت أن أعرفَ هذا الحقَّ الشرعي للمرأة يسمونه «الخُلْع»، ساعدني أبي على أن أخلعَ زوجي الأول، تنازلت عن النفقة والمهر، الكلمتان ترنَّان في أذني نايبتين، لم يكن المهر إلا خمسة وعشرين قرشاً، حين سألني المأذون كم يكون المهر؟ رنت الكلمة في أذني نايبية؛ لا أقبل أن يدفع لي الرجل مقابل الزَّواج، ما الفرق بين الزَّواج والبيعاء؟ قال المأذون: العقد لا يكون صحيحاً دون المهر، على الأقل خمسة وعشرون قرشاً، كنوع من الرمز! قلت: رمز لأي شيء؟! قال: رمز قوامة الرجل على المرأة، الرجل واجبه الإنفاق والمرأة واجبه الطاعة. قلت: أنا طيبة يضع النَّاس أرواحهم بين يدي ولا أقبل أن ينفق عليَّ أحد، كيف أعيش عالة على زوجي وأنا طيبة؟! قال المأذون: العقد يكون باطلاً دون مهر. همس زوجي في أذني: هذه مجرد شكليات. أمسكت القلم ووقعت العقد. تكررت الواقعة في الزَّواج الثَّاني، لا بد من الرَّمز بالقروش على قوامة الرجل وإلا بطل عقد الزَّواج، همس زوجي في أذني: هذه مجرد شكليات. أمسكت القلم ووقعت العقد، أصبحت للمرة الثَّانية تحت طائلة القانون العبودي، يسمونه قانون الأحوال الشَّخصية، تفقد فيه المرأة كيانها الإنساني، تصبح ناقصة الأهلية، قاصراً مثل الطفل لم يبلغ سن الرشد أو المريض بعقله أو المعتوه، في حاجة إلى الوصاية، وزوجها هو الوصي عليها.

في الطَّلَاق الأول كان أبي معي، دخل إلى مكتب المأذون بقامته الفارعة، كانت له هَيبة الأنبياء، نهض المأذون واقفاً، أهلاً سعادة البية. قال أبي: ابنتي الدُّكتورة تريد خلع زوجها والتنازل عن جميع حقوقها المادية وغير المادية! قال المأذون مخاطباً زوجي: هذا حقها الشرعي يا أستاذ، ثم كتب قسيمة الطَّلَاق.

في الطَّلَاق الثَّاني لم يكن أبي موجوداً، مات أبي قبل أن أتزوَّج بعام ونصف، كنت وحدي في مواجهة رجل قانون، لا أعرف إلا القليل في القانون، صوت أبي الميت يقول: اخلعيه يا ابنتي هذا حَقك الشرعي. عيناى تدوران في المكان تبحثان عن أبي، واقفاً إلى جوارى بقامته الفارعة يُمسك يدي، صوته في أذني، تقدمي يا نوال ولا تخافي أنتِ على حق.

كان رجل القانون واقفاً أمامى فى غرفة النوم، صوته يزعم: «نجوم الصُّهر أقرب إليك من الطلاق»، قامته مربعة قصيرة، قدماه صغيرتان بيضاوان، يرتدى منامة حريرية بيضاء، وجهه أبيض بلون المنامة، عيناه صغيرتان غائرتان فى اللّحم كعينى أمه. كنت واقفة أمامه، قامتى أطول من قامته، قدمائى كبيرتان أكبر من قدميه، سمران محروقتان بالشَّمس، وهو واقف أمامى يمتُّ عنقه شامخاً بأنفه، يقول إنه رجل قانون، إن الرجل وحده يملك حق الطلاق، المرأة لا تملك هذا الحق.

– المرأة تملك حق الخُلع إن تنازلت عن حقوقها المادية بحسب الشَّرع يا أستاذ!

– هذا فى الشرع فقط يا دكتورة وليس فى القانون!

– أتعيش معى ضد إرادتى؟!

– هذا حقى القانونى!

– أنا لا أريد أن أعيش معك!

– اذهبى إلى المحكمة!

المحكمة؟! اخترقت الكلمة رأسى مثل طليقة رصاص، لم أدخل فى حياتى محكمة، ترنُّ الكلمة فى أذنى على وزن مشرحة أو مقبرة، الداخلى إليها مفقود والخارج مولود، طوابير النسوة بالجلاليب السُّود أمام أبواب المحاكم، تشبه الطوابير أمام باب المستشفى والمشرحة والقبور، وجوههن الضامرة الشَّاحبة، عيونهن الذابلة جفت من الدموع، جحافل المحامين والقضاة داخل أروابهم مثل جحافل الأطباء يدقُّون الأرض بكعوب حديدية، يشمخون بأنوفهم، ترمقهم عيون النسوة المكومات، واقفات فى الطوابير الممدودة من الشَّارع حتى باب المحكمة.

كان واقفاً أمامى يمتُّ عنقه القصير الممتلئ باللحم، تيار من الدم الساخن يندفع من قمة رأسى، يهبط إلى عنقى وصدرى حتى بطن القدمين، الغضب المتراكم فى أعماقى منذ الطفولة، العشب الأسود فى قاع البحر، خطوت نحوه خطوة واحدة، أردت أن أقبض بأصابعى على عنقه، أصابعى طويلة قوية أمسكت بها المشرط وفتحت الصدور والبطون، فجأة تذكرت أننى طبيبة جراحة، حقيبتى جاهزة بجوار المكتب داخلها المشرط، سرت نحوها خطوة بخطوة بطيئة، لم أسرع الخطو، مشيت بخطوة هادئة تشبه خطوة أبى الميت، رفعت قدمى اليمنى عن الأرض كما كان يرفعها، ثم القدم اليسرى، قدمائى ثابتتان وعينائى مفتوحتان لا يطرف لهما جفن، كنت هادئة مثل أبى وفى كامل الوعي. انتثيت بجسمى الطويل أرفع الحقيبة من فوق الأرض، ثم انتصبت قامتى الفارعة مثل أمى،

فتحت الحقيقية بأصابع قوية ثابتة، أخرجت مشروط الجراحة من جرابه الجلدي الأسود بحركة قوية سريعة، كالفارس يمتشق سلاحه واثقاً من النصر، لمع النصل الحاد تحت الضوء بلون أبيض.

كان ظهري ناحيته لم أستدرْ بعدُ لأواجهه، النافذة مفتوحة أمامي، ضوء الفجر يُشقشق في الأفق، العصفورة في عُشها داخل شجرة الكافور، التقت عيناها بعيني فانفض ريشها وطارت بعيداً، بدأ جسمي يتحرك لأستدير وأواجهه، قبل أن تكتمل الاستدارة تجمّدت لحظة وأنا ألمح وجهي في مرآة الدولاب، ليس هو وجهي، الملامح لا أكاد أعرفها، البشرة شاحبة بلا قطرة دم، المقلتان كبيرتان مشتعلتان بنار سوداء، الجلباب قديم شاحب البياض يتدلى تحت الركبتين، القدمان حافيتان فوق بلاط أبيض، النصل الحاد يلمع في يدها بلون الموت الأبيض.

هذه الصورة محفورة في ذاكرتي حتى اليوم، نسيتها منذ تلك اللحظة كأنما لم تكن، ثم عادت إليّ بعد عشرين عاماً، في خريف ١٩٨١، التقيت لأول مرة في حياتي بامرأة قاتلة داخل السّجن، كانوا يُسمونها فتحية القتّالة، لم أتخيل حين رأيته لأول مرة أنها يمكن أن تقتل، كانت هادئةً وادعة، وإن غضبت كلُّ السجينات هي لا تغضب، ثم رأيته مرة واحدة في لحظة غضب، أدركت أنها يمكن أن تقتل، عيناها الصافيتان مثل السماء في يوم مشرق تلبّدتا وتعرّكتا وأصبحتا بلون الطين الأسود. كانت الشاويشة في السّجن تقول: القتل ليس جريمة يا ضكطورة، إنه لحظة غضب واحدة وتفوت، القتّالات أحسن ناس، لا يدوروا ولا يلفوا زي بتوع المخدرات والنشّالات.

تجمّدت أمام المرأة وأنا أنظر إلى وجهي، ثم أكمل جسمي الاستدارة وأصبحت أواجهه وجهاً لوجه، وعيناً لعين، ماذا رأى في عيني؟! رأيتُه يتراجع إلى الوراء من دون أن يستدير حتّى التّصق ظهره بالحائط، أصبح جزءاً من الحائط بغير حراك، وجهه بلون الحائط الأبيض، شفّته بياضوان منفرجتان دون أن ينطق، تصورت أنه مات وهو واقف قبل أن أقترّب منه.

لم أَعُدْ في حاجة إلى المشروط، نطقت عبارة واحدة من كلمتين بصوت أبي الميت: أنا خلعتك.

أربعون عاماً مضت على هذه اللحظة، تصورت أنها سقطت في العدم، إلا أنها باقية في الذاكرة مثل نجم صغير يتألق في الظلمة، حصلت بعدها على ورقة الطّلاق وأنا في بيتي

أوراقى ... حياتى (الجزء الثالث)

معززة مكرمة، لم أخرج إلى المحكمة أو مكتب المأذون، لم أذفع شيئاً للمحامين أو الزوج المخلوع، لم أردد له شيئاً لأننى منذ البداية رفضت أن آخذ شيئاً، وتحررت من قانون الطاعة بفضل مشرط الجراحة.

أقامت حفلاً صغيراً فى بيتى بمناسبة الطلاق، جاءت صديقاتى الثلاث بطة وصفية وسامية، أطلقت دادة أم إبراهيم زغرودة طويلة، قالت بصوت جدتى الفلاحة: بركة يا ضكطورة رجعتى لنا بالسلامة. كركرت بطة بضحكها الطويلة المتقطعة. وقالت: عقبال عندنا يا رب! ابتسمت صفية بهدوئها المعتاد وقالت: إنتِ يا نوال أشجع واحدة فىنا. ورفعت سامية ذراعها فى الهواء كأنما تهتف فى مظاهره، تسقط مؤسسة الزواج!

أربعون عاماً أسمع سامية تنطق الهمتافىن معاً فى نفس واحد: تسقط مؤسسة الزواج تسقط الإمبريالية والصهيونية! مضى أربعون عاماً من دون أن تتحرر سامية من زوجها رفاعة، ومن دون أن تتحرر مصر من الإمبريالية والصهيونية.

فى السنوات الأخيرة فقدت سامية بعض قوتها مع فقدان الشباب وأحكم رفاعة سيطرته عليها، ومنذ هزيمة ١٩٦٧ فقدت مصر بعض قوتها، بعد معاهدة كامب ديفيد عام ١٩٧٦ فقدت مصر الوحدة العربية، تمزقت داخلياً تحت وطأة الفتنة الدينية السياسية، وبعد الهزيمة فى حرب الخليج عام ١٩٩١ دخلت مصر غابة العولمة تحت السيطرة الإسرائيلية الأمريكية.

الهزيمة الكبرى

التقيت بشريف عام ١٩٦٤ في وزارة الصحة، خرج من السجن منذ عام واحد بعد أربعة عشر عامًا وراء القضبان. شَهَقَتْ بطة حين سمعت الخبر، إنْتِ مجنونة يا نوال، خَرَّيج سجون وشيوعي كمان؟! انتفضتُ صافية، الشُّيوعيَّة ضيَّعت أخويا أسعد ومالهاش مستقبل في بلادنا يا نوال! مطَّت سامية شفتيها، الشُّيوعيَّة ليست المشكلة يا أخواتي، المشكلة هي مؤسسة الزَّواج، مؤسسة فاشلة وليس لها مستقبل، وسوف تنقرض بإذن الله!

كركرت بطة بالضحك، يسلم بُقك يا سامية، لكن المشكلة الحقيقية هي نوال، هي لا تؤمن بمؤسسة الزَّواج منذ العصر العبودي، فكيف تدخل المؤسسة بإرادتها للمرة الثالثة؟! لا يلدغ مؤمن من جُحر مرتين فما بال الثالثة؟

كنت في الثالثة والثلاثين من العمر، سقطت أوهام كثيرة عشعشت في عقلي وخيالي، لم يُعِدْ قلبي يخفق كما كان في العاشرة من عمري أو العشرين، حياتي أصبحت كاملة دون رجل، الطب والأدب وابنتي وأخواتي والصديقات والأصدقاء، حياتي ممتلئة بكل ما يُشبع حاجات الإنسان وما يفيض، فلماذا أتزوج؟ لماذا أضع نفسي تحت طائلة قانون يعود بي إلى الوراثة عشرين عامًا فأصبح قاصرة لا أملك جسمي ولا عقلي ولا أسافر إلا بإذن من زوجي؟!

سألت شريف: هل نحن بحاجة إلى قانون الزَّواج؟ ألا يمكن أن نتزوج بإرادتنا الحرة دون كتابة ورقة؟! ما جدوى هذه الورقة إذا كنت أثق بك وأنت تثق بي؟ سنتزوج نحن الاثنين ونفترق إن شئنا بإرادتنا نحن الاثنين ... فلماذا الورقة؟

لكننا كنا في عام ١٩٦٤ وليس عام ٢٠٠٠، انقضت ستة وثلاثون عامًا حتى يسقط قانون الزَّواج القديم، كنت أتمرد عليه وحدي، كنت أعرف أنه بقايا العصر العبودي، لكن

أغلب النساء لم يكن معى، حتى صديقاتى الثلاث بطة وصفية وسامية لم يملكن شجاعة الطلاق أو الاعتراض على القانون إلا داخل الغرف المغلقة، اليوم تغير الحال، زاد عدد النساء والشابات المتمرديات على قانون الزواج القديم، وتم تعديل القانون أكثر من مرة داخل مجلس الشعب، تعديل طفيف لا يمس جوهر القانون القديم. هكذا بدأت الفتيات يتزوجن دون قانون، أو بقانون جديد ليس فيه عقد رسمي مختوم بالنسر، وإنما عقد عرفى تعارف الناس عليه قبل نشوء الحكومات. إن الحاجة إلى الحب والجنس تنتصر على أعتى الحكومات المركزية وأقدمها فى التاريخ وهى الحكومة المصرية، أكثر من ذلك بدأت الفتيات يتزوجن بدون عقد على الإطلاق، دون حاجة إلى ورقة مكتوبة، مجرد الثقة المتبادلة بين الرجل والمرأة، كل منهما بالغ الرشد ومسئول عن الوفاء بالوعد، يمسك كل منهما بيد الآخر وينطق الوعد، لا أحد يشهد عليهما إلا الله، أليست شهادة الله أهم من شهادة موظف الحكومة؟!

قلت لشريف: إنهم يتكلمون كثيراً على الإيمان بالله، مع ذلك لا يؤمنون به، وإلا فلماذا لا تعترف الحكومة بشهادة الله؟!

ضحك شريف وقال بصوته الهادئ: يا نوال أتريدى أن نتزوج أم تريدى تغيير العالم؟ قلت: أريد الاثنين يا شريف، قال ربما يتغير العالم بعد قرن أو نصف قرن، ولكننا نريد أن نتزوج اليوم، وإن لم نذهب إلى مكتب المأذون ونسجل العقد المكتوب فسوف يصبح أطفالنا غير شرعيين.

كان يوم ١٠ ديسمبر ١٩٦٤، ذهبنا إلى المأذون وكتبنا العقد، سأل المأذون كم المهر؟ قلت له خمسة وعشرون قرشاً، رمز العبودية، وضحكت، لكن المأذون لم يضحك، كان غاضباً لأن أجره يزداد بازدياد المهر، أراد أن يُعقد الأمر طمعاً فى أجر أكبر، ناوله شريف أجراً سخياً وقال: اكتب العقد يا شيخ بلاش تعقيدات، عندنا موعد ولازم نمشي بسرعة! كان موعدنا فى البيت مع ابنتى منى، عمرها سبعة أعوام، طفلة عيناها عسلتان يكسوهما بريق، اشتد البريق وهى تفتح العلبة الملفوفة بالشريط الأخضر اللامع، ارتدت الفستان الجديد.

لونه وردي له كولة بيضاء من الدانتيل، وياقة من الورد البلدى الأحمر والزهور البيضاء، جلسنا نحن الثلاثة حول المائدة الصغيرة فى شقة الجيزة نحتفل بعيد زواجنا الأول، لا أحد يشهد عليه إلا الله والطفلة فى السابعة من عمرها.

في أول لقاء مع شريف أدركت أنني أتق فيه، عيناه رأيتهما، نافذتان مفتوحتان إلى الأعماق، العينان هما الإنسان في نظري، هناك قول مأثور يقول: «تكلم حتى أراك» وأنا أقول: أرني عينيك حتى أراك.

في أول لقاء سألت شريف عن علاقته بالكتابة والأدب، هذا السؤال كنت أسأله لأي رجل أو امرأة يمكن أن أصادفها، الكتابة عندي أعز ما أملك، الماء والهواء والكتابة، ثلاثة عناصر ضرورية للحياة، أنا أكتب إذن أنا موجودة. لا أتصور الحياة الدنيا بدون ورقة وقلم، الحياة الأخرى أيضاً لا أتصورها بدون ورقة وقلم. في المدرسة الثانوية طردني مدرس الدين من الفصل عام ١٩٤٦ حين سألته: أياكون في الجنة ورقة وقلم لمن يريد أن يكتب؟ وفي السجن عام ١٩٨١ كان الحراس يفتشون كل يوم ويقول رئيسهم مهدداً: إذا وجدنا ورقة وقلماً فهذا أخطر من أن نجدَ طبنجة! واستطعت رغم ذلك أن أخفي الورقة والقلم تحت أرض الزنزانة دون أن يعثر عليهما أحد، ومنذ طفولتي لم أكن أنام دون الورقة والقلم تحت وسادتي، ومن أجل الورقة والقلم خَلَعْتُ من حياتي الزَّوَجَ الأوَّل والثَّانِي.

كان شريف هو زوجي الثالث، لم يكن يكتب إلا المقالات السياسيَّة، منذ أول لقاء قلت له: أنت أديب يا شريف قبل أن تكون سياسياً وقبل أن تكون طبيباً. قال: منذ طفولتي يا نوال كنت أحب الموسيقى والأدب، وكانت أمي تمسك يدي وتقول أصابعك خلقت للموسيقى.

قبل الزَّواج حدثني شريف عن حياته في السُّجن وفي البيت، عن طفولته حين كان في العاشرة من عمره عام ١٩٣٣. ينتمي شريف إلى الطبقة الأرستقراطية المصرية، أصحاب الأراضي والإقطاع منذ الخديوي والسُّلطان والممالك، يملكون الأرض والمصانع والشركات، يشاركون فيها الأسرة المالكة والأجانب، مثَّلم الأعلى الملك فؤاد الأول ثم فاروق الأول، يتفاخرون بجذورهم في الأرض المصرية، يرثونها عن الأب والجدة، يتزوجون الشقراوات الأجنبية حين يسافرون إلى باريس أو لندن للسياحة أو للحصول على الشهادات العليا. مدينة القاهرة في الثلاثينيات من القرن العشرين كانت تتألق في الليل كالرجل الداعر، يتزوج المرأة الأجنبية أو الأرستقراطية من الطبقة العليا، ثم يتسلل في الليل إلى العشيقَة المصرية من الطبقات الدنيا. يتكلم اللغة الإنجليزية أو الفرنسية في البيت، وفي وَكْر العشق أو اللذة يتكلم اللغة العامية الدارجة، أو لغة الشوارع. يثبَّت في عروة البدلة الأنيقة وردة حمراء، والطربوش الأحمر فوق رأسه مائل نحو أذنه اليمنى أو اليسرى. ينتمي إلى حزب اليمين أو حزب اليسار، يحمل لقب الباشا الأحمر أو الأخضر أو الأصفر. يتحدثون عن

الشَّعب المصرى الفقير مع رشفات الويسكى وقضمان الكافيار ودُخان السِّيجار، يتبارونَ فى الانتخابات على المقاعد فى مجالس النُّواب أو الشُّيوخ، وفى الليل يتبارونَ على بنات الهوى فى الكباريهات والعوَّامات الراسية على شاطئ النيل. فى البيت الكبير بيت العيلة الكريمة يحتفظون بالزُّوجة الأولى العجوز أم الأولاد، عفيفة طاهرة كالأم العذراء. فى البيت الثَّانى الخفى، مثل الحكومة الخفية. هناك الزُّوجة الثَّانية الشَّابة المكتنزة باللحم، من أجل الحب والعشق واستعادة الشَّباب. تحت سُنَّة الله والرسول، لكل منهم ثلاثة بيوت أو أربعة بحسب عدد الزُّوجات، ثم الشقة السَّرِّية تحمل اسم «الجارسونيرة» وهى كلمة فرنسية تعنى المكان الذى تَقْد إليه المومسات أو العشيقات السَّرِّيات. يعود الرجل منهم آخَرَ الليل إلى زوجته الأولى، تفوح منه رائحة الخمر وعطر النِّساء، يخلع الطربوش والبدة والوردة الحمراء فى العروة، يعطى أم الأولاد ظهره، ثم يسقط فى النُّوم يشخر حتى ظُهر اليوم التالى.

لم يرث شريف عن هؤلاء الرِّجال العهر وفراغ الدماغ، ورث عن أمه الإنجليزية الإرادة الحديدية، وعن جدته الفلاحة أم أبيه ورث الضمير الحى والاستقامة. لم تقرأ جدُّه كتابَ الله، كانت مثل جدتي الفلاحة أم أبى لا تعرف القراءة، وكانت تقول ربنا هو العدل عرفوه بالعقل. ورث شريف عن جدته الإيمان بالعدل، أصبح فى أعماقه منذ الطفولة جهاز عضوى يؤمن بالعدل أشبه بجهاز المناعة ضد الأمراض، أليس هو الضمير؟!

منذ طفولته كان قلبه يَرِقُّ للخدَم فى البيت والشَّحاذين ذوى العاهات فى الشوارع. فى النُّوم يرى نفسه نبياً أو قسيساً يدعو إلى العدل والخير، كان طفلاً وحيداً حزيناً فى بيت كبير، أبوه غائب معظم الوقت، أمه تنظر إلى أصابعه الطويلة النحيفة وتقول أصابع فنان مبدع أو جراح ماهر. كان يحب الفنانين ويكره الجراحين، لم يكن رجال الطبقة العليا يحترمون أهل الفن، يقولون عنهم «أرتيست»، يلفظون الكلمة بطرف اللسان فى ازدراء. يدخل الأرتيست إلى قصورهم فى الأفراح من الأبواب الخلفية مع الخدَم، يعزفون العود أو الكمنجة مع الطبله والرِّق، يَطْرَب السادة للغناء والموسيقى، يهزون رعوسهم طرباً، يُلقون طرابيشهم على الأرض، ينتشون، ينهلون من المنع التى حرّمها الله حتى الثُّمالة، ثم ينامون، وفى الصُّباح ينهضون، يركعون لله ركعتين كنوع من الرِّشوة، يضعون الطَّرابيش فوق رعوسهم، يشمخون بأنوفهم يتفاخرون بالتقوى والصلاح.

على شاطئ النيل فى الجيزة كنت أتمشى أنا وشريف، يحكى لي عن طفولته وأيام الدراسة وكلية الطب، المظاهرات الوطنية، أحداث كوبرى عباس فى الجيزة، فتح البوليس

الكوبري على الطلبة المتظاهرين، غرق بعضهم في مياه النيل، تلقى بعضهم الرصاص في صدره قبل أن يقفز فوق السور، اختلط الدم الأحمر بالماء والطيني.

تخرج شريف في كلية الطب، عام ١٩٤٦، كان طالباً متفوقاً يحلم أن يكون طبيباً مثالياً، يعالج الفقراء بالمجان. اصطدم الحُلم بالواقع القبيح، الدم والصديد والعرق في جلايب الفلاحين، الوجوه الضامرة المصوصة، ينزفون الدم في البول، يمرضون بسبب الفقر والجهل والاستعباد وليس بسبب الجراثيم.

تحول الطبيب المثالي إلى مناضل ثوري يحلم بإلغاء الفوارق بين الطبقات، كلمة الطبقة كانت محرمة، محظوراً النطق بها، تعني الشيوعية والإلحاد، أليس الله هو الذي خلق الفقير والغني؟ أليس المال هو مال الله يعطي من يشاء بغير حساب؟

صوت شريف هادئ ينساب في أذني مع نسمة الليل في الربيع، نحن في عام ١٩٦٥، عيناه يكسوهما حلم حزين، ملامحه تذكّرني بملامح أبي وزوجي الأول، ملامح الفدائيين والقديسين، أتذكرهما رغم مرور السنين، المظاهرة الصامتة عام ١٩٥١، الأتفاف يدوي تحيا مصر حرة. عيناه تلتقطانني من وسط الملايين يكسوهما البريق، الحب جزء من الخيال وجزء من الحقيقة، يخفق له القلب رغم الموت والحرب، الدماء فوق الأرض والأصابع حول عنقي، الهروب في الليل قبل طلوع الفجر أحمل طفلتي فوق صدري، فتح لي أبي بيته وذراعيه، لم يؤنّبني ولم يعاتبني، ربما كان يحس تأنيب الضمير، ألم يملأ خيالي منذ الطفولة بأحاديث البطولة؟ سعد زغول وثورة ١٩١٩، الحرب والقتال وتحرير الوطن، الحرية والاستقلال أو الموت الزؤام، في أعماقه جهاز للإيمان، أشبه بجهاز المناعة ضد الأمراض، في خياله صورة عن الله، يحاول أن يستبدل الصورة بالحقيقة، يلوي عنق الحقيقة، يلوي عنقي لأصبح مطابقة للصورة، عنقي غير قابل للالتواء مثل عنقه، رأسي غير قابل للانحناء مثل رأسه، كلما عجز عن تغييرني اشتد به الإحباط، لم يملك شيئاً يغيره إلا ابنته بعد أن عجز عن تغيير العالم.

راح أبي ضحية اللحم الكبير مثل زوجي الأول، يذوب اللحم في الحقيقة، مؤرق في الليل والنهار، يسمع الدقات المنتظمة للزمن والنبض، الساعة فوق معصمه وقلبه تحت الضلوع، دقات منتظمة غريبة في انتظامها، مفزعة في استمرارها كدقات الموت البطيء، يهبُّ من النوم حاملاً سلاحه، يذهب إلى حرب لا يعرفها، يندفع في الظلام كمن يمشي في النوم، يمشي فوق الموت دون أن يتوقف، دون أن ينظر إلى الوراء، يتطلع إلى السماء، يرى صورته محمولاً فوق الأعناق، الناس تهتف باسمه: يعيش يا يعيش! وهو يمشي فوق

السحب حاملاً سلاحه، مرهق يبحث عن الرَّاحة، حزين ينشد الفرحة، مهزوم يحلم بالنَّصر، يمشى وحده مثل خيال، الوجوه من حوله ميتة، كلهم موتى، كلهم غارقون في الهزيمة، لا يملكون إلا سلاحاً مكسوراً أو قلماً مقصوفاً، كلمات فوق الورق تطير في الهواء، طلاقات الرصاص والدم المراق، عيناه غارقتان في الدموع، أهى دموع الحزن أم الفرحة؟ أهو الموت أم الانطلاق نحو حياة جديدة؟

كنت أخرج لأتمشَّى على شاطئ النيل في الجيزة، شريف يمشى إلى جوارى، يحكى لي عن السَّجن، أربعة عشر عاماً في السَّجن، دخل عام ١٩٤٩ وخرج عام ١٩٦٣، عشر سنوات منها تحت حكم جمال عبد الناصر من ١٩٥٣ حتى ١٩٦٣ مع الأشغال الشاقَّة، قطع الأحجار في الجبل في سجن طرة وأبو زعبل.

يسترجع شريف الذكريات وأنا أمشي إلى جواره صامته أرمق النَّاس في الطَّريق، وجوه الرِّجال متهدلة، عيونهم منكسرة، إلى جوار كل واحد منهم زوجته يقبض على يدها كالأسيرة، النَّساء أجسادهن سمينة مربعة، يتأرجحن فوق كعوب رفيعة، ثقلات الخطو بطيئات الحركة، بطونهم عالية، إلى جوارهن تسير بناتهن نحيفات رشيقات، كالزَّهور يتفتحن في الرَّبيع، ثم يأتى موسم القطف، يصبحن مثل أمهاتهن بعد ليلة الزَّفاف مكسورات القلب مترهلات.

إنَّه عام ١٩٦٧ شهر يونيو، بالضَّبط ١٠ يونيو، وأنا أمشي بجوار شريف في شارع الجيزة، الساعة الرابعة صباحاً قبل طلوع الفجر بقليل، الدنيا ظلام، النَّاس تمشي في الليل كمن يمشون في الحلم، خرجوا من بيوتهم يهتفون ضد الهزيمة، يطالبون بالسلاح، الحرب والقتال حتى الموت، تحيا مصر حرَّة، الأجساد تغطي الشوارع، لا مكان لقدم، مثل يوم الحشر حين ينهض الموتى من القبور أفواجاً أفواجاً، وأنا أمشي إلى جوار شريف، كما مشيت إلى جوار أحمد في المظاهرة الصامته منذ ستة عشر عاماً، الخطوة فوق الأرض هادئة ثابتة، الصوت هادئ يُشبه الصَّوت، العينان يكسوهما البريق ذاته والحلم ذاته، تحيا مصر حرة، نموت فداء الوطن، صوت عبد الناصر يهتف في الإذاعات سنقاتل حتى النَّصر، الملايين في الشَّوارع تهتف في نَفْس واحد: النصر! النصر!

منذ العاشرة من عمري وأنا أهتف معهم، في المدرسة الابتدائية في منوف، في المدرسة الثانوية في حلوان، في كلية الطب في شارع قصر العيني، في نقابة الأطباء بدار الحكمة، في وزارة الصَّحة بشارع مجلس الأمة، وفي شوارع القاهرة والإسكندرية والسويس والإسماعيلية وبورسعيد والجيزة والفيوم وبني سويف والمنيا وأسيوط وقنا وأسوان.

سمعت شريف يهتف مع النَّاس: الموت حتى النصر! عيناه يكسوهما بريق اللحم الطفولي، كالدّمة الحبيسة لا تسقط ولا تجف. خرج من السَّجن بعد حكم بالأشغال الشاقّة أربعة عشر عامًا، خرج نحيف العود منتصب الرُّأس أكثر صلابة مما كان، لم يفقد اللحم ولا الأمل، يفكر بالليل والنَّهار في الثَّورة، يهبُّ من النَّوم حاملاً سلاحه، يندفع في الظَّلام يمشي فوق الموت لا يتوقف، يسقط بين أيدي البوليس، يدخل السَّجن ويخرج ثم يدخل ويخرج. يسير إلى جوارى صامتاً يفكر، الرُّجال من حوله يتكلمون ويثرثرون، يتناثر في الجو رذاذ لعابهم، لا يكفون عن الكلام، يقاطع بعضهم بعضاً، يتكلمون في وقت واحد وهو صامت، وإذا تكلم صمت الجميع.

منذ أن صدرت القرارات الاشتراكية عام ١٩٦٢ أصبح النَّاس أعضاء في الاتحاد الاشتراكي، صدرت الأوامر الإدارية ودخل الموظفون والموظفات الحزب الوحيد، لم يتخلف أحد في الوزارات أو الجامعات أو مؤسسات الدَّولة خوفاً من الجهاز الحكومي، أقدم جهاز في التَّاريخ البشري منذ الفراعنة، لم يعرف الشَّعب المصري إلا حكم الفراعنة أو الاحتلال الأجنبي. جاء القرن الواحد والعشرون ولم يتحرر الشَّعب المصري بعد، تغيرت الأسماء والوجوه والألقاب وطرق الاستعباد والاستبداد، وبقي فرعون على حاله ومعه الاحتلال الأجنبي، تخلَّص الشَّعب المصري من السيطرة الأجنبية بضعة أعوام قليلة ثم سرعان ما عادوا.

كلمة «الاشتراكية» كانت تجري على لسان جمال عبد النَّاصر قبل الهزيمة بأعوام قليلة، بالضُّبط منذ عام ١٩٦٢، ما يجري على لسان رئيس الدَّولة يجري على ألسنة رجال البلاط من الوزراء والموظفين والمتقِّفين من أصحاب الأقلام في الصُّحف والمجلات. بدأت الوجوه تظهر على شاشة التلفزيون، السيِّد الرِّئيس من حوله كبار رجال الدَّولة والأدباء والصَّحفيين، أصبحوا يحملون لقب النُّخبة، يندرجون تحت فئة المثقفين، إحدى فئات الشَّعب العامل الخمسة «العمال والفلاحون والجنود والرَّأسمالية الوطنيَّة والمثقفون». كلمة فئات تبدو أكثر براءة من كلمة طبقات، مفردها كلمة طبقة، تنطوي على الصِّراع الطبقي أو الشُّيوعيَّة. رئيس الدَّولة أصبح ينطق عبارة جديدة «تذويب الفوارق بين الطبقات»، انتشرت العبارة في كل مكان، يردها رجال البلاط والمثقفون وأصحاب الأقلام، ينطقون العبارة بصوت رئيس الدَّولة، واللهجة ذاتها، يُخرجون لسانهم عند نطق حرف الذال في كلمة «تذويب».

كانت بطة لا تزال صديقتى هي وصفية وسامية، اكتشفت بطة جذورها الفقيرة من الفلاحين في قرية السنبلوين، زوجها الدكتور حمدي اكتشف أن أباه كان عاملاً في مصانع النسيج بالمحلة الكبرى، ارتدى الدكتور حمدي بدلة زرقاء كُحلية من تيل المحلة، لها ياقة مكوية مُنشأة شديدة الأناقة تُشبه ياقة وزير الخارجية، رشح نفسه في الانتخابات ودخل مجلس الشَّعب تحت فئة العمال.

لم ينجح الدكتور مصطفى زوج صديقتى صفية في الانتخابات تحت فئة الفلاحين، رغم ارتدائه الجلباب والطاقيّة، وتحريك السبحة بين أصابعه بالحركة ذاتها مثل السيّد الرّئيس والوزراء والمتقنين ورجال البلاط، إلا أنه أصدر كتاباً جديداً عن الاشتراكية في الإسلام، أوضح الخلاف بين الاشتراكية الإيمانية الإسلامية والشُّيوعيّة المادّيّة الإلحادية. قال الاشتراكية بدأت في الإسلام بأبي ذرّ الغفاريّ رضي الله عنه، والرسول ﷺ كان اشتراكياً يحارب أغنياء قريش من أجل «تذويب الفوارق» بين الطبقات في الجزيرة العربية، ثم استطرده قائلاً: كلمة «تذويب الفوارق» لا تعني إلغاء الفوارق؛ لأن الله خلق النّاس درجات، وهذا هو الفرق بين الاشتراكية الإيمانية والشُّيوعيّة الإلحادية، الشُّيوعيّة ترى العالم بدون طبقات على الإطلاق، مما يخالف كلام الله في الكتب السّمّوية، وفي القرآن نص لا يقبل التفسير ولا التّأويل، خلقنا الله درجات، أي طبقات، طبقة فوق طبقة، طبقة أعلى وطبقة أدنى، وخلقنا الله من نفس واحدة ذكر وأنثى، لكن الذكر أعلى من الأنثى، والرّجال عليهن درجة، إن هؤلاء النّساء اللاتي يحاولن مساواة المرأة بالرّجل يخالفن كلام الله في القرآن والكتب السّمّوية.

أصبح الدكتور مصطفى أحد كبار المفكرين في مصر، اسمه الدكتور مصطفى الزُّهيري، زوج صديقتى الدكتورة صفية. كانت صفية تؤمن بأن النّاس خلقوا درجات أو طبقات، لكنها لم تؤمن بأن الرّجل يرتفع عن المرأة درجة. صديقتى سامية لم تكن تؤمن بالفكرتين معاً، تمط شفيتها وتقول: النّاس سواسية كأَسنان المُشط، لا فرق بين عربي وأعجمي ولا رجل ولا امرأة إلا بالصلاح والتقوى. لم تعد بطة تكرر بالضحك، أصبحت تجلس في وقار تضع الساق فوق الساق، يكشف فستانها الحريري الضيق عن ركبتين كبيرتين مكتنزتين باللحم، أصبحت بطة تحتل منصباً كبيراً في الاتحاد الاشتراكي، وعضواً بارزاً في نقابة الصّحفيين، كيف تحولت بطة من طبيبة إلى صحفية؟ أعضاء الاتحاد الاشتراكي دخول وزارة جديدة اسمها وزارة الثقافة والإعلام، احتلوا المناصب العالية في مبنى التلفزيون الجديد، ومبنى الإذاعة، والمؤسّسات الصّحفيّة الجديدة ودور

النَّشْر ومجلس التَّقافة الأعلى الدَّائم واللُّجان التي أصبحت تحمل لقب اللُّجان الدَّائمة. أم إبراهيم كانت تقول: الدوام لله.

أصبحت بطة رئيسة لإحدى اللُّجان الدَّائمة في جهاز التلفزيون، تظهر فوق الشَّاشة تحدث، صوتها أصبح وقوراً فيما عدا حرف الراء تقلبه إلى غاء، تقول: الاشتغاكية بدلاً من الاشتراكية، هذه اللدغة في اللسان منذ الطفولة لم تستطع تغييرها مهما حاولت، يلتوي لسانها وعنقها القصير السمين وهي تنطق الكلمة، كأنما هي غصة في الحلق، تشهق قليلاً كالمختنقة تمد عنقها إلى أعلى مزهوة بالشعر الأسود أو الباروكة المصفوفة فوق رأسها درجات فوق درجات، على شكل هرم أكبر من رأسها، تمط شفتيها الحماوين المكتنزتين بحركة تكاد تشبه صديقتي سامية. وكانت بطة منذ أيام الدَّراسة لا تكف عن الضَّحك والكركرة، شفتاها منفرجتان دائماً كأنما لا يمكن أن تنطبق إحداهما على الأخرى.

«العمَّال والفلاحون نسف المجتمع ومن حقهم الحصول على نسف المكائد في مجلس الشعب.»

صوتها يرُنُّ في أذني وأنا جالسة أمام الشَّاشة الصغيرة في بيتي بالجيزة، شريف إلى جوارى يتابع حديثها، يبتسم في هدوء حين يسمعها تقول «نسف المجتمع» بدلاً من «نصف المجتمع»، و«المكائد في مجلس الشعب» بدلاً من «المقاعد في مجلس الشعب». إلى جوارها يجلس الدكتور رشاد، ترك الطب وتفرغ للسياسة، أصبح من أعوان الوزير، يرأس إحدى اللُّجان العليا الدَّائمة، يظهر على شاشة التلفزيون، يعجز مثل بطة عن نطق حرف الراء، يقول: الديموقراطية بدل الديموقراطية، يلتقي بي أحياناً في فناء وزارة الصِّحة أو مدخل نقابة الأطباء بدار الحكمة في شارع قصر العيني، يستوقفني ويهتف بصوته الرقيق: نوال مش معقول! شعرك بقه أبيض خالص زي الثلج، لكن مديكي تشاغم خطيغ! (يعني تشارم خطير)، وكلمة «تشارم» تعني باللغة العربية «جاذبية».

منذ المؤتمر الوطني للقوى الشعبية عام ١٩٦٢ لم ألتق بالدكتور رشاد إلا على شاشة التلفزيون، أو في الطريق بالصدفة. كان عضواً في المؤتمر الوطني مثلي عام ١٩٦٢، إلا أنه كان يجلس في الصُّفوف الأمامية مع النُّخبة المثقفة، كنت أجلس في الصُّفوف الخلفية مع الشَّبَاب. حين جاء دوري في الكلام قلت بصوت سمعه الجالسون فوق المنصة، منهم جمال عبد الناصر ووزير الدَّاخلية، تعكرت الوجوه وأنا أقول الفلاح هو الذي بوله أحمر، هذا ما سمعته من جدتي الفلاحة، أهنك فلاح واحد في مصر لا ينزف الدم مع البول؟! ينتشر مرض البلهارسيا في الريف بنسبة ٩٩٪. سجل وزير الدَّاخلية اسمي الثلاثي فوق ورقة

أمامه. بعد الاجتماع استوقفنى الدكتور رشاد عند الباب الخارجى للجامعة فى الجيزة، وقال: بأه ده كلام يتآل يا نوال؟ الفلاح بوله أحمر؟! ده تهكم واضح على الاشتغاكىة وسيادة الغيىس شخصياً (يعنى الاشتراكىة وسيادة الرئىس).

منذ هذا المؤتمر عام ١٩٦٢ دخل اسمى القائمة السوداء، أصبح لى دوسيه صغير فى وزارة الداخلىة يحمل اسمى الثلاثى، الأب والجد السعداوى الذى مات قبل أن أولد. بعد أن تزوجت شريف حناتة فى ديسمبر ١٩٦٤ أضيف إلى اسمى كلمة أخرى سيئة السمعة «شيوعىة» يضيفون إليها كلمة أكثر سوءاً «حمراء»، لى جريمة سابقة تصطبغ باللون الأحمر، هى عبارتى عن الفلاح وبوله الأحمر وأنا امرأة أيضاً، المرأة الحمراء ليست كالرَّجل الأحمر، كان فى مصر رِجل يسمونه «الباشا الأحمر» تعنى الباشا الشُّيوعى؛ يمكن للرَّجل أن يكون أحمر دون المساس بأخلاقه، فهى كلمة سياسية، أما «المرأة الحمراء» فهى تدرج — مثل اللبالي الحمراء — تحت بند الأخلاق، مثل «امرأة الشَّارع» فى اللغة تعنى المومس أما «رِجل الشَّارع» فهو المواطن الكادح من فئات الشَّعب، «الرحل الحر» يعنى الرِّجل الأبى الشجاع المدافع عن الحرية، أما «المرأة الحرة» أو الداعية إلى حرية المرأة فهى إباحية تدعو إلى الفساد الأخلاقى.

سكن شريف معى فى شقتى الصغيرة بشارع مراد بالجيزة، أصبحت الشقة تحت المراقبة ثمانية وعشرين عاماً حتى انتقلنا منها، كانت مراقبة غير دائمة متقطعة بحسب نذببات الحكم فى مصر، حكم مذذب بين اليسار واليمين، يستقر فى الوسط دون نظرية أو فكر، ينتقل من النقيض إلى النقيض بين يوم وليلة، يلعن الاستعمار كالشُّيطان يوماً ويقدسه كالإله فى يوم آخر، ما بين هذا وذاك يتحول الأصدقاء إلى أعداء، أو الأعداء إلى أصدقاء.

مثل هذا الحكم لا يؤدى فى النهاية إلا إلى الهزيمة، منذ ولدت فى بداية الثلاثينات حتى اليوم لم تشهد بلادنا إلا الهزيمة وراء الهزيمة، حل الأمريكان محل الإنجليز، ودولة إسرائيل أصبحت تملك الترسانة النووية والسلطة العليا، تحلم بأرض الله الموعودة من النيل إلى الفرات، لم يعد الفرات بعيداً عنها بعد حرب الخليج عام ١٩٩١. منذ عهد السادات وبداية عصر الانفتاح عام ١٩٧٤ كَفَّ رجال البلاط والنُّخبة المثقفة عن نطق كلمة الاشتراكىة، أصبحت من الكلمات المحظورة، عادت مصر إلى مجتمع النصف فى المائة، ازداد الفقراء فقراً والأثرياء ثراءً، فُتحت البورصة أبوابها المغلقة منذ العهد الملكى القديم، انتشرت كلمة الديموقراطيَّة والليبرالية، تجمَّع نفر من النُّخبة المثقفة فى قصر السادات

وصدر قرار جمهوري بإنشاء المعارضة والأحزاب السياسيّة، أصبح حزب الحكومة هو الأكبر، يمكن عند الضرورة أن يبتلع الأحزاب الأخرى، يمين ويسار ووسط، كما ابتلعت عصا موسى الثعابين الصغيرة.

لم أدخل أي حزب بطبيعة الحال، كتبت مقالاً بجريدة الشعب، إحدى الصُحف الجديدة التي حملت اسم حزب العمل، أحد الأحزاب المعارضة، كان مقالاً بعنوان «من ينشئ الأحزاب في مصر، الشعب أم الحاكم؟» وفي يوم ٦ سبتمبر ١٩٨١ اقتحم رجال البوليس بيتي في شارع مراد بالجيزة، كسروا الباب وأخذوني إلى سجن النساء بالقناطر الخيرية، وجدت نفسي متهمه بالتآمر لقلب نظام الحكم في مصر لحساب دولة أجنبيّة اسمها بلغاريا، لماذا بلغاريا بالذات؟! لا أعرف.

لم أسافر في حياتي إلى بلغاريا، ليس لي معرفة بامرأة بلغارية أو رجل بلغاري، لا أعرف اللغة البلغارية، لا أكاد أعرف شيئاً عن بلغاريا، أنسى موقعها فوق خريطة العالم. إن تلفيق التهم للمعارضين أمر معروف في كل العهود، في كل البلاد، لكن هذه التهمة كانت أشبه ما تكون بالنكته، يضحك شريف ويقول: كده يا نوال تتآمري مع بلغاريا على قلب نظام الحكم من غير ما تقولي لي؟!!

لم أدرك مأساة هزيمة ١٩٦٧ إلا في زيارة لقريتي صيف عام ١٩٦٨، حين التقيت بحفيد دادة أم إبراهيم، اسمه على اسم أبيه الذي لم يعد من حرب ١٩٤٨. كان راقداً فوق الحصيرة على الأرض، من حوله النساء يبكين في صمت، عيونهن ذبلت من البكاء، سقطت عنها الرُّموش، يولولن بأصوات جماعية خافية كالنحيب المكتوم: إلهي ينتقم منك يا ميخا! وجوهن ضامرة ممصوفة محروقة بالشمس، رءوسهن ملفوفة بالطُّرح السوداء، الجلايب بلون التراب، وإبراهيم راقد فوق الحصيرة يَهْدِي بالحُمى، أمه تكاد تشبه أمها دادة أم إبراهيم، لكنها أكثر ذبولاً وإعياءً، تمسح عن وجه ابنها العرق بطرف طرحتها السوداء، تبكي بلا صوت وابنها يحكي ما حدث له في الحرب، نجا من الموت لكنه عاد حُطام إنسان.

كان إبراهيم قد بلغ عامه الواحد والعشرين قبل أن يذهب إلى الحرب بأيام، كان يستعد لحفل زواجه من ابنة عمته زهيرة، جاءه أمر الاستدعاء في شهر مايو ١٩٦٧، ترك القرية والعروسة، ارتدى الزي العسكري وانطلق يهتف: الله، الوطن، تحيا مصر حرة. حلقوا رأسه ورحّلوه إلى منطقة بير الحما بالقرب من مغارة الفحم في العريش. قامت الحرب يوم ٥ يونيو وهو في بير الحما، عرف ذلك من الراديو، سمع المذيع يقول انتصرنا

انتصرنا. ثم فوجئ بعد ثلاثة أيام بالضبط يوم ٨ يونيو بالدبابات الإسرائيلية تحيط به وبزملائه الجنود، وتم تدمير كتيبته بالكامل وقتل قائدها.

يمسك إبراهيم رأسه بين يديه ويجهد بدون صوت، تسمح أمه العرق فوق جبهته بطرف جلبابها، ترمقه النساء لاهئات، تسأله كل واحدة منهن عن ابنها: وكان مين معاك يا إبراهيم؟ مش فاكركان مين معاك يا إبراهيم؟ يبرش إبراهيم بعينيه، يرمق السقف الأسود بلون الهباب، يمسك رأسه بين يديه ويقول: مش فاكركان مين معاكيا لكن قائد الكتيبة كان اسمه فؤاد عبد الحكيم، أخذوه وقتلوه مع الأسرى.

يسكت إبراهيم يبتلع ريقه، تناول أمه كوز الماء، تسأله إحدى النسوة: مش فاكركان اسم حد من اللي كانوا معاك يا إبراهيم؟ يتذكر إبراهيم: كان معاكيا واحد اسمه أنيس كان شاويشاً متطوعاً من الإسماعيلية، وواحد تاني من بورسعيد اسمه جمعة، وجت دبابة ومشيت على الأرض، أمرونا إننا نرقد على الأرض على شكل صفيين فوق علامة جنزير الدبابة، وكانت الدبابة تمشي بعيد عنا وبعدين ترجع هاجمة علينا عشان تدفنا في الأرض، وكان اللي يقوم واقف عشان ينقذ نفسه من الدبابة يضربوه بالنار، وقلت لنفسي: خلاص يا إبراهيم ربنا أراد إن عمرك ينتهي، وماحدث بيموت ناقص عمر ده مصيرنا مكتوب على الجبين. والدبابة وهي ماشية كانت تضرب بالمدافع بين الصفيين الراقدين على الأرض.

ومات اللي مات، منهم جمعة من بورسعيد، وربنا كتب لي عمر جديد أنا وأنيس، أخذونا في الليل جوّه عربيّة، وكنت تقريباً فاقد الإحساس ودراعي اليمين فيها جرح كبير ينزف مش عارف من إيه، وخطونا في مكان بعيد في الصحراء وحوطونا بالأسلاك الشائكة وخطوا علينا حارس اسمه ميخا. يتوقف إبراهيم عن الكلام، يلهث، وتمزق النسوة الطرح السوداء، يصرخن في نفس واحد: ربنا يحرقك في نار جهنم يا ميخا! أمه تناول كوز الماء تمسح عرقه، يرمقها بعينين تبرشان: لا يمكن أنسى شكل ميخا يا أمه، كان عددنا حوالي تلتمية وميخا قال عشرة عشرة؛ يعني نقف صفوف، كل صف عشرة، ويضرب علينا الرشاش.

وكان الكل يندفن، اللي مات واللي لسه صاحي، وبعدين ميخا قال عشرة عشرة، ونقف صفوف، كل صف عشرة، بين الصف والصف متر، يمشي ميخا يعد الصفوف وإذا لقي صف ناقص واحد ياخذ منه اتنين، أو صف زايد واحد ياخذ منه اتنين برضه، يطلعهم على جنب ويضربهم بالنار، ويقول لنا ياللا احفروا وادفنوا زمايلكم. وبعدين يقول عشرة عشرة، ويضرب بالنار. احنا الباقيين قسمنا مجموعة في اليمين ومجموعة في الشمال، اللي

في اليمين عليها تحفر وتدفن، وأنا دفنت بإيديا زميل مضروب بالرصاص لكن صاحي وعينيه في عيني، وأنا بارمي الرمل عليه وفي ضهري مدفع وزميلي صاحي يقول لي اردم يا دُفعة خلص عليّ بسرعة، ولما ردمت الرمل على عينيه الدنيا دارت بي ووقعت ع الأرض. كنت فاقد الإحساس، ولما فُقت لقيت نفسي جوة عربية ماشية في الصحراء وجنبي أنيس وفرحت أوي بأنيس، هو الوحيد اللي عرفته، قال ياللا ننط. وقفزنا من العربية في الضالمة ومشينا في الصحراء يوم وراء يوم لغاية ما وصلنا البحر، كان هو بحر العريش، ولقيننا أعداد كثيرة أوي ماشيين على البحر مشينا معاهم. وحت الطيارات الميراج حلقت فوقنا، كانت الطيارة تنزل عجلتها الأمامية ويمكن تلمس الأرض وتضرب علينا، وشفت رأس طيارة في الهواء من غير جسم، أو جسم طائر في الهواء من غير رأس. وبعد الميراج جت الطيارات الهيلوكوبتر تصطاد واحد واحد من البحر، وخرجت من البحر مبلول ومش عارف أنا مين، وبعدين افكرت إن اسمي إبراهيم وإنهم استدعوني من الاحتياط يوم ٢٥ مايو، وافكرت أنيس ورُحت أدور عليه، يظهر إنه مات أو غرق في البحر مش عارف. ومشيت ع البحر وأقول يمكن ربنا ياخذ بيدي، لكن جت عربيات جيب وأخذوني السّجن، وكان اليوم ده هو ٢٥ يونيو، يعني شهر بالضبط من يوم ما سافرت. قالوا إنني أسير من الأسرى في بير سبع، وكان معايا زمايل كثير ما عرفش أسماءهم، عصبوا عينينا وكتفونا زي الفراخ ونقلونا لسجن ثاني اسمه عثليت، مات فيه اللي مات، وأنا مش عارف إزاي عشت، لكن كل يوم كنت أدعي ربنا إنني أموت، لغاية ما جه يوم قالوا اجهز، وعرفت إنني راجع بلدي ضمن مجموعة في تبادل الأسرى، كان اليوم ده ٢٦ فبراير ١٩٦٨، يعني تسع شهور ويوم من أول ما استدعوني من الاحتياط.

سكت إبراهيم طويلاً، كان يرتعش، تصطكُ أسنانه، ينتفض كالمصاب بحمى الملاريا، همستُ أمه في أذني: ربنا يخليكي يا ضكطورة اكشفي عليه واكتبي له دوا يشفيه إلهي يكفيكي شر المصاب يا رب!

لم يكن إبراهيم مريضاً بالحمى أو أي مرض عضوي، وأنا أفحصه انفرجت شفتاه الزرقاوان عن أنفاس متحشجة وصوت خافت: مش قادر أنام يا دكتورَة من يوم ما خرجت من عثليت وأنا بافتكر زمايلي اللي ماتوا وزمايلي اللي دفنتهم بإيديا. ويحملق إبراهيم في يديه الناхلتين المرتعشتين ويهمس: بإيديا دول دفنت زمايلي في الرمل في الصحراء، وكل ليلة أحلم إنني واقف في الصّحراء أردم الرمل على أنيس وهو صاحي عينيه في عيني ويقول لي كده يا إبراهيم تعمل كده يا إبراهيم؟! مع إن أنيس يا دكتورَة غرق في البحر وما كانش واحد من اللي اندفنوا في الرمل، إيه اللي يخليه يقولي كده يا إبراهيم كده يا إبراهيم!؟

أوراقى ... حياتى (الجزء الثالث)

وتجهش أمه بالبكاء تمسح دموعها بكفها الكبيرة المشققة وتهمس: ما عندوش غير
حكاية أنيس يا ضكطورة.
ومات إبراهيم حفيد دادة أم إبراهيم وهو يَهْدِي باسم أنيس، يُخفي يديه تحت الغطاء
المهترئ ويصرخ: أبدأ أبدأ يا ناس مش إيديا دول اللي دفنت زمايلي في الرمل، ده ميخا
يامه! وتلطم النسوة خدودهن، يمزقن شعورهن يمرمغن رءوسهن في التُّراب ويولولن في
صوت واحد: إلهي يحرق قلبك وقلب أمك يا ميخا!

تضامن النساء

في طفولتي المبكرة قبل أن أعرف من هو أبي، عرفت أمي، عرفت بالشكل والرأحة والاسم والجسم، كان جسمها هو جسمي أو يشبه جسمي. كنت أتضامن مع أمي ضد أبي والعالم الخارجي؛ لكن شيئاً ما حدث جعلني أبتعد عن أمي، كنت طفلة لا أعرف بالضبط ماذا يبعدني عن أمي، وماذا يبعد أمي عني، ربما هو أبي كان يقف بيني وبين أمي، أو ربما هو العالم الخارجي كان يخدعني، يصور لي أن الأب هو كل شيء، الاسم والشرف والاحترام والدين والعلم والماضي والحاضر والمستقبل والدنيا والآخرة.

لم يكن للآن شيء من كل هذا، بدأت أثور ضد أبي والعالم الخارجي من أجل أمي، تصورت أن أمي سوف تفرح وتتضامن معي، لكنها تضامنت مع أبي والعالم الخارجي ضدي. هذه أول صدمة في طفولتي، كنت في السادسة من عمري حين تلقيت الصدمة الأولى من أمي، رأيته واقفة تبسم والأيادي الغليظة تنتزعني من الفراش، تربط ذراعي وساقني، وتستأصل بالموسى عضواً من جسدي.

أصابتنني خيبة أمل في أمي، أصبحت أتجه نحو أبي، بدا أبي كأنما يحنو عليّ أكثر من أمي، وكأنما يحبني أكثر من أمي، أي خديعة وأي وهم تسرّب إلى عقلي دون أن أدري؟! كم مضى من العمر وأنا أعيش هذا الوهم؟ قبل أن تموت أمي بقليل أو ربما بعد أن ماتت بدأت أدرك الحقيقة، كانت الحقيقة مثل جبل الثلج الغارق تحت الماء، تكشف عن نفسها جزءاً جزءاً.

حين بلغت الخمسين من العمر وبعد أن دخلت السّجن أدركت أن تضامن النّساء أخطر من السّلاح النووي، لم يكن يهدد إدارة السّجن إلا التّضامن بيننا نحن النّساء. بعد أن خرجت من السّجن أدركت أن تضامن النّساء يمكن أن يُسقط النظام الحاكم.

ألهذا السبب كان تنظيم النّساء من المحرّمات في نظر الأحزاب السّياسيّة جميعًا، يمينًا ويسارًا، وحكومة ومعارضة؟! منذ بدأنا تجميع صفوف النّساء في مصر عام ١٩٨٢ تضافرت القوى الحكومية وغير الحكومية على ضرب أي محاولة يمكن أن توحد النّساء.

النّساء أنفسهن كنّ يضربن المحاولة مثل الرّجال، كالأُم التي تضرب ابنتها إرضاء للزوج أو الأب الحاكم. منذ عام ١٩٨٢ وحتى هذا العام ٢٠٠٠ كم محاولة ضُربت؟ بعد كل ضربة ننهض من جديد ونجمع صفوف النّساء، ثمانية عشر عامًا نحاول توحيد جهود المرأة المصرية دون جدوى. وفي عام ١٩٩٩ شكّلنا لجنة تحضيرية، أكثر من مائة شخص من أجل تكوين الاتحاد النسائي المصري. عقدنا الاجتماعات، نشرنا الدعوة بين الجمعيات النسائية. بدأت الفكرة تنتشر، تحمست لها أعداد كبيرة من الشابات والشباب، وجمعيات المرأة في المحافظات. قررنا عقد اجتماع يوم ٢٢ أغسطس عام ١٩٩٩ للإعلان عن بدء تكوين الاتحاد النسائي المصري. قبل موعد الاجتماع بأيام قليلة فوجئنا بحملة صحفية ضد الاجتماع وتصريحات حكومية إن هذا الاجتماع غير قانوني.

وفي عام ١٩٩٢ نشرت كتابًا كاملًا بعنوان «معركة جديدة في قضية المرأة»، يوضح الكتاب كيف أغلقت الحكومة المصرية جمعية تضامن المرأة العربية بقرار غير قانوني، يوم ١٥ يونيو ١٩٩١، رفعا قضية ضد الحكومة في المحكمة الإدارية بمجلس الدّولة، وانقضى تسعة أعوام دون أن يصدر قرار المحكمة.

وتستمر المعركة حتى اليوم من أجل تضامن النّساء. بدأت ظاهرة جديدة هذا العام هي تضامن الأم مع ابنتها ضد الأب أو الأخ، يوم ١٧ يونيو ٢٠٠٠ دافعت أم عن حياة ابنتها حتى الموت، الابنة الصّغيرة تعرّضت للاغتصاب وحملت سِفاحًا، وبدأت علامات الحمل تظهر على الفتاة الصغيرة. ذاع الأمر بين أهل قرية «الرّواتب» التّابعة لمركز أبو طشت بمحافظة قنا في صعيد مصر. عقد رجال الأسرة مجلسًا واتخذوا قرارًا؛ قتل الفتاة لمحو العار، وقع الاختيار على شقيقها (اسمه بدر نور الدين) للإجهاز عليها، ويساعده في ذلك عمها (عبد الفتاح) وابن عمتها (عبد محمود) وابن عم أبيها (أحمد راشد)، أربعة رجال أشدّاء يعملون بالفتوس في الأرض. استدرجوا الفتاة الصغيرة بمفردها لقتلها، لكن أمها الواعية أدركت ذلك، كانت تقف لهم بالمرصاد تحوّل دون قتل ابنتها، اتفق الرّجال على

خداع الأم وابنتها، قالوا إن ابن عمته عبده محمود سوف يتزوج منها تغطيةً على العار (ربما هو الذي تسبب في الحمل لا نعرف) ولكنه سيتزوج منها بعد إجهاضها من الحمل السَّفَاح.

أصرت الأم على الذهاب مع ابنتها مع بعض سيدات الأسرة لمتابعة عملية الإجهاض، التي تمت داخل عيادة طبيب في نجع حمادي، ظلت الفتاة ثلاثة أيام تحت الملاحظة بالعيادة، وفي اليوم الثالث طلبت الأم عودة ابنتها، أحست أن مؤامرة تُدبر لقتل ابنتها؛ هددت بإبلاغ الشرطة إذا تعرضت ابنتها لمكروه. تم اصطحاب الأم لمرافقة ابنتها في العودة بصحبة ابن عمته عبده محمود، واتفقوا مع سائق أجرة على السير في طريق زراعي بعيد عن البيوت لتمكينهم من تنفيذ الجريمة. في ليلة الحادث كان الرجال الثلاثة الآخرون ينتظرون في الطريق، وهناك حاولوا انتزاع الفتاة من يد والدتها لقتلها، إلا أن الأم تشبثت في استماتة لحماية ابنتها، وقدمت نفسها فداءً لها وهي تستغيث وتستعطفهم بالصَّفح عنها، لكن طعنات السواطير هوت على جسد الأم يضربها الأربعة الرجال حتى أصبحت جثة ممزقة أمام ابنتها، ثم انهالوا على البنت الصغيرة بالسواطير بعد قتل الأم، وتم تمزيق الجثتين إلى اثنتي عشرة قطعة، ألقوا بها في التربة داخل أكياس بلاستيك كبيرة.

هذه هي الأم الجديدة التي أصبحت تتضامن مع ابنتها الحامل سَفَاحًا حتى الموت، وكانت الأم في الماضي القريب تتضامن مع رجال الأسرة في قتل ابنتها لمحو العار. لا يمكن أن أنسى هذه الأم التي كانت تمشي في الشوارع تزغرد بالفرح، إلى جوارها يمشي ابنها الأكبر حاملاً رأس ابنتها الصُّغرى على سن السُّكين بعد أن فصل رأسها عن جسها. لم تكن الفتاة قد حملت سَفَاحًا، بل كانت تحب زميلها في العمل وتفكر في الزَّواج منه، رآها أخوها تمشي في الشَّارع مع زميلها؛ فانقض عليها بالسكين، وراحت الأم تزغرد بالفرح، وتمشي إلى جواره مرفوعة الرأس بعد أن غسلت العار بالدم، أي عار وأي دم؟! أي خديعة وأي وَهْم كان يعشعش في عقول الأمهات كما كان يعشعش في عقلي منذ الطفولة.

كان صوت أُمِّي يخفت إلى جوار صوت أبي، كان أبي يقول هذا العالم فاسد يا ابنتي، قائم على دعامتين: الظلم والكذب. مع ذلك كان أبي يرى أن أخي أعلى مني درجة لأنه ذكر، يعطيه ضعف ما يعطيني من مصروف، ويقول: للذكر مثل حظ الأنثيين.

كنت أطلع لأُمِّي لنتقول شيئاً، كان أبي يدعم كلامه بكلام الله، لم يكن لأُمِّي أن تعارض كلام الله.

منذ عام ١٩٥٧ حين كنت طبيبة القرية بدأت الحكومة تطاردني بهذه التهمة، معارضة كلام الله، لم أقترب إثماً إلا التُّضامن مع فتاة مريضة حملها البوليس بالقوة إلى

بيت زوجها، كان يكبرها بواحد وخمسين عاماً، يضربها كلّ ليلة ويغتصبها جنسياً من الخلف وهي ساجدة تصلى لله. كنت الطبيبة المسئولة، واجبي حماية الفتاة من زوجها، لكن قوة البوليس كان أقوى منى، انتزعوا الفتاة وأعادوها إلى زوجها. ألقنت نفسها في النيل بعد أسبوع، وأنا أصبحت متهمة بالعمل ضد الدين، دخل اسمي القائمة السوداء، تحت اسم عدوة الله، هل التّضامن بين النّساء يعنى عداوة الله!؟

منذ عام ١٩٥٧ أصبحت متهمة بعدم الإيمان بالله، وفي عام ١٩٦٢ أضيفت إليّ تهمة جديدة هي: عدم الإيمان بالثورة المجيدة. كان زملائي وزميلاتي في نقابة الأطباء قد انتخبوني لأكون عضواً في المؤتمر الوطني للقوى الشّعبية، عقد في قاعة جامعة القاهرة عام ١٩٦٢. جلس جمال عبد الناصر فوق المنصة يتوسط الوزراء كبار رجال الدّولة. تبارى أعضاء المؤتمر في تعريف من هو الفلاح ومن هو العامل، فجأة تلاشت البديهيّات والظواهر الواضحة كالشمس، لم يعد أحدٌ يعرف من هو العامل الحقيقي ومن هو الفلاح الحقيقي. كنت شابة صغيرة حديثة العهد بالأعياب السّياسة، حين جاء دوري للكلام قلت الفلاح هو الذي بوله أحمر.

في طفولتي كانت جدتي تقول إن البول الأحمر دليل الصّحة والعافية، لم أكن أعرف أنه الدم، حتى سمعت أبي يقول إن كل الفلاحين في مصر يمرضون بالبلهارسيا. وفي كلية الطب عرفت أن أبي كان صادقاً، ومات أبي قبل المؤتمر الوطني للقوى الشّعبية بثلاث سنوات. لم يشهد المباراة حول تعريف من هو الفلاح ومن هو العامل، ولا هؤلاء الذين خلعوا البِدَل الإفرنجية وارتدوا الجلابيب أو العفاريت الرُّزق ودخلوا البرلمان أو مجلس الشّعب تحت اسم الفلاحين أو العمال.

في فبراير ١٩٥٨ بدأت الوحدة بين مصر وسوريا، وفشلت في سبتمبر ١٩٦١. ظلت أسباب الفشل مجهولة، لا يعرف الشّعب شيئاً عما يدور في الدوائر العليا، تمتلئ الصّحف بالأكاذيب وتسري الإشاعات.

كان صديقي رجاء الشّاعر يعرف ما يدور، كتب قصيدة حذفت الرقابة أهم أجزاءها، كشف فيها عن أن الوحدة لم تقم إلا لإنقاذ سوريا من خطر الاشتراكية، وراء قيام الوحدة كان رجال حزب البعث والأثرياء في سوريا، لم ينقذ جمال عبد الناصر ما أرادوه، طردوه من سوريا وحدث الانفصال.

أصبح رجاء الشَّاعر مطاردًا من البوليس، لم يكن رجاء ينتمي إلى حزب اليسار أو اليمين، كان شاعرًا يكتب القصائد، أصبح متهمًا بالشُّيوعية، لم يكن أمامه طريق للحياة إلا الهجرة خارج الوطن.

بعد هزيمة عام ١٩٦٧ لم يعرف أحد سبب الهزيمة، امتلأت الصحف بالأكاذيب. جاءتني رسالة من رجاء الشاعر، يقول فيها: أعيش في باريس مع أديب من سوريا وشاعر من العراق، لم يعد الوطن العربي يحتل وجود الشعراء والأدباء، نتابع هنا ما يحدث في بلادنا. ما حدث في مصر يوم ٥ يونيو ليس نكسة بل هزيمة كبرى، خطت لها الولايات المتحدة مع إسرائيل، أبلغوا الاتحاد السوفييتي كذبًا أن إسرائيل تستعد للهجوم على سوريا، أبلغت موسكو هذا الخبر إلى القاهرة، قام عبد الناصر بتهديد إسرائيل إذا اعتدت على سوريا. كانت الخطة هي استدراج مصر إلى الحرب. لم يكن جمال عبد الناصر مستعدًا للحرب، لكن المستشارين الأمريكيين في الجيش المصري غرَّروا به، شجعوه على طرد القوات الدولية من شرم الشيخ، خرجت القوات الدولية بسرعة دون اعتراض. الثالث المشارك في الخطة: الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، ألا يذكر هذا بالاعتداء الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، ورابعهم إسرائيل؟! ما إن خرجت القوات الدولية من شرم الشيخ حتى بدأت إسرائيل هجومها على مصر، ضربت الطيران المصري كله وهو نائم فوق الأرض صباح يوم ٥ يونيو ١٩٦٧، واحتل الجيش الإسرائيلي سيناء بالكامل.

وفي عام ١٩٧٣ جاءتني رسالة من رجاء الشاعر، يشرح لي كيف وقعت الثغرة في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وخسائر الجيش المصري. كانت الصحف تنشر الأكاذيب ولا أحد يعرف الحقيقة. كتب رجاء الشاعر يقول: لعبت الولايات المتحدة الأمريكية دورًا مشابهاً لما حدث في حرب ١٩٦٧، أقنعت أنور السادات أنه يمكن أن يحرك القضية السياسية بمعركة عسكرية محدودة، لكن الجيش المصري بعد أن أسقط خط بارليف أراد أن ينطلق إلى المضائق ومنها إلى تل أبيب، هنا أصدر السادات أمرًا بإيقاف النار، انتهز الجيش الإسرائيلي هذه الفرصة وطوَّق الجنود المصريين، هكذا وقعت الثغرة.

أعقب هذه الهزيمة استدراج السادات لتوقيع المعاهدة مع إسرائيل في كامب ديفيد عام ١٩٧٦، أكبر مسمار في نعش الوحدة العربية. وجاءت حرب الخليج عام ١٩٩١ لتمسح من الخريطة اسم العالم العربي، وتضع بدلاً منه اسم الشرق الأوسط تحت سيطرة إسرائيل. منذ تزوجت شريف عام ١٩٦٤ لم تكفَّ الحكومة عن مطاردتنا، حصل شريف على عمل في الهند وغادر مصر عام ١٩٧٣. عاش وحده في المنفى أربعة أعوام، أغرق نفسه

فى العمل والكتابة وأحب الهنود. بقيتُ فى مصر لأرعى الابنة والابن، يرتبطان بحياتهما فى المدرسة، الزملاء والزميلات والأهل والأصدقاء والصديقات، لم يكن لنا أن نخلعهما من جذورهما فى هذه السن المبكرة ليعيشا الغربية.

ثم انتقل شريف إلى أديس أبابا فى الحبشة، عاش ثلاثة أعوام أخرى فى المنفى، لم يعد إلى مصر إلا عام ١٩٨٠، قبل أن يكسر رجال البوليس باب بيتنا ويأخذونى إلى السَّجْن يوم ٦ سبتمبر ١٩٨١.

بعد خروجى من السَّجْن بدأت النساء والشابات يترددن على بيتى فى الجيزة، ظهرت فى الأفق فكرة إنشاء جمعية تضامن المرأة العربية، تكونت النواة الأولى من مائة وعشرين امرأة من ثمانية بلاد عربية منها مصر. أصبح شعارنا: رفع الحجاب عن العقل، المعرفة قوة، والتضامن بين النساء قوة.

فى عام ١٩٨٢ بدأنا نؤسس الفرع المصرى تحت اسم الجمعية الأم، وقفت الحكومة المصرية ضدنا ثلاثة أعوام، وصلنى خطاب فى ١٩ أغسطس ١٩٨٣ بشعار الدَّولة النسر، يقول الآتى بالحرف الواحد:

تقرر رفض تسجيل جمعية تضامن المرأة العربية لعدم موافقة مباحث أمن الدَّولة، بعد الاطلاع على رد مديرية أمن القاهرة، إدارة البحث الجنائى قسم مكافحة جرائم الآداب العامة.

أرسلت صورة من هذا الخطاب إلى جميع الصُّحف فى مصر، أردت أن أكشف كيف تتعامل الحكومة مع المواطنات من الشعب، كيف تنتهك الحكومة القانون والدستور تحت اسم مكافحة جرائم الآداب العامة. بدأت حملة صحفية ضد وزارة الشئون الاجتماعية، قادها كبار الصَّحفيين من اليمين واليسار ومن الحكومة أيضًا. جريدة الأخبار من أكبر الصُّحف الحكومية فى مصر، مصطفى أمين من أكبر الصَّحفيين المصريين، يكتب عمومًا يوميًا فى جريدة الأخبار تحت عنوان «فكرة»، يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٨٣ نشر ما يأتى بالحرف الواحد:

فكرة!

منذ عام اجتمع عدد من السيِّدات، بعضهن أستاذات فى الجامعة، ومدرسات بها وصحفيات وشاعرات وكاتبات وربَّات بيوت، واتفقن على تأليف جمعية «تضامن المرأة» مهمتها النهوض بالمرأة والدفاع عن حقوقها والارتقاء بها.

واعترض البعض بأنها حركة عنصرية رجعية تعمل على تكتيل النساء ضد الرجال، وتفصل بين مشاكل المرأة ومشاكل المجتمع. ولكن جمعية تضامن المرأة تفادت هذا الاعتراض عندما فتحت عضويتها للرجال، وفعلاً اشترك بعض الرجال في نشاط الجمعية.

ومنذ بداية العام والجمعية في نشاط مستمر، تجتمع مرة كل أسبوعين، وتقيم ندوات ثقافية وفنية وأدبية وتناقش بعض الكتب التي ترتبط بأهداف الجمعية. ونظمت دراسات عن مشاكل المرأة العامة ونظرة الصحافة والتلفزيون والإذاعة والسينما إلى المرأة المصرية.

وتقدمت الجمعية إلى وزارة الشؤون الاجتماعية لشهرها، وإذا بالجمعية تتلقى خطاباً من إدارة مكافحة جرائم الآداب العامة ترفض قيام هذه الجمعية! ودُهشت عضوات الجمعية، ما علاقة بوليس الآداب بجمعية هدفها المساهمة في رفع المستوى الاجتماعي والثقافي للمرأة في مختلف المجالات وربط مشاكلها بمشاكل المجتمع، وفتح مجالات جديدة أمام المرأة في العمل، وتنمية الشخصية الأصلية للمرأة المصرية؟!

هل الحديث عن الحرية قلة أدب؟! هل الكلام عن الديمقراطية عمل فاضح في الطريق العام؟! هل مطالبة المرأة بمزاولة حقها الانتخابي قلة حياء؟! نفهم أن يكون عمل بوليس الآداب محاربة الفساد؟ ولكن ما علاقة بوليس الآداب بأساتذة الجامعة والمتقفات والمؤلفات والشاعرات؟ أي شيء في أهداف الجمعية فيه قلة أدب أو قلة حياء؟

إن رئيسة الجمعية هي الدكتورة نوال السعداوي الكاتبة المعروفة وصاحبة المؤلفات العديدة التي تُرجمت إلى عدة لغات، وأخر كتاب لها هو «الإنسان»، اثنتا عشرة امرأة في زنازاة واحدة، وهو مُهدى «إلى كل من عرف القهر في البيت أو في السجن»، وهي رواية عن حياة ١٢ سيدة قبض عليهن في ٥ سبتمبر سنة ١٩٨١ بتهمة أنهن خصوم الحكومة! وبينهن عدد من أبرز أساتذة الجامعة ومدرساتها والصحفيات والكاتبات.

فهل اعتبر بوليس الآداب أن هذا الكلام قلة أدب وقلة حياء ولهذا رفض أن تكون جمعية رئيستها مثل هذه الدكتورة طويلة اللسان؟! وسكرتيرة الجمعية هي الدكتورة منى أبو سنّة الأستاذ بكلية التربية بجامعة عين شمس. ومن أعضاء الجمعية الدكتورة لطيفة الزيات، والدكتورة ليلى عنان،

أوراقى ... حياتى (الجزء الثالث)

والدُّكتورَة عواطف عبد الرحمن، والدُّكتورَة عفاف محفوظ، وإنجى رشدي
المحررة بالأهرام، وعائشة أبو النور الكاتبة بأخبار اليوم، والأستاذات عطيات
الأبنودى وشهيرة محرز ومنى حلمي والدُّكتورَة سهى عبد القادر ...
يقولون إن الدَّولة تُحيل كل شيء يتعلق بالمرأة إلى بوليس الآداب.
وإذا كان هذا صحيحًا، فهذا أمر لا يمكن السكوت عليه في الوقت الذي
أصبح في مصر وزيرات وسفيرات ووكيلات وزارات وعضوات في مجلس الشَّعب!
صدق ... أو لا تصدق!

مصطفى أمين

وفي جريدة الشَّعب الناطقة في ذلك الوقت بلسان حزب العمل الاشتراكي، كتب فتحي
رضوان من أكبر رجال السِّياسة في مصر يقول في ٢٢ نوفمبر ١٩٨٣ تحت عنوان:

دولتنا بوليسية

تفضلت الأديبة الكاتبة الدُّكتورَة نوال السعداوي، فأطلعتني على خطاب أرسل
إليها من السَّيِّد المدير العام للمكتب الفني بالإدارة الاجتماعية بالوإيلي بمنطقة
القاهرة، مؤرخ في ١٩٨٢/٨/٩ يتضمن قرارًا صادرًا من سيادته يقتضي
برفض عدم إشهار جمعية «تضامن المرأة»، وقد ذكر الخطاب المشار إليه كجزء
من قرار الرفض ومسبب له ما نصه: عدم موافقة مباحث أمن الدَّولة.

والحق أنني تولَّاني عجب لا نهاية له من أن إدارة من إدارات الحكومة، لا
تجد حَرَجًا في أن تُعلن ببساطة أنها تعمل لحساب مباحث أمن الدَّولة، وأنها
تتلقى صراحة أوامر وتوجيهات من هذه المباحث فتعمل بها وتطيعها، وتعلن
للناس ذلك؛ أي تعلن للناس أنها لا تجد بأسًا في أن تكون ذيلًا لإدارة مباحث
أمن الدَّولة المكونة لجهاز أكبر كثيرًا وأضخم، وهو جهاز الدَّولة الشَّامل العظيم؛
ومن ثم فإن هذا الجهاز الجزئي، مهما بلغ من خوف النَّاس منه وخشيتهم من
قدرته على إيذائهم، ولا سيما في ظل قوانين الطوارئ، إلا أنه ليس سيد الحكومة،
ولا صاحب الأمر والنهي فيها.

فإذا كانت وزارة الشُّئون الاجتماعية قد قبلت أن تخضع في المسائل الخاصَّة
بتأليف جمعيات لتوجيهات إدارة مباحث أمن الدَّولة وأن تتلقى الأوامر منها

فتطيع وتنفذ الأمر، وكأن هذه الوزارة عسكري من عساكر الشرطة، يُوجّه فيتّجه ويؤمّر فيُدْعَن؛ فقد كان ممكناً أن يتمّ هذا الأسلوب من الخضوع والطاعة، في تسترّ؛ فرسول الله ﷺ قال لنا: «إذا بليتُم بِالْمَعاصي فاستبرّوا»، والسترّ الذي نريد أن نسدله على الوزارة، يقتضيها أن تتلقّى خطابات إدارة مباحث الأمن، فتنفذ ما جاء فيها وتتحمّل مسؤولية القرار الذي أصدرته إدارة المباحث دون أن تُعلن أنها تلقّت هذا الأمر، تلقت الخطاب الصادر من الوزارة إلى الجمهور المتعامل بوضع هذا الاعتراف المؤذي في صدر هذا الخطاب؛ فيعرف الناس جميعاً أن حكومتنا هي حكومة بوليسية، وأن صاحب السُلطة الحقيقية في تصريف البلاد هو مُخبر المباحث الذي يكتب التقرير لإدارة المباحث التابع لها، مقترِحاً عدم التصريح بتأليف تكوين الجمعية التي يطُلب تشكيلها عددٌ من أفاضل أساتذة الجامعة أو عددٌ من أفاضل السّيّدات والكاتبات وصاحبات الرأي ممّن لهن عددٌ ضخم من التلاميذ والمريدين؛ بدعوى أن هذه الجمعية جمعية شيوعية. والحكومة البوليسية هي حكومة مكروهة من العالم كله، وبعض الحكومات البوليسية تُخفي «بوليسيتها» تحت ستارٍ من المدنية والسريّة، ولا تفعل ما تفعله وزارة الشئون الاجتماعية علناً وبلا خجل.

فقد سبق أن أخبرني وكيل تعليم من كليات الجامعات أنه فكّر وعددٌ من زملائه الأساتذة في تأليف جمعية الدفاع عن حقوق الإنسان في إحدى عواصم الصعيد؛ فجاءهم خطاب مماثل تماماً للخطاب الذي وصل السّيّدات اللواتي فكّرن في تكوين جمعية تضامن المرأة.

والمؤسف حقاً أن هذا التصرف الذي يصدر من وزارة ترأسها أستاذة للقانون هي الدكتورّة أمال عثمان، وهي بحكم ثقافتها، ومهنتها وعلمها، تعرف الحكومة البوليسية، تعرف ما يقوله وقاله علماء القانون في استهجانها، والدعوة إلى وضع حد لخصائصها في كل بلد.

والطريف الذي يحول الأمر، في موضوع دَس المباحث أنفها في نشاط الوزارات والمصالح الحكومية، إلى مهزلة مُبكيّة ومأساة مُضحكة، أن طلب وزارة الشئون الاجتماعية يقول: إن اقتراح منع التصريح بتكوين جمعية تضامن المرأة،

صدر من إدارة البحث الجنائى لمكافحة جرائم الآداب العامة ... ومعنى ذلك بعبارة واضحة أن تصنيف النشاط الاجتماعى فى وزارة الشؤون الاجتماعية أضاف تأليف الجمعيات إلى إدارة تكافح الانحطاط الخلقى، وترويج الفاحشة والعمل على ممارستها، وهو شىء آخر يُرِينا العقلية التى يُحكم بها على نشاط أصحاب الرأي والراغبين فى الخدمة.

فبماذا ننصح السيدات اللواتى أردن أن يدافعن عن حقوق المرأة التى هي فرع أو ربما أصل لحقوق الإنسانية؟! أننصحهن بالكف عن هذه المحاولة الشريفة السامية، وأن يدَعْنَ مجتمعنا بلا محاولة لرفع مستواه؟! أم ننصحهن بإنشاء جمعياتهن دون مراعاة قواعد القانون التى تُحتم على من تسوّل له نفسه تكوين جمعية أن يعرض أمره على إدارة تكافح عيوب الآداب وأفاتها؟

إنه مُصاب يُبكي ويُضحك، ولكن لا نجد له حلاً، إلا أن ندعو الله أن يأخذ بيد هذا البلد، وأن نقول للسيدة أمال عثمان وزيرة الشؤون الاجتماعية إنها لا تخدم السيد اللواء حسن أبو باشا الوزير المشرف على إدارة مكافحة جرائم الآداب العامة، ولا تتلقى منه الأوامر، بل إنها لا تخدم السيد رئيس الجمهورية، إنما هي تخدم القانون الذى تعلّمته وأصبحت أستاذة فيه، وبفضل هذه الأستاذية اختيرت للوزارة، وأنها بسبب تبعيتها للقانون وانتسابها إلى أسرته يجب أن تراجع قواعد وأساليب العمل فى وزارتها لتمنع صدور خطاب بهذه الصورة المؤذية الجارحة التى نقلنا صيغتها بالحرف الواحد، ولنمنع من باب أولى، صدور قرار مؤسف محزن كالقرار المانع من تكوين جمعية تضامن المرأة.

فتحي رضوان

وفى جريدة الجمهورية، وهى من أكبر الصحف الحكومية فى مصر، كتب صلاح حافظ فى ٨ ديسمبر ١٩٨٣ مقالاً شديد اللهجة ضد منطق أمال عثمان وزيرة الشؤون الاجتماعية، واعتبر خطابها الرسمى إلينا فضيحة للحكومة المصرية، وأنه لا يزال على مكتبه يلوّثه.

وكتب صلاح حافظ يقول بالحرف الواحد:

نعم تلوثه!

فلا شيء ينقض الموضوع في اعتقادي قَدْر ما تنقضه ورقة تقول لنساءٍ يُعْلَمَنَّ
أولادنا في الجامعة: أَلْحُنَا أَمْرُكُنَّ إِلَى بوليس الآداب!

ولا شيء يهين مصر، ويلوثها، ويمتهن ثقافتها وحضارتها، ويشهر بها في
العالم كله ... مثل ما يفعله قرار مختوم بختم الدولة يعترف بأن الجهة المختصة
بالتعامل مع الأساتذة والمديرات والكاتبات في مصر هي بوليس الآداب! صحيح
أن في مصر عقولاً ومنظمات تعتبر مجرد تعليم المرأة فسقاً ودعارة، مجرد
وجودها في حقل العمل ضلالة وانحلالاً؛ لكن الدولة لا تكف في دعايتها عن
اتهام هؤلاء الناس بالجهل والضلال، فما بالها تتبنى نفس أفكارهم، وتجعل
التعامل مع المثقفات والرائدات من اختصاص البوليس المتخصص في مقاومة
الفسق والدعارة؟!!

هل تسلت هذه العقول، وتلك المنظمات، إلى داخل جهاز الدولة؟ وهل
سيطرت إلى الحد الذي جعل الثقافة والدعارة في بلادنا وَجْهَيْنِ لعملةٍ واحدة،
حسابها ورصيدا عند بوليس الآداب؟
كنت أتصور حتى الآن أن الرأي في شئون الجمعيات الثقافية للجهات
الثقافية في الدولة.

لقد تخلفنا كثيراً فيما يبدو، دون أن نشعر.

ولن ينقذنا من هذا التخلف إلا أن ننسى بعض الوقت الذين يشهرون بنا في
الخارج، وملتفت بعض الوقت إلى الذين يشهرون بنا في الداخل.
الذين يُلطِّخون وجه مصر على راحتهم، ويزينون اللطخ بالتوقيعات وختم
النسر، ويقدمون للعالم كلها وثائق تثبت أننا قوم نكره الثقافة كراهية الدعارة،
ولا نميز بينهما.
ومتى؟!!

على مشارف القرن الواحد والعشرين، وبعد سبعة آلاف سنة من حضارة
نفاخر بها العالم الذي نزعم أننا نحن الذين علمناه ورَبَّيْنَاهُ!
تخلصوا من هؤلاء يا سادة.

وثُقُوا أَنَّ مصرَ بعدَهُم ستستعيد ريادةَها، وقيادتها، ودورها الحَسينَ في العالم، وأنها ستقهر كل الصعاب التي تواجهها.
فالمشكلة ليست عجزَ مصر وإنما إجهاض حماس شعبها، وقدرته الخَلَّاقة، وفرض التَّخلف عليها فرضًا بأمثال هذه النظم التي لا تطالب راقصات الهرم إلا بدفع الضرائب بينما تُحيل الكاتبات وأساتذة الجامعات إلى بوليس الأداب!

امتدت الحملة الصَّحفيَّة ضد أمال عثمان وزيرة الشُّئون الاجتماعيَّة ضد الحكومة المصريَّة منذ ديسمبر ١٩٨٣ حتى نهاية عام ١٩٨٤. هكذا اضْطُرَّت أمال عثمان أن تعترفَ بشريَّة جمعيَّة تضامن المرأة العربيَّة، وجاءنا الخطابُ الرسمي من وزارة الشُّئون الاجتماعيَّة في ٧ يناير ١٩٨٥ يقرُّ الموافقة على تسجيل الجمعيَّة.

بعد خمسة شهور فقط التقيت بأمال عثمان وجهًا لوجه في مؤتمر المرأة العالمي، الذي عُقد في مدينة نيروبي عاصمة كينيا في يونيو ١٩٨٥، رمقتني بنظرة حمراء، أدركتُ أنها تُكِنُّ لي كراهية مكبوتة، وأنها لن تتوانى عن توجيه ضربة إليَّ عاجلاً أم آجلاً، في الظَّهر أو في البطن. كانت تُسرِّع الخطى لتلحق بموكب السيِّدة حرم الرِّئيس. وفي المساء أقامت أمال عثمان حفل عشاء كبيراً للسيدة حرم الرِّئيس دعت إليه جميع النِّساء المصريَّات المشاركة في المؤتمر، لم أذهب إلى الحفل وأثرت أن أقرأ في سريري روايةً دنماركيَّة جديدة عن مصر القديمة، وفي نيروبي آثرت أن أنام بعد يوم طويل حافل بالعمل واللقاءات مع أعداد كبيرة من نساء العالم.

صديقتي بطة (الدُّكتورة كاميليا) كانت إحدى المشاركات في مؤتمر نيروبي، رأيتهَا في قاعة كينيَّاتا تُهرول فوق كعبها العالي وراء أمال عثمان من أجل اللحاق بموكب السيِّدة حرم الرِّئيس، وذهبت بطة إلى حفل العشاء تلك الليلة، وفي الصباح الباكر جاءت إلى غرفتي بالفندق.

مش معقول يا نوال اللي بتعمليه ده! ليه ماجيتيش الحفلة؟ كلهم راحوا إلا إنتي؟ مش كفاية اللي عملوه فيكي؟! عاوزاهم يقفلوا الجمعيَّة بتاعتك؟! أنا بصراحة يا نوال باخاف أقول إنك صاحبتى وإلا رقدوني من شغلي! ثم كركرت بطة بضحكتها الطويلة المتقطعة، ضحككُ معها ثم قلت: لا يمكن يرفدوكي يا بطة عندك حصانة عائليَّة برلمانية. أطلقت بطة ضحكة أخرى وقال: وعندي حصانة دبلوماسيَّة كمان أمال خيَّبانة زيك يا ست نوال؟! ظلت وزيرة الشُّئون الاجتماعيَّة على عدائها لجمعيَّة تضامن المرأة العربيَّة، ومع أجهزة الحكومة والأمن، وبعض النِّساء شجعتهن الوزيرة على تكوين جمعيَّة جديدة للمرأة. لجأت

الحكومة إلى مبدأ فَرَّقْ نَسُدْ، امتلأت السَّاحة المصريَّة بالجمعيات النسائيَّة، كل أربع أو خمس نساء يُشكلن جمعية أو مركزًا أو رابطة أو شركة مساهمة أو أي شيء، المهم أن تتعدد الفِرق ويضرب بعضها بعضًا، تتنافس أيها تقترب أكثر من دوائر السلطة والمال والنفوذ.

لم تدخل جمعية تضامن المرأة العربية في هذا الصِّراع بين النساء، لكن وزارة الشُّئون الاجتماعيَّة لم تكفَّ عن مطاردة الجمعِيَّة ومعها وزارة الدَّاخلية، أجهزة الأمن والمباحث كانت تتربَّص، تطارد العضوات في أماكن العمل والبيوت، تسلَّط عليهن صحف الجماعات الإسلاميَّة والإرهابيَّة، التابعة للحكومة. بدأنا نقرأ هجومًا في تلك الصُّحف على أنشطة الجمعِيَّة، تحت المانشتات الكبيرة الحمراء والسوداء، بدأنا نقرأ عناوين من نوع: جمعية نوال السعداوي الكافرة تنظم مؤتمرات ضد الأخلاق والتراث، جمعية تضامن المرأة العربية مأجورة لهدم الإسلام والآداب العامة.

في ٢٢ مارس ١٩٩٠ عقدت جمعية تضامن المرأة العربية اجتماعًا كبيرًا من أجل الوحدة الوطنية، كانت أحداث القتل الإرهابية تغتال الأبرياء في صعيد مصر، ثم وقعت أحداث أبو قرقاص بالمنيا، وبدأت الفتنة الطائفية تهدد بلادنا. ثم عقدت الجمعِيَّة اجتماعًا آخر كبيرًا ليلة الخميس ٢٩ مارس ١٩٩٠، زاد عدد المشاركين في الاجتماع عن المائة، كونوا جميعًا الهيئة التأسيسِيَّة للجنة المصريَّة للدفاع عن الوحدة الوطنية. في الاجتماع الثَّالث ليلة ٥ إبريل ١٩٩٠ بلغ أعضاء الهيئة التأسيسية مائة وتسعة وأربعين عضوًا وعضوة من مختلف التيارات السِّياسيَّة أو المدارس الفكريَّة في مصر، أجمعوا على ضرورة العمل المتواصل لإخماد الفتنة الطائفية وتوحيد الشَّعب المصري نساءً ورجالًا.

هنا أدركت الحكومة خطر جمعية تضامن المرأة العربية، هنا بدأت الحرب الضاربة ضد الجمعِيَّة وضد عضواتها، على رأسهم بطبيعة الحال رئيسة الجمعِيَّة نوال السعداوي. بدأت وزارة الشُّئون الاجتماعيَّة مع وزارة الدَّاخلية إيفاد المراقبين والمفتشين ورجال المباحث إلى أي اجتماع تعقده الجمعِيَّة. اشتدت الحملة في صحف الحكومة والصُّحف الإسلاميَّة ضد الجمعِيَّة الكافرة ورئيستها الزنديقة التي لا تحترم القيم أو الآداب العامة.

ثم قامت حرب الخليج في يناير ١٩٩١، حرب أخرى جديدة في سلسلة الحروب المتعاقبة منذ نشوء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، محاولة كبرى من جانب الثالوث القديم، أو الحلفاء الأربعة ضد العالم العربي، الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا وإسرائيل، وزاد عددهم إلى ثلاثين جيشًا مسلحين بالقنابل الليزر، ضربوا بغداد ليلة ١٦ يناير ١٩٩١.

احترقت بغداد، مات نصف مليون من النساء والأطفال والشباب، وحتى اليوم ونحن في يونيو عام ٢٠٠٠ لا يزال الشعب العراقي تحت الحصار، يموت فيه كل يوم آلاف الأطفال دون دواء، دون طعام.

إنها حرب النفط الثأنية بعد حرب ١٩٧٣، إنه الاستعمار القديم يرتدي حذاءً جديدًا يسميه النظام العالمي الجديد، ويدوس به على أرواح الشعوب من أجل البترول وتنشيط تجارة الأسلحة، وفتح أسواق جديدة في بلاد ما يُسمى العالم الثالث.

النساء والفقراء هم العملة الرخيصة في الحروب والأزمات، أول من يدفع وآخر من يأخذ، سُنَّة القانون الطبقي الأبوي الذي يحكم عالمنا الحديث وما بعد الحديث.

أرادت الولايات المتحدة أن تستخدم في حرب الخليج بعض الجيوش العربية كنوع من الغطاء، كنوع من التمويه يحدث دائمًا في كل الحروب، هكذا دخل الجيش المصري والجيش السوري الحرب ضد العراق تحت لواء الجيش الأمريكي وجيوش الحلفاء الثلاثين.

– الحلفاء!؟

في طفولتي سمعت أبي ينطق كلمة الحلفاء بطرف لسانه، يُلْفِظُهَا كأنها هي بَصَقَةٌ، الحلفاء يا ابنتي هم الأعداء، يتخفَى العدو تحت اسم الصديق، ماذا نفعل يا ابنتي؟! ضحكنا حين سمعنا الإذاعات تقول بصوت السادات عام ١٩٧٦ صديقي كارتر، ثم ضحكنا حين رددت الإذاعات هذه العبارات عام ١٩٩١ مع تغير الأسماء.

وتجمعت النساء العربيات من خمس عشرة دولة عربية في مؤتمر جمعية تضامن المرأة العربية خلال الفترة من ٤-٧ سبتمبر ١٩٩٠، أصدرت النساء المجتمعات بيانًا ضد غزو العراق للكويت، وضد قيام حرب الخليج العسكرية، وتم تشكيل لجنة من النساء للعمل على منع الحرب وحل الأزمة بالطرق السلمية.

هنا انتهزت وزارة الشؤون الاجتماعية الفرصة لتوجيه ضربتها إلى الجمعية، صدر قرار أمال عثمان وزيرة الشؤون الاجتماعية بإغلاق جمعية تضامن المرأة العربية، ومصادرة أموالها وتحويلها إلى جمعية أخرى اسمها نساء الإسلام. صدر هذا القرار غير القانوني في ١٥ يونيو ١٩٩١، بدأت حملة في الصحف الحكومية والإسلامية التابعة لها لتشويه سمعة الجمعية المأجورة الخائنة للوطن، وسمعة رئيستها نوال السعداوي المعادية للإسلام والآداب العامة ومصالح الوطن الكبرى.

لم يصدق أحد هذه الحملة، وبدأت بعض الأعلام تعارض قرار وزيرة الشؤون، الذي أصدره نيابة عنها نائب محافظ القاهرة.

في ٢١ يوليو ١٩٩١ بجريدة الأخبار كتب مصطفى أمين في عموده اليومي بعنوان «فكرة» ما يلي:

في يوم ١٥ يونيو ١٩٩١ أصدر نائب محافظ القاهرة لمنطقة غرب القاهرة قراراً بحل جمعية لتضامن المرأة العربية.

ونحن نشجع قيام الجمعيات في بلادنا، وندعش لأنَّ نائب المحافظ يغلق جمعية لتضامن المرأة العربيَّة وينقل أموالها إلى جمعية أخرى بغير أن يذكر سبب هذا الإغلاق.

والذي نعرفه أن هذه الجمعية قامت منذ سنوات طويلة ... منذ إنشائها وهي تلقى المعاكسات، بالرغم من أن الدكتور محمود شريف وزير الحكم المحلي ألقى محاضرة في هذه الجمعية وفي الوقت نفسه صدر قرار يحظر على الجمعيات بدائرة غرب القاهرة أن تجادل في (الأمر السَّياسِيَّة) ولا نعرف مثل هذا القرار في أي بلد ديموقراطي، وقد عشنا طوال عمرنا نرى نقابة المحامين ونقابة الأطباء وغيرهما من الجمعيات والنقابات تشغل بالسَّياسة، وفي ثورة ١٩١٩ كانت جمعية المرأة الجديدة تصدر قرارات تهاجم الاحتلال ولم يحلَّها الإنجليز.

إننا ندعش أن تحل جمعية بغير تحقيق، وبغير أن يوجه إليها تنبيه إذا أخطأت.

نفهم أن تحل جمعية بسبب الآداب العامة، أو لأنها تدعو إلى قلب نظام الحكم بالقوة، ولكن لا نفهم أن تحل جمعية لأن رئيستها أو أحد أعضائها يعارض الحكومة، وخاصة أن رئيسة هذه الجمعية الدكتورة نوال السعداوي كانت تُلقِي الخُطْب والمحاضرات علناً تعارض فيها سياسة الحكومة، وكانت الصُّحف العالمية تعتبر هذه المعارضة دليلاً على أن في مصر ديموقراطية تسمح بحرية الرأي.

هذا القرار أزعج كثيراً من الجمعيات؛ فإذا اعترضت جمعية ما على حالة التَّموين في البلاد فهذا تدخل في السَّياسة! وإذا طالبت جمعية بالإكثار من زراعة البُرسيم فهذا تدخل في السَّياسة! وإذا طالبت جمعية بمنع استيراد الحَمِير إلى مصر فهذه سياسة! بل صميم السَّياسة. كل شيء في البلد سياسة؛ ولهذا فمن واجب كل الجمعيات في مصر أن تسأل ما هي حدود السَّياسة المسموح بها.

إنَّ الذِّينَ أصدرُوا هذا القرار لم يعلموا حتَّى الآن أن فى مصر ديموقراطية.

مصطفى أمين

وفى ٣١ يوليو كتب فليب جلاب رئيس تحرير جريدة الأهالى يقول تحت عنوان: وزارة الشئون و«الحلفاء» الرأشدون:

لا يستطيع أحد مهما بلغت جرأته على الحق أن يقنعنا بأى فى مصر حكومة واحدة.

لدينا حكومة تتحدث عن الانفتاح والتعددية والشريعة، ولدينا حكومة أو حكومات أخرى تعتقد أن أعظم مظاهر الديمقراطية والتعددية والشريعة هي تطبيق القانون العثماني أو على أحسن الفروض مبادئ الحكم المملوكي. ولا يستطيع أحد أن يشكل جمعية لممارسة أى نشاط اجتماعي (دع من النشاط السياسي) إلا بعد إجراءاتٍ وتحرياتٍ تستدعي تدخل الأمم المتحدة وربما قوات «الحلفاء» الرأشدين لدى صاحبة العظمة وزارة الشئون الاجتماعية. ويبدو أن الوزارة وافقت فى ظروف دولية غير مؤاتية على تسجيل جمعية تضامن المرأة (المصرية) كما سجلت إدارة الهيئات الدولية بوزارة الخارجية المصرية جمعية أخرى دولية بنفس الاسم ذات وضع استشاري فى المجلس الاقتصادي الاجتماعي بالأمم المتحدة.

وما إن بدأت تباشير النظام العالمي الجديد حتى رأت وزارة الشئون الاجتماعية والسيد نائب محافظ القاهرة للمنطقة الغربية أن الفرصة أصبحت مؤاتية لتأديب رئيسة الجمعية المصرية الدكتور نوال السعداوي، والخلط بين الجمعيتين ومصادرة ممتلكاتهما وتسليمهما إلى «محتسب» موظف فى وزارة الشئون يرأس هو نفسه جمعية نسائية، مع الاحتفاظ له شخصياً بعشرة فى المائة من هذه الممتلكات جزاء المشقة التي سيعانها فى عملية الاستيلاء على أموال الغير.

ونشر نائب المحافظ بياناً يعتمد فيه على بلاغ لسيدة تزعم فيه أن الجمعية المصرية تحتفظ فى بنك مصري بأموال أخرى لم تبلغ عنها، وهي فى الحقيقة أموال الجمعية الدولية، وزعم المسئول أنه راجع وزارة الخارجية فأبلغته أنها

لا تعرف شيئاً عن الجمعية الدولية، مع أن لها ملفاً منذ تسجيلها في الأمم المتحدة. والمدهش هو أن رجالاً مسئولين يعتقدون أن من يريد إخفاء أموال عن مراقبة وزارة الشؤون الاجتماعية يقوم بإيداعها في بنك مصري باسم الجمعية في عاصمة مصر، مع أن تهريب مثل هذه الأموال يمكن أن يتم بغاية اليسر إلى بنوك في الخارج لو كان لما يزيد على ١٠٠ مليار دولار في الخارج، والأكثر إثارة للدهشة هو أن السيد نائب المحافظ استفسر عن حقيقة الجمعية في وزارة الخارجية؛ فعرف منها أنه ليست هناك جمعية بهذا الاسم رغم الوثائق الرسمية التي تقدمها الدكتورة نوال السعداوي.

ولما كان من المستحيل أن تجهل إدارة الهيئات الدولية بوزارة الخارجية المصرية اسم جمعية دولية ذات ملف رسمي لديها؛ فقد يكون سؤال محافظ القاهرة عن طريق الخطابات الرسمية المعروفة قد وُجّه إلى وزارة أخرى أو ربما لوزارة الخارجية في عاصمة أخرى ... أو ربما لم يستدل مندوب المحافظة على عنوان وزارة الخارجية كما حدث منذ أسبوعين عندما سجّل أحد «المحضرين» على إنذار موجّه لوزارة الصناعة لتنفيذ حكم لصالح عمال المحلة، بأنه لم يستدل على عنوان وزارة الصناعة بالقاهرة.

وهكذا استطاعت وزارة الشؤون مع السيد نائب المحافظ أن يعيدا إلى ذاكرة المصريين والقاهرة بعض تقاليد مصر الزاهرة في عصور العثمانيين والمماليك حتى لا يتوهم أحد أن مبادئنا السياسية والاجتماعية تنبع من خارج بلادنا في قضية إنشاء الجمعيات بالذات.

وهذا عمل من جلائل الأعمال يمكن أن يبعد الناس — ولو لأيام معدودة — عن مناقشة أمور كئيبة مثل الارتفاع الصاروخي للأسعار وضرية الرأس (أو المبيعات) وما يتعرّض له العرب من الخليج إلى المحيط دون استثناء، من إنزال وإهانة لم يسبق لهما مثل.

وفي جريدة الأخبار يوم ١٧ أغسطس ١٩٩١ كتب صلاح حافظ تحت عنوان: وزارة «الجماعات»:

عندي «للإسلاميين» في مصر خبر سعيد:

وزارة الشؤون الاجتماعية قررت أن تنوب عنهم، وتنفذ برنامجهم، دون ما حاجة إلى استيلائهم على الحكم!

وقد اختارت الوزارة أن تبشّر الأمة المصريّة بهذا الفتح العظيم منذ حوالي أسبوعين، وبدأت بقرار لن يصدقه القارئ، وإن كنت أقسم بالله العظيم ثلاثاً أنه صدر.

موضوع القرار جمعية اسمها «تضامن المرأة المصريّة».

وهي جمعية ترأسها الطبيبة الكاتبة الأدبية نوال السعداوى، ولا أحد يجهل من هي نوال السعداوى. وهذه الجمعيتّة تعمل في مصر منذ سنوات ولها مقر، ولها صفة اعتبارية؛ بناءً على قرار صادر من وزارة الشئون الاجتماعية. لكن شيئاً ما حدث فجأة في الوزارة.

شخص ما في الوزارة لم تُعدّ تروق له هذه الجمعيتّة، وقد يكون السبب أنه يكره النساء المتدمات، أو أن زوجته التحقت بالجمعيتّة وعادت تناقشه بلهجة لم يألّفها، أو أنه مستول عن مراجعة حسابات آلاف من الجمعيات ... ويريد أن يختصر العدد، أو أن السيّد البدوي زاره في المنام وأركبه حصاناً أبيض، وقال له «فم واشطب هذه الجمعيتّة».

المهم على أية حال، هو أنه فعل.

وفي الصّباح التّالي صدر قرار من الدُّكتورة أمال عثمان المثلة للمرأة في مجلس الوزراء، بإلغاء جمعية «تضامن المرأة المصريّة». ولم يكن في القرار أسباب؛ لأن القوانين في مصر لا تُلزم صاحب أي قرار بأن يشرح أسبابه.

لكن هذا لا يهم.

إنّما المهم أن القرار فرّض على الجمعيتّة أن تُسلّم بيتها، وأدواتها وأموالها، لجمعية أخرى في ضاحية المعادي، اسمها «جمعية نساء الإسلام»! وهذا هو ما يستحق أن نتوقف عنده.

فجمعية «نساء الإسلام» هذه بحكم اسمها جمعية للمسلمات فقط ... والجمعيتّة التي تقرر حلها لكل المصريّات؛ فكيف تُسلّم جمعيتّة قومية ممتلكاتها وفلوس عضواتها لجمعية لا تقبل في عضويتها غير فريق المسلمات!

وإذا كانت جمعيتّة نوال السعداوى ضارّة، وغير مرغوب فيها ونخشى إذا تركناها أن تلوث البيئّة، أو تثير حرباً عالمية ثالثة، فلمَ لا تُحلّ وتُتولّ أموالها لى أعضائها، وما معنى اغتصاب ممتلكاتها كما فعل صدام حسين بالكويت؟!

إن شيئاً كهذا لا يمكن أن يحدث في بلد متحضر. وأمام القضاء المصري الآن دعوى رفعتها هذه الجمعية وستكسبها؛ لأن القضاء المصري لا يزال متحضرًا والحمد لله. لكن ما يهمننا هو السؤال الخطير: من الذي قرر حين رأت الوزارة حل الجمعية أن تلتهم فلوستها جمعية دينية؟ قيل لي عندما سألت: إن المسألة أبسط كثيراً مما توهمت، وإن الرجل المكلف بتصفية جمعية نوال السعداوي كان بالصدفة الرجل الذي أسس جمعية نساء الإسلام؛ فاختار على سبيل الكسل أن يضم الجمعية المحلولة إلى الجمعية التي أسسها.

وفي اعتقادي أن هذا عذر أقبح من الذنب. فمعناه أن مصائر الجمعيات في بلادنا أصبحت رهناً بمدى راحة بعض الصغار، من كبار الموظفين في أجهزة الدولة، وأن حكومتنا لم تدرك بعد — برغم آلاف الدروس — أهمية الجمعيات الأهلية في بناء المجتمع والنظام، وأنها بإهدار كرامة العمل الاجتماعي الأهلي تُنهي إلى الأبد إمكان التوحد ما بين الناس ونظام الحكم، وتلغي المبادرة الشعبية، والإرادة الجماهيرية، وكل ابتكار يمكن أن يساند أجهزة البيروقراطية البلهاء المتعفنة. ثم يبقى بعد ذلك السؤال ...

من الذي أصبح يحكم هذه الأجهزة البلهاء ... إلى أي مدى أصبحت تديرها «الجماعات» وهو سؤالٌ أشفق على الدكتورة أمال عثمان من مواجهته؛ لكنني أدعوها أن تفعل.

فهي بالنسبة لي نموذج لنجاح المرأة في المناصب الكبرى، ونجاحها يُنصف موقفي من المرأة عموماً، وسيؤلمني كثيراً أن تقفل عينها عن مثل هذه الفضيحة في وزارتها، وأن يخرج علينا غداً من يُعيرنا قائلاً: هذه وزيرتكم ضحكوا عليها، ولا يُفلح قومٌ ولّوا أمورهم امرأة!

مع خالص حبي، وتأييدي واحترامي للدكتورة أمال عثمان!

صلاح حافظ

لم تسفر هذه الحملة الصحفية عن شيء، كما أن القضية العاجلة التي رفعناها بالمحكمة الإدارية لم تسفر عن شيء؛ لقد قررت الحكومة المصرية إغلاق جمعية تضامن المرأة العربية، وكانت وزيرة الشؤون الاجتماعية أمال عثمان تنتظر هذه الفرصة منذ أصدرت قرارها بتسجيل الجمعية عام ١٩٨٥.

لم تدخل صديقتى سامية تضامن المرأة منذ إنشائها، لم تكن تؤمن بتضامن النساء داخل تنظيم خاص بهن، فقط تؤمن بالحزب السياسي ومشاكل العمال والفلاحين. ثم تغيرت سامية وأصبحت ترأس جمعية نسائية وتحدث عن النظام الأبوي والختان والعنف ضد النساء حتى حصولها على وسام الختان. ثم سرعان ما انقلبت على نفسها حين تغيرت موازين الحكومة، وبدأت تعلن أنها لم تتكلم على الختان أو ذلك الشيء الهامشي في حياة النساء وهو الجنس، إنها فقط معنية بمشكلات الفقر ومحو الأمية بين النساء.

أصبحت هذه هي النعمة الجديدة السائدة في مصر خلال هذا العام ٢٠٠٠، أصبحت زعيمات الجمعيات النسائية يُهزولنَ إلى مؤتمرات المرأة، ينطقن كلمة «الفقر» بالطريقة ذاتها التي تنطقها الحكومة، وفي المساء يحضرن حفل العشاء الفاخر على ضفاف النيل، تلتهم الواحدة منهن فخذة خروف مشوية، مع رشفات من الكأس البلوري، وترن كلمة «الفقر» في الجو عارية كالعورة.

وفي أغسطس ١٩٩٧ بعد عودتي من المنفى، كنت أسير في شارع قصر العيني حين التقيت وجهاً لوجه بصديقتى سامية. كانت واقفة عند ناصية الشارع، حيث كانت تعمل في الصيدلية القديمة هي وزوجها رفاعة. اختفت الصيدلية وانتصب مكانها مبنى كبير تعلوه يافطة لامعة: الشركة التجارية العالمية، مكتب الاستيراد والتصدير. وأدركت أن سامية أصبحت تملك شركة خاصة مع زوجها، أصبح الاثنان من كبار رجال الأعمال في مصر، يتاجران بالعقاقير والكيماويات وحبوب منع الحمل، وحبوب إعادة الشباب وتنشيط القوى الجنسية لدى الرجال، ومنها حبوب الفياجرا وحبوب جديدة لم تنزل السوق بعد.

– خلاص يا سامية بقينا نعيش في دولة رجال الأعمال؟!

– ونساء الأعمال يا نوال، يعني نسيب الرجالة ياخدوا كل حاجة؟! لازم يكون فيه

مساواة! واحنا في عصر العولمة، العالم كله مع العولمة إلا أنت يا عزيزتي!

ضحكت سامية ضحكة قصيرة ساخرة، ثم مطّ شفتيها الرفيعتين، وقالت: أنا شركتي صغيرة بالنسبة لشركة صاحبتك بطة، عارفة رأسمالها كام؟! وكمان جوزي رفاة مشاركني فيها، لكن بطة عاملة شركة لوحدها وجوزها حمدي عنده شركة لوحده.

- وبطة تتاجر في إيه يا سامية، حبوب الفياجرا برضه؟!

- الفياجرا سوقها واقف يا نوال، رجل عجوز عنده تسعين سنة بلع الحبوب ومات بالسكتة القلبية، اسمه معروف، كتبت عنه الصُحف، ومن يومها حصل هبوط كبير في المبيعات.

- بطة أخبارها إيه؟ بتشوفيها يا سامية؟

- طبعًا، بنتقابل دائمًا في مؤتمرات رجال ونساء الأعمال مع الوزراء والمسئولين، لكن بطة من نساء الأعمال الشاطرين أوي يا نوال.

- تتاجر في إيه يا سامية؟

- عاملة مصنع كبير لملاص المحجبات، شوبينج سنتر كبير في الدقي للزي الإسلامي والجلاليب الفلاحي والقلل والفخار والتحف والآثار القديمة، وعندها مجلة مهمة أوي بتدافع فيها عن تراثنا القديم والهوية الأصلية، والخصوصية الثقافية و...

وأطلقت سامية ضحكة قصيرة جافة ثم مطّ شفتيها الرفيعتين في امتعاض: التجارة بالدين لها سوق كبير أوي أكبر من سوق الفياجرا يا نوال، على العموم التجارة حلال، والوزراء بقوا من رجال الأعمال، مش أحسن من اللي بيسرقوا، وعندهم حصانة برلمانية؟! خدي الجورنال اقترئي عن السيّد الوزير والسيّدة الوزيرة، وطبعًا عندهم حصانة وماحده قفل الجمعية بتاعتهم، ولا حد عمل تحقيق معاهم، وشوفي حكاية نواب القروض وسرقات أعضاء مجلس الشعب واللي هربوا من أصحاب البلايين من غير ما حد يمسخهم في المطار، رغم أن ما حدش يقدر يخرج من المطار إذا كانوا عاوزين، و... ثم تمطّ شفتيها وتسكت. حتى المجلات والصُحف الحكومية أصبحت تنشر عن ظاهرة تهريب الأموال وفساد النُظام السِّياسي في مصر. في مجلة روز اليوسف يوم ٢٤ يونيو ٢٠٠٠ قرأت موضوعًا كبيرًا تحت عنوان «الشائعات صناعة رجال الأعمال»، جاء بالحرف الواحد: «انتشرت الشائعات عن الهروب وسوء الموقف إلى حدّ يُنذر بزعة سوق المال». ثم مانشيت كبير: «ديون رجال الأعمال للبنوك ٧ مليارات فقط مشكوك في تحصيلها من إجمالي ٢٤٠ مليار جنيه». وفي جريدة الأهالي، إحدى الصُحف المعارضة، جاء في الصّفحة الأولى يوم ٢٨ يونيو ٢٠٠٠ هذا المانشيت الضخم: «القائمة السرية للقروض التي تواجه خطر الضياع، ٢٥ مليار

أوراقى ... حىاتى (الجزء الثالث)

جنىه، دىون ٣٧ رءل أعمال للبنوك، شركات وهمىة، وقروض؛ نظىر عمولات وشىكات
وسماسرة لنهب الأموال، نواب القروض لىسوا وحدهم، والنظام المصرى فى بلا ضوابط..
أزمة الاقصاد فى مصر أصبحت حدىث الساعة، أزمة السىولة وأزمة الركد، وانتشرت
النكت والفكاهات حول القطط السمان والرءوس الكبىرة والحىتان، أصغرها بلقب وزىر
أو وزىرة أو نائب بمجلس الشَّعب أو الشورى.

الصّدِيقَاتُ القَدِيمَاتُ

أجلس إلى مكتبي الصغير في غرفة نومي، أُطلُّ على القاهرة من الدور السّادس والعشرين، ترقد المدينة تحت سحابة من الضباب الأسود بلون الدُّخَان، يبدو أول النهار كأول الليل. عدت إلى مصر بعد سنوات الغربية، أعيش الغربية داخل الوطن كالغربة خارجه، لم تعد السّماء زرقاء صافية كما كانت، الهواء أصبح مشبعًا بالدخان والهزيمة، نهر النيل أصبح حبيسًا داخل مدينة من الأسمنت، ارتفعت الجدران السوداء وزحفت على كل شيء، لم تُعد هناك شجرة واحدة خضراء ألمها في مجال الرؤية.

نافذتي عالية أطل منها على نهر النيل، كانت له رائحة جدتي وطفولتي، الطمي الأسود بلون بشرتي. كنت أسبح في النيل مغمضة العينين، يدفعني التيار الهادئ، يهبط نحو الشّمال مع الأثرعة البيضاء، وأجنحة حمام السلام، والطيور المهاجرة من الشّمال أو من الجنوب، مع حركة الشّمس والقمر.

في مصر تنساب مياه النيل مع الأرض من الجنوب إلى البحر الأبيض، وقد تعاكسها الرّياح الشّمالية تبطئ حركتها. تمشي بجوار الشّاطئ مع حركة الحَمِير والجاموس، والأقدام الحافية بلون الأرض، يذهبون إلى الحقول عند الفجر، يعودون مع الغروب، بيوتهم من الطين المحترق بالشمس، وجوههم بلون أقدامهم وأكثر سُمره، ضامرة ممصوصة، وأيديهم مُشَقَّقة بالفأس.

تركت حي الجيزة الذي كنت أسكنه قبل أن أسافر إلى المنفى، قررت ألا أعود إليه، أركان شقتي في الجيزة تُعشش فيها ذكريات سوداء، سنوات المطاردة والحبس، وجوه رجال البوليس تُطل من الباب، فوهات البنادق مصوّبة ناحيتي، رائحة الخيانة أشمها في

كل ركن، تحت الابتسامات الناعمة ألمحُ آلة القتل، تحت اسم الحماية يمشى البودي جارد خلفى ويده فوق المسدس.

عدت من المنفى منذ عامين إلى هذه الشقة الصغيرة في حي قديم اسمه شبرا، يحتفظ بالجوامع والكنائس. تبرز قبابها ومآذنها فوق أسطح البيوت الواطئة المتلاصقة. بحر أسود من الأسمنت بلا شجرة واحدة خضراء، يرتفع عند جبل المقطم ناحية الشرق، تعلوه قلعة محمد علي، قمم الأهرامات الثلاثة خوفو وخفرع ومنقرع تبرز من الضباب بلون الدُّخان ناحية الغرب، والنهر يمشى يشقُّ طريقه بين الأسفلت، كالسهم الأبيض ينعكس عليه الضوء، ينقسم عند شبرا ليحتضن الجزيرة الصغيرة، اسمها وراق العرب، ثم يمشى رغم محطة الكهرباء الضخمة إلى القناطر الخيرية، يجتازها رغم السدود، وشبح السَّجن الأسود بنوافذه الصغيرة المسدودة بالقضبان الحديد.

عيناى مشدودتان إلى الماضى بحكم الحنين، رغم الجرح الدفين يبدو الماضى أجمل من الحاضر. والنيل كما كان يمشى إلى الإمام لا ينظر إلى الخلف، ينقسم إلى الفرعين الكبيرين، دمياط ورشيد، كالأم تفرد ذراعها وتحتضن دلتا النيل، تشبه المروحة أو الكف المفتوحة الأصابع على البحر، صدرها مفتوح لتلقى الضربات من الغرب فوق منارة الإسكندرية. واحترقت بورسعيد من الشرق تحت قنابل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، وأمريكا من وراء الستار. لم تكن مياه النيل تتقهقر إلى الورا، تمشى في طريقها، تفرغ شحنتها في جوف البحر، تلقي فيه نفسها كالفتاة العذراء تفضل الموت غرقاً عن أن يغتصبها الإله.

من نافذتى أطل على المدينة كلها التى يسمونها القاهرة الكبرى، هى العاصمة منذ أكثر من ألف عام، عندها يختنق النيل بالدُّخان والجدران المسلحة، إنَّها القاهرة، وتقهر أهلها منذ الفراعنة، كما تقهر معبودها المقدس إله الفيضان، وترفع صيحاتها قبل الشروق عبر مكبرات الصوت المثبتة فوق المآذن، وأجراس الكنائس فى حي شبرا تتبارى مع أصوات الرِّجال يؤذنون للصلاة خمس مرات فى النهار، وفى الليل تعلق فوق التراتيل المقدسة طرقة الصَّاجات فى حفلات الزفاف مع دقات الطبول والغناء والرقص.

فى طفولتى كنت أحب الغناء والرقص، وأجلس إلى جوار عمى بهية، تتربع فوق الأرض الترابية، بين ساقىها تحتضن الطبل، تنقر عليها بأصابعها السمراء المشققة، ينطلق اللحن الراقص، والقدم تدق الأرض مع الإيقاع. أقدام النساء كبيرة مثل قدم جدتى، بحجم قدم النبى المحفورة فوق الحجر الأسود، أقدام نساء يخرجن قبل الفجر حاملات الفئوس، يأكلن ما تزرعه أيديهن، يشربن من ماء النيل. جدتى أطولهن قامة، ورثت قامتها الفارعة عن

أمها، لم تكن أجيرة عند أحد، زوجها مات قبل أن يسيطر عليها، العمدة كانت تقف أمامه مرفوعة الرأس، تشوح في وجهه بيديها الكبيرتين المشققتين، وفي الليل تغني مع النساء على إيقاع الطبلية: يا عزيزي يا عزيز كُبةُ تاخذ الإنجليز.

في الخامسة من عمري سألتها «الإنجليز مين يا ستي الحاجة؟» تضحك حتى تدمع عينها، تمسحهما بطرف جلبابها الواسع، وتحكي حكاية الإنجليز حين دخلوا مصر وهي طفلة، تمد عنقها القوي العضلات وتشمخ بأنفاسها وتقول: كنت عيلة صغيرة ألعب مع العيال، سمعنا أن الإنجليز دخلوا مصر، روحنا للعمدة كان عددنا عشرين أو ثلاثين وكلنا عيال صبيان وبنات، وسألنا العمدة عاوزين إيه يا عيال؟ قلنا عاوزين نحارب الإنجليز يا عمدة. كان راجل كثر غلس وشه أحمر زي الإنجليز، شخط فينا، وقال: امشوا على بيوتكم يا ولاد المركوبة. حسيت إن جتتي ولعت نار، يقول على أمي المركوبة، أمي اللي عمر ما حد ركبها حتى جوزها ما عرفش يركبها، رُحت ماسكة طوبة وزقلاها في عينه، طارت عينه الشمال، وأنا جريت على الدار ورايا العيال والغفر وانا بالشوم، ضربوا العيال، فتحوا راس الواد عقلة الصباع، كان زي القرد، ياما فتحوا راسه وأمه تلطم وتقول مات لكن بعد يومين يقوم زي العفريت، وهو اللي فتن عليّ وقال إنني أنا اللي رميت الطوبة في عين العمدة، وأبويا كان يخاف من العمدة، وقال لازم البنات نجوزها، ما فيش غير الجواز يشكهما ويا لا هوب مسكوني وجوزوني.

ورثت بشرة جدتي السمراء، والدماء في جسدي تشدني إليها، في أعماقي عشق لقوة ملامحها، كأنما منحوتة في الصخر، والنيل تسميه البحر، تنعكس عليه أشعة الشمس بلون الذهب السائل، أو الدم القاني المخلوط بالظمي. كانت جدتي جامحة كالنيل في عصره الأول حين كان يفيض، ينحدر من منابعه العليا جموحًا يجتاز الصخور والتنوءات الحجرية لا يجسر على ركوبه أحد، فإذا ترك الأرض العالية يفقد جموحه، يستطيع الناس الاقتراب منه، قد يضيق فلا يصبح سوى أذرع مسطحة، يجتازه الناس مع بهائمهم وسلالهم من الجريد المضفور أو القش المبروم، يبولون فيه دون حرج، يفقد إله الفيضان شموخه القديم، يمضي منحدرًا إلى الوادي السهل، يبتلع في جوفه قمامة الصعيد والدلتا، وعظامًا مفزعة من اللحم، جلود خراف مذبوحة ومسلوخة ثم منفوخة، يتعلق بها جسد فتاة صغيرة تسبح مع النهر جسدًا إلى جسد، ترتج مع رجرجات الموجات كأنما في رقصة النفس الأخير.

أتطلع إلى وجوه النساء أبحث عن وجه جدتي، قسمات وجهها كانت أكثر حدة، قامتها أطول بحثًا من هامات الرجال، رأسها في السماء كالشجرة، عينها سوداوان، بريقهما خاطف كالبرق، نظرتها ثاقبة كالسهم تفلق الكون نصفين، تنطلق إلى الحقل

كالشراع لا يوقفها شيء، وحيدة من غير حارس ولا زوج، وجهها ناحية الشمس رفيقها القمر في الليل، وأشجار النخيل على ضفاف النيل.

القلم في يدي يتحرك فوق الورق كأنما بقوة لا إرادية، أريد التوقف عن الكتابة دون جدوى، إنها الملاذ الوحيد أتمسك بها حتى النفس الأخير، لولا الكتابة لاندثرت منذ نصف قرن وراح اسمي في العدم كما راح اسم جدتي وأمي.

منذ طفولتي كنت أندهب كيف تروح أسماء النساء في العدم، أتلفت حولي أبحث عن أحد مندهش غيري فلا أجد. أمامي فوق المكتب صورة في الصفحة الأولى من جميع الصحف، كلمتان تحت الصورة، صاحب الجلالة، الملك أو الرئيس، أتلفت حولي وأندهب، كأنما الماضي يُبعث حيًّا، ينهض من قبره الإله خادم فرعون، أو فرعون خادم الإله. وفي كل بلد أسافر إليه داخل الوطن العربي، أرى الصورة فوق الجدران، لا يكاد يخلو جدار من الصورة بالحجم الطبيعي، بالبدلة العسكرية أو بدلة الصلاة أو بدلة التشريفات، أو وشاح القضاء، أو الرُوب الجامعي، أو بدلة العمال أو الفلاحين إلا فئة النساء، لا يمكن للرجل أن يرتدي ملابسهن وإن تحدث باسمهن في الانتخابات وحصل على أصواتهن.

في رحلاتي داخل الوطن العربي أتلفت حولي وأندهب، أبحث عن أحد مندهش غيري فلا أجد، وأسأل الناس فيضحكون، يحكي أحدهم فكاهاة أو حكاية. كثيرة هي الحكايات عن الحكام العرب، يختلفون ويتفقون، يتخاصمون ويتصالحون، يتغير الحلفاء إلى أعداء، وينقلب الأعداء أصدقاء. يجتمعون في حلقات هرمية يسمونها القمة، بعضهم يسلك المشى المركزي ويطوف حول المحراب وصولاً إلى البيت الأبيض في واشنطن، بعضهم يفضل المشى الجانبي الأكثر ظلالاً المفضي إلى الحظيرة حيث تُحجز خراف الأضاحي، أما الخيول الجامحة فهي تُحبس وراء القضبان، تسرح الغزلان والحملان في أي مكان دون خوف، وفي مواسم الانتخابات تطوف بهم العربات البوكس، تجمعهم للإدلاء بأصواتهم وأصواتهن، تتراوح ما بين ٩٨,٩% و ٩٩,٩% أو شيئاً من هذا القبيل.

أهبط الأدوار السنّة والعشرين لأمشي على شاطئ النيل، ساعة ونصفاً أمشيها كلّ صباح، عضلاتي قوية، بشرتي مشدودة إلا من خطوط خافطة تحت العينين، البريق الأسود داخل النني يطلُّ كأنما من بؤرة لم تكشف عن نفسها بعد، لم يبقَ أمامي إلا عامان وأبلغ السبعين من العمر، ياه سبعين سنة؟! الرقم يرنُّ في أذني مهولاً؛ مع ذلك تبدو طفولتي قريبة، تزداد قرباً مع التقدم في العمر، كأنما كنت بالأمس في العاشرة، ذكريات الطفولة تعود أقوى مما كانت، وسنوات الشباب حين كنت في العشرين أو الثلاثين تبدو الأمس.

منذ أيام قليلة التقيت صدفه بصديقتي بطة «الدكتور كاميليا»، رأيت امرأة عجوزاً تملأ وجهها التجاعيد، تتكى على ذراع زوجها، لم أعرف عليها، توقفت عن السير حين رأنتني وصاحت: نوال! مش معقول!

كانت بطةً من أقرب الصديقات إليّ، تخرجنا معاً من كلية الطب، رغم الاختلاف في كل شيء كنا نلتقي، تمر السّنوات دون أن أراها وفجأة يدق جرس التّليفون في بيتي وأسمع صوتها: إزيك يا نوال؟ أهلاً يا بطة.

كان هناك شيء يجمع بيني وبين صديقتي بطة، التعود القديم أو الإدمان؟! تملأ حياتي الجادة بشيء من الاستهتار، إلى جوارها أحس بالنقاء، يحتاج النقاء لشيء من الفساد ليرى نفسه.

كانت بطة تحب الفن والسينما والرقص، لم تكن تطيق الحديث في السياسة، لا تؤمن بهذه الكلمات الثلاث الكبيرة: الوطنية، الاشتراكية، الإخلاص الرّوحي. تطلق ضحكها المتقطعة كالشهقات، وتقول: إذا كان ربنا خلقنا درجات الخيانة الرّوجية له أحياناً نؤمن بالإخلاص، كان ربنا خلقنا درجات له نؤمن بالاشتراكية أو العدالة؟! وإذا لم تكن سامية توافق على ما تقوله بطة، ترمُ شفيتها الرفيعة وتصف بطة بالبرجوازية المنحلة، تشهق بطة بسخرية وتقول لسامية: أنت شيوعية غارقة لأذنيك في حب البرجوازية. ينسحب الدم من وجه صافية حين تسمع كلمة الشُّيوعيّة، كأنما تسمع عن مرض أو وباء، كلمة البرجوازي أيضاً كانت تُغضبها، تهمس في أذني: بطة وسامية زي القط والفار لازم يتناقروا، يالا بينا يا نوال نلعب ماتش تنس!

كانت صافية أقرب الصديقات إليّ، إن غابت عني الصديقات فهي لا تغيب، تزورني في بيتي من حين إلى حين، أراها من النافذة وهي تركن سيارتها الفيات الزرقاء، في شارع جانبي صغير متفرع من شارعنا في الجزيرة، في مواجهة سور حديقة الحيوانات. منذ بدأ السادات عصر الانفتاح غرقت الشوارع تحت فيضان من السيارات المستوردة، أصبحنا نستورد كل شيء حتى الخبز وعصير البرتقال، ومن كاليفورنيا أخيراً جاء الفول المدمس في العلب.

اختفت الشّجرة أمام بيتي وارتفعت الجدران، حاجبة الشّمس والهواء، لم أعد أرى الشّارع الجانبي الصغير حيث تركن صافية سيارتها أمام محل البقالة، أتابعها بعيني وأنا واقفة في النافذة بالدور الخامس، يبدو الشّارع العريض مسدوداً بالسيارات، التي تتلاصق بجوار الرّصيف وفوق الرّصيف، لا يبقى إلا ممر ضيق لا يسمح بمرور المشاة. أتابع صافية

وهى تشق لنفسها طريقًا بين السيارات، رأسها مُطرق إلى الأرض قليلًا. وفي كلية الطب كانت تتهيب الدخول إلى المدرج المليء بالطلبة، تخنفي ورائى حين ندخل من الباب، تتعثر خطواتها قليلًا حين ترمقها العيون، تكاد تجرى لتلحق بى وأنا أمشى بخطواتى الواسعة السريعة أواجه عيونهم أُرِد إليهم سهامهم، صفة تُطرق إلى الأرض، لا تريد النظر إلى هذه العيون المحملقة، تمد ذراعها وتمسك ذراعى، تتشبث بيدي كالطفلة تمسك يد أمها.

قالت صفة: مبروك يا نوال روايتك الأخيرة، أنا أحسك لا أعرف من أين تأتيك الشجاعة؟! ألا تخافين أسنة الناس؟! إنها تنهش سمعتك يا نوال، ألا تسمعين ما يقولون؟! ليس عندي وقت يا صفة لسماع ما يقوله الناس، اسمعي هذه القصة القصيرة، انتهيت منها الآن فقط.

تراجعت صفة إلى الوراء فوق الكنبة في الصالة الصغيرة، فوق المنضدة زجاجة بيرة ستلا مثلجة، صحن صغيرة بها قطع جبنة بيضاء، خيار، طماطم، زيتون أخضر وأسود. تنهدت قبل أن تمسك زجاجة البيرة، مسحت بمنديلها قطرات عرق فوق جبينها، لم يكن العرق يظهر فوق جبينها مهما جرت، كنا نلعب التنس ولم يكن العرق يظهر. شيء ما يحدث في حياة صفة، يظهر رغم إرادتها على شكل قطرات العرق، رعشة خفيفة لأصابعها البيضاء وهي تُمسك زجاجة البيرة، تصبها في الكوب بحدَر حتى لا تفور الرغوة، قطرات ماء تتكثف على جدار الكوب الزجاجى، تنتشي قليلًا، يعود البريق إلى عينها الخضراوين الناعستين قليلًا. الشمس اختفت تقريبًا، لم أعد أرى الشمس من نافذتى، إلا شعاعًا طويلًا رفيعًا يتسرب عند الغروب مائلًا بين الجدران العالية. أبواق السيارات تزق في الشارع، لا أكاد أسمع صوت صفة وهي تحكي عما حدث لها بالأمس. أغلق النافذة بالزجاج والشيش، مع ذلك يصلنا صوت الأبواق تصرخ، أصوات الرجال تزق فوق مآذن الجوامع من خلال الميكروفونات، طرقات جارتى بالقباب فوق بلاط غرفتها المجاورة، الرجل في الشقة الأخرى يؤدب زوجته بالصفعات والشتائم، رياح وعواصف رملية تهب من الصحراء، صفافير سيارات البوليس والإسعاف والنجدة، ماسورة المجارى مكسورة في الشارع المجاور، طبيخ بايت يغلي تتصاعد رائحته من المنور، أصوات ققط تتنافس حول صفائح القمامة، مقلوبة أو مفتوحة بدون غطاء، بائع الروبايكيا ينادى، وبائع الصحف يزق: أهرام! أخبار! السادات يزور إسرائيل، أهرام! أخبار! جمهورية!

أفرغت صفة كوب البيرة المثلج في جوفها، أسندت رأسها إلى الوراء فوق المسند، ثم ضحكت جاءه الله في المنام وقال له قم وانهض وسافر إلى إسرائيل! شوفي الرجل المجنون

يا نوال! معقول ربنا يقوله في الحلم روح إسرائيل؟ هو فاكر نفسه سيدنا محمد ويعمل رحلة الإسراء والمعراج؟ لكن العيب مش عليه، العيب على اللي حوالية، كلهم منافقين وكدابين زي الدُّكتور المحترم جوزي.

- المناخ العام الفاسد يا صافية يشجع النَّاسَ على الفساد.

- أيوه، لكن جوزي مصطفى طول عمره فاسد، عارفة البنت إياها اللي كان ماشي معاها؟

- البنت أنهيه يا صافية؟

- اللي حكيت لك عنها قبل كده.

كنت أنسى هذه الحكايات عن الخيانات الزَّوجية، ما أكثر هذه الحكايات التي سمعتها من الصَّدِيقَاتِ، ومن النِّساء اللائِي يترددن على عيادتي أو بيتي، تشبعت ذاكرتي بهذه الحكايات فلم أعد أسمعها، وهي قصص متشابهة إلى حد كبير، الرَّجُل الذي يخون زوجته في السر، تكشف الزَّوجة الخيانة، الصدمة والغضب والرغبة في الانتقام، أكثر مما يخيفها غضب زوجها أو غضب الله، تخشى الطَّلَاق أكثر مما تخشى نار الآخرة، أكثر ما تخشاه أن تتحول العشيقة السرية إلى زوجة ثانية، وكم من زوجٍ أقدم على الزَّواج من عشيقته كنوع من العقاب لزوجته التي كشفت السر، وقد منحه الله والقانون حق الزَّواج بأربع نساء.

أصبحت صافية تتردد على طبيب نفسي اسمه الدُّكتور عبد القادر، كان زميلاً لنا في كلية الطب، منذ الصدمة الأولى حينما عرفت لأول مرة أن زوجها يخونها ذهب إلى الدُّكتور عبد القادر، كان يكتب لها بعض الأدوية المهدئة للأعصاب، يتابع حالتها منذ خمس سنوات، تشعر بشيء من الرَّاحة حين تتحدث معه، يكنُّ لها نوعاً من الإعجاب أو الحب منذ أيام الدراسة، أراد أن يقيم معها علاقة، ترددت صافية وامتنعت ربما بسبب الخوف، لكن الدُّكتور عبد القادر كان يرى أن صافية مريضة.

بالوفاء الزَّوجي، يقول لها: الوفاء مرض نفسي عند كل الزَّوجات مثل الوفاء عند الكلاب، يعطيه اسمًا علمياً في الطب النفسي، ويحكي لها قصة الكلب الوفي.

حكى لي صافية القصة كما حكاها لها الدُّكتور عبد القادر: اشترى الشاب الأعمى كلباً صغيراً بخمسة وعشرين قرشاً ليقوده في الطريق، ظل الكلب مع سيده خمس سنوات، سُفي الشاب وعاد إليه بصره، حاول أن يستغني عن الكلب، رفض أن يفارق سيده، كان للكلب دور هام في حياة سيده الأعمى، أصبح الكلب هو عيناه يرى بهما بدلاً من عينيه المريضتين، أحب الكلب هذا الدور، أحب سيده وأخلص له كل الإخلاص، أصبح إحساسه

بحاجة سيده إليه هو الحب في نظر الكلب، وهو القانون الذي يحكم علاقة الكلاب بأسياها ويجعلها وفية لهم، لكن السَّيدُ شُفي ولم يعد بحاجة إلى الكلب، كيف يتحمل الكلب هذا الموقف الجديد عليه؟ إنه يرفض التنازل عن الدور الذي يؤديه لسيدته، دوره الوحيد في الحياة ولا دور غيره، أصبح وجود الكلب يعتمد على وجود سيده، لم يعد هناك كلب له ذات مستقلة عن ذات سيده، لم يعد هناك «أنا وأنت» أصبح «أنت» فقط، ذابت شخصية الكلب في شخصية سيده، كالزوجة التي تذوب شخصيتها في شخصية زوجها، إزاء هذا التفاني وهذه التضحية وافق السَّيدُ على رغبة الكلب ولم يطرده من بيته كما تطرد المرأة المطلقة. ثم مات السَّيدُ، توقف الكلب عن الأكل، ارتدى الحداد ومات حزناً على سيده كالرمل التي تموت بموت زوجها، هذا الإخلاص والوفاء يسميه الدكتور عبد القادر «الوفاء الكلابي»، وثمان شراء الكلب خمسة وعشرون قرشاً، مثل الحد الأدنى للمهر في عقد الزواج. كفت صافية عن الحديث، وامتلت عيناها بالدموع وهي تردد لنفسها بصوت مشروخ: وفاء كلابي!

كان ذلك في نهاية عام ١٩٧٨، وكان شريف قد أمضى أربع سنوات بعيداً في الهند، الرسائل بيننا متصلة، تنقطع أحياناً لانشغاله في العمل، أو لانشغالي في عملي، مسئولية البيت والابنة والابن، وفي الليل أجلس إلى أوراقى أكتب روايتى الجديدة، ومقاومة حرب الإشاعات التي أطلقها أعوان السادات ضدي، وضد كل من عارض سياسة الانفتاح، أي فتح أسواق مصر للبضائع الأجنبية دون ضوابط، تدمير الإنتاج والصناعات المصرية، تكميم الأفواه واستيلاء موظفي الحكومة على الصحف والإعلام ودور النشر. بدأ نقاد الأدب المعينون في المؤسسات الصحفية الهجوم على أعمالى الأدبية، بدأت الصحف الإسلامية الحكومية الجديدة تشوه صورتي ترسمني على شكل الشيطان، الذي يحارب الإسلام ويتمرد على القيم والآداب العامة.

وجدت نفسي معزولة داخل البيت، هرب الأصدقاء والصدقات، انضم بعضهم إلى حزب الحكومة، البعض الآخر إلى حزب الإخوان المسلمين، وأحزاب المعارضة يسار ويمين، كان السادات قد أصدر قراره بإنشاء الأحزاب، واختيار أعضائها ورؤسائها، أصبحت هذه المعارضة الشرعية بديلاً للمعارضة الشعبية الحقيقية.

شعرت بالاختناق والغربة، أغرقت نفسي في العمل والكتابة، امتنعت دور النشر في مصر عن نشر أعمالى، أرسلتها إلى دور النشر في لبنان، اخترقت الحصار المفروض عليّ، انتشرت كتبي في البلاد العربية، أصبحت الرسائل تصلني من المغرب والمشرق، القراء

والقارئَات العرِبيَّات، أصبحت هذه الرِّسائل تشجِّعني على الاستمرار في الكتابة، اختفى اسمي من القائمة الرِّسمية للأديبات في مصر، تم طردني من لجنة القصة في المجلس الأعلى للفنون والآداب، أصبح نقاد الأدب يتبارزونَ في الهجوم على أعمالي وكتاباتي، ويقولون إنها لا تنتمي إلى الأدب، إنها مجرد بحث طيبة أو اجتماعية، إنها تسيء إلى المجتمع، تشوّه صورة الوطن والدين، تدعو إلى الفوضى والإباحية، ترفض القيم الأصليَّة والتراث المجيد.

ظهر على سطح الحياة الأدبية نساء موظفات مواليات للنظام الحاكم، يضعن الحجاب على عقولهن، تملك كل منهن عمودًا في جريدة حكومية كبرى، أو صفحة كاملة تعرض فيها الأزياء والمكياج، تحولت الصحفيات فجأة إلى أديبات، يحملن لقب مبدعة أو كاتبة كبيرة؛ كالحلية تتدلى من الأذنين، وفصوص الماس تلتف حول العنق، والتيربون الأنيق يغطي الشعر إلا خصلة أمامية تتدلى فوق الجبين، والروح الأحمر القاني بلون الشفتين، والبشرة المشدودة بالعملية الجراحية في نيويورك أو باريس أو لندن، والمساحيق تغطي ما قد يظهر من تجاعيد، والعبارات الإنشائية الضخمة عن الخصوصية والهوية الإسلامية.

لم يكن لي مكان داخل هذا الصَّخب، جاءتني فرصة للعمل خارج مصر بالأمم المتحدة، سافرت إلى أديس أبابا بالحبشة عام ١٩٧٨، وإلى بيروت بلبنان عام ١٩٧٩، قدمت استقالتي في نهاية ١٩٨٠ وعدت إلى مصر، أدركت أن الأمم المتحدة لا يختلف نظامها عن الحكومة المصرية وغيرها من الحكومات، الداخل إليها مفقود والخارج مولود، النظام الطبقي الأبوي تُسيطر فيه القوة على الحق، تسيطر الأموال على الفكر والإبداع، يسيطر الرئيس على المرءوسين والمرءوسات، خاصة الصَّغيرات السُّن، الرِّقاقات النَّاعَمات المعطرات، النَّاعسات العيون المسدلات الجفون، يخفق قلب الواحدة منهن للحب، في المؤتمر الدولي على جبال سويسرا في الصيف، أو في الشتاء تحت أشعة الشمس الاستوائية في سري لانكا أو الهند، وفي الربيع يُعقد المؤتمر الدولي لمناقشة مشاكل الفقر والجوع في العالم، أو مشاكل ختان الإناث وحوادث الاغتصاب، يتبارى خبراء الأمم المتحدة في إلقاء الخطب عن الجنس أو الاقتصاد، وفي الليل يتبارزونَ على الرقص مع الخبيرات الشابات، ينجذب الخبير الإفريقي الأسود إلى الشقراوات البيضاوات من الشمال.

كنت أقاطع هذه الحفلات، يكتب رئيس الإدارة تقريرًا ضدي، يقول لي إن حضور الحفلات جزء من العمل بالأمم المتحدة، والرقص مع الرئيس نوع من المجاملة الرقيقة، لا يخرج عن واجبات الموظفة الدولية. بدأ النزاع يدب بيني وبين الرؤساء الأمارقة السود والرِّجال البيض على حدِّ سواء. حاول أحدهم أن يغالزني، كان يشبه الدُّب الأبيض، يصعد

الدّم الأحمر إلى وجهه حين يرانى، أستاذ بجامعة بنسلفانيا فى الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن يلتحق بالأمم المتحدة، أصبح يحمل لقب كبير الخبراء فى اللجنة الاقتصادية الإفريقية، لم يكن يعرف شيئاً عن مشاكل إفريقيا الاقتصادية، يقبض راتباً من الأمم المتحدة يصل إلى ثلاثين ضعف راتبه فى جامعة بنسلفانيا، وراتباً آخر من البنك الدولى تحت لقب مستشار. كان ينادىنى باسمى الأول، وأناديه باسمه الأول، المساواة التقليدية الشكلية داخل الأمم المتحدة للتغطية على عدم المساواة بين الأفراد والدول.

– جاية الحفلة الليلة يا نوال؟

– لأ يا رولاند.

– ليه يا نوال؟

– عندي شغل.

– شغل إيه؟!

– رواية جديدة يا رولاند.

– لازم تاخدي إجازة شوية.

لم يكن رولاند ذكياً، أغلب الرؤساء أغبياء، تُعْمى السلطة عيونهم عن رؤية الحقيقة الواضحة كالشمس، عيناى مثل كتاب مفتوح يقرؤه الجميع من حولنا، إننى لا أطيق رؤية رولاند أثناء النهار فما بال الليل. وكان الليل ساحراً على شواطئ إفريقيا الدافئة، فى الشرق أو الغرب أو الجنوب، أجملها شاطئ بحيرة فيكتوريا ومنابع النيل. التقيت هناك بأحد الثوار من شيلى فى أمريكا الجنوبية، هرب من وطنه قبل أن يحكموا عليه بالإعدام، كان طبيباً نفسياً ترك الطب والتحق بالأمم المتحدة كأحد خبراء التنمية الصحية، ثم استقال بعد أن أكمل الأربعة أعوام، الحد الأدنى للحصول على المعاش. عاد إلى شيلى ثم مات فى فبراير ١٩٨٤، انطلقت فى صدره رصاصة من مصدر مجهول، هرب القاتل دون أن يمسكه البوليس. أرسل إليّ بطاقة صغيرة من شيلى قبل اغتياله بشهرين فقط، بالضبط فى عيد رأس السنة الجديدة أول يناير ١٩٨٤، كتب على البطاقة هذه الكلمات:

إلى مَنْ جَعَلْتُ شاطئ فيكتوريا أجمل من الوطن، وتركتُ فراغاً فى حياتى لا يملأه أحد، انتهيتُ من الرواية التى بدأتها منذ خمس سنوات يوم لقائنا الأول عند منابع النيل، ربما نسيت هذا اللقاء يا صديقتى العزيزة، لكنه اليوم الذى رأيت فى عينيك نفسى الحقيقية.

روبرت

حين قرأ شريف البطاقة ابتسم وقال: يبدو أنه إنسان عاطفي. قلت: جدًّا. قال: هل أعجبك؟ قلت: جدًّا. ضحك شريف وقال: حكيت لي عن كل الذين غازلوك بمن فيهم الدُّب الأبيض ولم أسمع شيئاً عن هذا الروبرت؟ قلت: وأنت حكيت لي عن كل من وقعت في غرامك إلا تلك السوزانا الصغيرة من لوزان (وكانت صورتها قد وقعت في يدي بالصدفة وهي مرتدية مايوه بيكيني على شاطئ موزمبيق جوارها شريف يبتسم في سعادة، مرتدياً مايوها إفريقيّاً من سبعة ألوان، مثل ألوان الطيف).

في صباح يوم مشرق على شاطئ بحيرة فيكتوريا، دعاني روبرت على الغداء في مطعم صغير يطلُّ على البحيرة، كنت أمشي كلَّ صباح على الشَّاطِئِ لمدة ساعة ونصف قبل أن أحضر جلسات المؤتمر الدولي، تعودت على رياضة المشي كلَّ صباح أو الجري سبعة كيلو مترات، أستقبل أول شعاعٍ للشَّمْس من وراء البحيرة، أرفع ذراعي في الهواء، أُغمض عيني، أحس الشعاع الدافئ فوق جفوني، أفتح عيني على خضرة الشجر والأرض، وحصان أبيض يركبه فارس يرتدي بدلة بيضاء، لَوْح لي بيده من تحت زرقة السَّماء: صباح الخير يا نوال.

- صباح الخير يا روبرت.
- أين ستتناولين العشاء الليلة؟
- لا أعرف، هناك حفلة عشاء للمشاركين في المؤتمر.
- لا أحب حفلات العشاء.
- ولا أنا.
- إيه رأيك أدعوك إلى مطعم صغير يطل على البحيرة؟
- سأدفع ثمن عشائي يا روبرت.
- كما تشائين.

وأنا أرشف النّبِيذ الأحمر مع قضمات من الحمامة المشوية، كنت أراه جالساً أمامي يرمقني بعينين زرقاوتين يكسوهما البريق، عيناه تلتقيان بعيني، أتظاهر أنني لا أرى ما فيهما، أقضم بأسناني عظام الحمامة الصغيرة، أسمعها تقرقش بصوت مسموع، أُثبت له أنني منشغلة عنه بالحمامة المشوية، وأنني لست هشة العظام مثل الحمامة، أو حسناوات الأمم المتحدة، السَّمراوات أو الشَّقراوات، وقلبي مليء بالحنين إلى منابع النيل.

- عيناك السُّوداوان ساحرتان وشعرك الأبيض هذا في رِيَعان الشَّبَاب.
- أنت أيضاً شعرك أبيض في ريعان الشَّبَاب.

- أهى وراثه؟

- ربما.

- أو دليل العبقرية؟!

الحوار يدور حتى نعود إلى الفندق، لم يكن شريف معى فى هذا المؤتمر، قلت له حين سافرت إليه، كدت أقع فى الحب يا شريف لولا ... قال: لولا ماذا يا نوال؟ قلت: لولا ذلك المرض النسائى. قال: أى مرض هذا؟ قلت: هذا المرض الذى يسميه الدكتور عبد القادر ... قال شريف: وما يسميه؟ قلت: الوفاء الكلابى. وضحكنا ثم شربنا نخب هذا الوباء المزمّن.

الصوت يؤقظنى من النوم، أمد ذراعى وأمسك يده، تنسحب يدي وحدها وتختفى تحت الوسادة، عيناها زرقاوان بلون البحيرة فى يوم مشرق. أعود إلى النوم، وأصحو على صوت جرس التليفون، إنها صفيّة تكاد تصرخ: صحيح يا نوال ما يقوله الدكتور عبد القادر؟ أفتح جفونى، وأرى الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً، أصبح بضيق: يا صفيّة أنت تعرفين الدكتور عبد القادر منذ أيام الكلية، ألم يكن يدس لك فى الكشكول رسالة حب كل يوم؟ إنه يريد الانتقام منك؛ لأنك رفضت الزواج منه، يرد لك الصّفعة يا صفيّة. الدكتور عبد القادر يقول لي ما أقول لنفسى يا نوال، كيف أخلص لزوجى وهو خائن؟! الوفاء مقابل الخيانة ليس وفاء بل مرضاً! إنه التعلق المريض بالزواج وإن كان فاسداً، إنه الخوف المريض من فقدان الحب وإن كان غير موجود، أو فقدان الدور المزيّف الذى لعبته فى حياة زوجى خمس سنوات، كيف أفقد حاجته إليّ؟! كان يقول لي لا أستطيع الحياة بدونك، أنا لم أحبه يا نوال، لكنى أحببت اعتماده على وجودى، لكنى تشبثت به، كنت أخاف الطلاق، أصبحت أعتمد عليه يا نوال، لا أستطيع أن أعيش بدونه، انقلبت الأوضاع، أصبحت مثل الكلب التّابع لسيدة، لا يستطيع أن يفارقه، ويموت بموته. العبارة تنطقها صفيّة بصوت يقطر مرارة، تضغط على الحروف، تلوّكها، تُلْفِظُها من بين شَفَتَيْها حرفاً حرفاً؛ كالعلم المرّ ينساب قطرة قطرة ... وفاء ... كلابى؟!

عام ١٩٩٨ دق جرس التليفون فى شقتى الصّغيرة الجديدة فى حي شبرا القديم، تركت شقتى فى الجيزة بعد العودة من المنفى العام الماضى. عشت فيها منذ عام ١٩٦٠، سبعة وثلاثين عاماً عشتها فى شقة الجيزة شارع مراد، بعد الطلاق الثّانى استأجرت هذه الشّقة فى الدور الخامس، إلى جوار الكنيسة الكبيرة، تطل على آجر سور حديقة الحيوان، عشت

مع طفلي الصَّغيرة ودادة أم إبراهيم، استأجرت لأخواتي الشَّقة في الدور الثَّالث، دخلت ابنتي مدرسة الحضانة المجاورة في شارع النيل، ودخلت أخواتي الجامعة التي لا تبعد عن البيت إلا مسافة عشر دقائق على الأقدام بالخطوة السريعة.

في ديسمبر ١٩٦٤ تزوجتُ شريف، ترك بيت أسرته في الزمالك وأصبح يشاركني شقتي الصغيرة، ثلاث غرف وصالة، غرفة مستقلة لابنتي تشمل سَريرها، دولا ب ملابسها، مكتبها الصغير، مكتبها به رفوف حتى السقف تحمل كتبها، كراريسها، ألبومات الصور، عُلب الألوان، شرائط الموسيقى، والأفلام. منذ العاشرة من عمرها أصبحتُ تكتب خواتمها في مفكرة تشبه مفكرتي وأنا في مثل عمرها. أصبح لها أخ اسمه عاطف، ولذتُه في المستشفى الجامعي في مدينة نيويورك فجرَّ يوم ١٠ ديسمبر ١٩٦٥، كنت أدرس في جامعة كولومبيا للحصول على درجة الماجستير، عدت إلى مصر أحمل ابني وشهادة التفوق، عمره سبعة أشهر، بشرته سمراء بلون بشرتي، عيناه سوداوان يكسوهما بريق، فرحت ابنتي مُنى بأخيها، أصبح شريف أبًا لأول مرة في حياته، حمل عاطف بين ذراعيه وقال: طفل جميل يا نوال لأنه يشبهك، عيناه السوداوان وبريق الذكاء. ضحكت وقلت: ربما بريق ذكاء الأب ... ألسْتُ أكثر مني ذكاءً يا شريف؟! ضحكت ابنتنا الطفلة وقالت أظن أنه ورث ذكاء أخته أكثر من الأب أو الأم!

أصبح لعاطف غرفة خاصة به في الشقة الصغيرة، بها سَريره ودولا ب ملابسها، مكتبه الصغير، مكتبة بها رفوف حتى السقف تحمل كتبه، كراريسه، ألبومات الصور، عُلب الألوان، شرائط الموسيقى والأفلام السينمائية، منذ طفولته عشق عاطف السينما والموسيقى، يعزف على الجيتار، يسجل أفكاره مثل ابنتنا منى في مفكرته الخاصة.

الغرفة الثالثة في الشقة اقتسمتها مع شريف، لكل منا سرير صغير، دولا ب ملابس، مكتب صغير، مكتبة لها رفوف حتى السقف، منذ تزوجنا عشنا في هذه الغرفة، نكتب فيها وننام ونقرأ ونسمع الموسيقى ونشاهد الأفلام. كانت هذه الغرفة هي حياتنا، المساحة الصغيرة الدافئة التي تضمننا، لم تكفَّ الحكومة عن مطاردتنا داخل هذه الشقة الصغيرة، حوَّطها رجال البوليس والحراسة والبودي جارد، تخلل نوافذها الأصواتُ الزاعقة في الميكروفونات تهدر دمنًا، وأجهزة الإعلام والصُّحف تنثر - والهواء في الليل - الإشاعات، قطعوا الأشجار في الشَّارع أمانًا، حلَّت مكانها العمارات العالية والجدران الأسمنت، حجبنا عنا الشمس، تتسرب من شقوق الشيش أضواء النيون المتحركة من حول الديسكو كلاب، ومآذن الجوامع التي أصبحت تتوالد وتتكاثر على نحو سريع، لا يفوقها سرعة إلا

توالد وتكاثر محلات ماكدونالد الأمريكية، أغلقت المحلات المصرية أبوابها واختفت المنتجات المحلية من السوق.

حين عُدنا من المنفى عام ١٩٩٧ وجدنا شقة الجيزة مظلمة خانقة مثل ززانة السّجن، تعشعش فيها ذكريات سوداء، فقدنا فيها الزمن والطمأنينة، لم يكن لنا أن نعيش داخل هذه الشقة، انتقلنا إلى الشقة الجديدة في حي شبرا القديم، غرفتان فقط والصّالة، وغرفة خاصة بشريف ينام فيها، الصّالة للاستقبال ومنضدة صغيرة للطعام في المطبخ، وشرفة صغيرة تطل على النيل من الدور السادس والعشرين في حي شبرا القديم.

استقلّت ابنتنا في حياتها الخاصة، أصبحت الدُكتورة منى حلمى الكاتبة والأديبة المعروفة، لها مؤلفاتها وكتبها ومقالاتها في الصّحف والمجلات، ابننا استقل بحياته الخاصة، أصبح المخرج السّينمائي عاطف حتاتة، يهتم النّقاد بأفلامه الرّوائيّة، يقولون إنها تفتح بابًا جديدًا في السينما المصرية حصلت أفلامه على جوائز مهمة داخل مصر وخارجها.

أصبحت أنا وشريف نعيش وحدنا في شقة شبرا الصّغيرة، نهبط الأدوار الستة والعشرين كلّ صباح في الساعة السادسة، نمشي على شاطئ النيل مسافة سبعة كيلومترات، نعود لنشرب الشاي مع الجبنة القريش أو الزبادي بدون دسم، وعسل النحل والخبز البلدي المحمص.

أصبح لنا عدد قليل من الأصدقاء والصديقات، يتناقص عددهم بمرور السنين، يموت بعضهم أو يهاجرون، أو ينشغلون بمشاكل الأولاد والأحفاد، مرت السنوات دون أن أسمع صوت الصديقات القديمات بطة وصفية وسامية، أقرأ أخبارهن من حين إلى حين، أو يرن جرس التليفون بعد غياب السنين ويأتيني صوت إحداهن.

لم تنقطع زيارات الشّباب والشّابات إلى بيتنا منذ عودتنا من المنفى، أجيال جديدة من المبدعين والمبدعات في مجال الأدب والفن والسّينما، بدأنا فكرة تكوين مدرسة فكرية جديدة تضم هؤلاء الشّباب والشّابات، أصبحت الفكرة تنمو، تتخذ شكلاً أكثر تحديداً في ظل القوانين المتغيرة، خاصة قانون الجمعيات الجديد الذي ما إن صدر في نهاية عام ١٩٩٩ حتى ألغته المحكمة الدستورية العليا في بداية العام ٢٠٠٠، وفي مصر يحكمنا قانون الطوارئ الذي يحزّم الاجتماعات، ويسوق إلى السّجن أي مجموعة لا ترضى عنها القوى الحاكمة المسيطرة.

ثمّ دق جرس التليفون في بيتي ذات يوم من أيام شهر يونيو الماضي، صوت رجل عبر الأسلاك يقول: بطة هانم معاك على الخط يا دكتورة.

كلمة هانم لم أسمعها من نصف قرن، في طفولتي كانت النِّساء في عائلة جدي شكري بيه يحملن لقب الهانم، أمي كان أبي يناديها أحياناً زينب هانم، لم تكن النِّساء في عائلة أبي الفقيرة في قرية كفر طحلة يحملن لقب هانم، كلمة هانم توحى بالرقّة والنعموة والانتماء إلى الطبقات العليا وسلالات الأتراك منذ المماليك والإمبراطورية العثمانية.

– بطة هانم يا دكتورة معاكِ على الخط.

دوى صوت طويل عبر الأسلاك صوتها المألوف، وقد أصابته بحة أو شرخة الشيوخوة.

– إزيك يا نوال.

– أهلاً يا بطة.

– بنتي شيرين كتب كتابها الخميس الجاي، وقالت لي لازم يا ماما تدعي الدُّكتورة نوال، بنتي معاها الدُّكتوراه من جامعة هارفارد في النُّقد الأدبي، قرأت كل كتبك، ورواياتك بالعربي والإنجليزي، ومعجبة بيكي أوي يا نوال، لازم تيجي عشان إنتي وحشتيني أوي، نفسي أشوفك بعد الغيبة الطويلة دي، ده احنا صحاب من زمان من أيام الكلية، ولا يمكن الصَّداقات القديمة تروح يا نوال، أنا عاملة الفرخ في الفيلا الجديدة جنب أرض الجولف في مصر الجديدة، خدي العنوان يا نوال، والعريس إنسان ممتاز، كان زميل شيرين في هارفارد ومن أكبر رجال الأعمال.

نطقت الكلمتين من أنفها وقلبت الرءاء إلى غين كعادتها القديمة، قالت غجال الأعمال، رنّت في أذني عجول. بعض الأشياء السَّاقطة منذ النُّظام المَلْكي عادت، ومنها اللدغة الفرنسية في اللسان، والديوك الرومية المحشوة بالمكسرات في ليالي الكريسماس، والعجول المذبوحة في مولد النبي يوزعونها على الفقراء، والزَّبَّيبة السُّوداء عادت بارزة فوق جباه المؤمنين الصالحين، والطرحة السوداء أصبحت تلتف حول جبين المؤمنات الصَّالحات، وصديقتي بطة ذات الميكروجيب رأيتها ترتدي الطرحة من الحرير المستورد الثمين، تميل فوق جبينها ناحية أذنها اليمنى بانحدار شديد كما كان الطربوش يميل فوق رءوس الرِّجَال أيام الملك والإنجليز.

– أهلاً يا نوال، الدُّكتور نوال يا هوانم صاحبتني من أيام الدراسة كانت أشطر واحدة

فيها، لكن يا خسارة سابت الطب وبقّت تكتب روايات مش معقول إن بوسيبيل!

– إن بوسيبيل ليه يا بطة هانم ما شاء الله الدُّكتورة نوال اسمها مالي الدنيا، ده أنا كنت في سوسيغا «سويسرا» الصيف اللي فات، كان عندي كده شوية دبريشن «اكتتاب»، والدُّكتور بتاعي، الله يمسيه بالخير، قال اخرجي بره شمي شوية هوا، قلت أروح أزور

بنتى فى جنيف، أصل بنتى متجوزة خبير فى الأمم المتحدة، طبعاً أسلم وبقه اسمه جابر بدل جورج، وعندهم بنت ما شاء الله زى القمر سموها فاطمة على اسم بنت النبى، يقولوها فاتىما، تتكلم إنجليزى وألمانى وفرنساوى وما تعرفش كلمة عربى، علمتها تقول يا جدتى بالعربى، أصل كلمة جدتى حلوة أوى فى ودانى. وأنا باحكى الحكاية دى كلها ليه؟ أيوه افكرت، لقيت بنتى ماسكة فى إيدها كتاب بالألمانى، وقالت لى ده كتاب الدكتور نوال السعداوى بيدرسوه فى الجامعة هناك، وهتعلم عليه الدراسة، وقالت والنبى يا مامى لما تروحي مصر ابعتى لى كل كتب الدكتور نوال.

صوتها يذكرنى بصوت طنط هانم منذ نصف قرن، إلا أنها أكثر ثراءً، تلمع المجوهرات حول عنقها، ترمق خواتمها المرصعة بفصوص الماس وتممص شفيتها: «الحاجات» دى كانت مرمية فى الصندوق خمستاشر سنة كل سنة تنطح أختها، من أيام الحراسة السوداء ربنا ما يعيدها لغاية ما شفت الهانم لابسة جواهرها، الستات كلهم حوالىها لابسين، رحت فاتحة الصندوق وقلت يعنى أنا مش واحدة من الهوانم، ده أبويا كان بيه وأمى كان أبوها باشا، ويعنى الهانم كان أبوها مين؟!!

دب الصمت فى الصالون المطل على الحديقة الهادئة فى مصر الجديدة، وتظاهرت بعض الهوانم بعدم السماع، انكب بعضهن على الأطعمة الممدودة داخل الشرفة الزجاجية الطويلة، قربت إحدهن فمها من أذنى وهمست: «أصل العريس يقرب للهانم من بعيد» ونهضت إلى الطابور المتدافع نحو المائدة بخطوات وثيدة، كل منهم يحمل صحناً كبيراً من الصينى المزركش. تعرفت على الدكتور حمدي بسهولة بين الواقفين، ساقاه المعوجتان داخل البنطلون المكوي، صدره النحيف المبطط تحت البدلة الأنيقة المحكمة حول جسمه، رأسه الكبيرة بشعره المجعد، لم يعد كئياً كما كان ولا أسود، ظهرت له صلعة حمراء وسط الرأس، من حولها كتلة بيضاء من الشعر المضغوط كأنما بالمكواة الحديدية. كان يتحدث مع أحد الرجال حين لمحنى جالسة، تقدم نحوى وقال بصوت تشوبه حرارة غير عادية: الدكتور نوال السعداوى لازم تعرفها يا محمد بيه.

- اتفضلى يا دكتورة.

وأفسح لى الدكتور حمدي مكاناً فى الطابور، وقفت أمامه أحمل صحناً كبيراً فارغاً، لم ألتقط من الطعام إلا قطعة طماطم مع الجبن وأعواد قليلة من الجرجير، رائحة الأطعمة الدسمة لم تعد تثير شهيتى، منذ سنوات قاطعت السمن والزبدة والدهون الحيوانية، أصبحت أفضل الخضروات على اللحوم. فى الصحن الضخم وسط المائدة يطل فخذ خروف

أو عجل يكاد يشبه أفضاخ بني آدم، تسقط عليه السكاكين بصوت مسموع، والأسنان أيضاً صوتها يكاد يُسمع، لولا صوت الدكتور حمدي المرتفع يتحدث مع صديقه غير بعيد عني. - خلاص يا محمد بيه التلفزيون والفيديو والإنترنت طغوا على كل حاجة، الكتب خلاص سوقها راحت، ماحدث بقه يقرأ يا محمد بيه.

- أيوه صحيح يا معالي الباشا.

- لكن العريس بتاعنا راجل غاوي كتب، عنده دكتوراه في العلوم الإلكترونية، من جامعة هارفارد، وراجل مثقف جداً جداً رغم أنه قريب الهانم.

جاءت العبارة الأخيرة خافتة شبه هامسة، أعقبتهما ضحكة مكتومة متقطعة، ثم صمت طويل ... عادت فيه أصوات السكاكين والملاعق والأسنان. وارتفع صوت الدكتور حمدي مرة أخرى: إيه يا دكتورة نوال إنت مش بتاكي ليه عاملة رجيم ولا إيه؟! عشان كده محافظة على قوامك؟ ثم دارت عيناه تبحثان عن زوجته، رآها منهمكة في الأكل والحديث مع إحدى السيّدات، قرّب فمه من أذني وهمس «قولي لصاحبك بطة هانم تعمل رجيم.» كانت بطة منهمكة في الحديث مع المدعوين والمدعوات، ألمح بينهم وجوه الصديقات القديمات وزملاء قدامى من الأطباء والأدباء، وجوه جديدة لا أعرفها من رجال الأعمال «البنزيس» وكلاء الشركات الأجنبية، ونساء الأعمال صاحبات الشركات الجديدة في السوق الحرة، رجال البورصة وقيادات أحزاب المعارضة، وأعضاء مجلس الشعب والشورى والقيادات الصحفيّة والإعلامية، رئيسات الجمعيات النسائية والمنظمات غير الحكومية، في العهد الملكي كان اسمها الجمعيات الخيرية، تنشغل فيها النسوة بتنظيم الحفلات أو جمع التبرعات تحت رعاية صاحبة الجلالة الملكة أو الأميرة، تغير اللقب في عهد السادات إلى السيّدة الأولى على غرار النظام الأمريكي، وكانت التبرعات توضع في مكان أمين لا ينفق منه إلا الأمانة والأمينات، يوزّع الباقي على الفقراء والعميان «عبيد إحساناتهم» بحسب القول المأثور عن الشعب المصري بلسان الخديوي.

فوق الجدار لمحت صورة تشبه الملكة تتطلع بطة هانم إليها بخشوع «والله يا نوال الست دي عظيمة وبتقوم بدور مهم وبتعمل حاجات كتير أوي للناس الغلابة واليتامي»، وأكملت السيّدة التي سافرت تشم الهواء في سويسرا: «يسلم بقك يا بطة هانم، وربنا قال في القرآن الكريم: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وربنا ما شاء الله أنعم عليها خير كتير أوي.»

قبل أن تنتهى الحفلة أخذتني بطة من يدي إلى غرفة داخلية، «لازم تشوفي الشبّكة يا نوال، إيه رأيك مش تجنن! أنا عاملة حفلة تانية صغيرة «أنّتم» أوي، داعية صاحباتي القريبين أوي واعملى حسابك حنسر للصبح!»

الصّدقات القديمة لها ذكرياتها الخاصة، لكن الضحك لم يعد يخرج من القلب كما كان، أكبرنا سنًا هي سامية بلغت السبعين عامًا، وبعدها بطة تصغرها بعامين، ثم صفة وأنا من عمر واحد، أعلاهن صوتًا هي سامية، يخرج من الأنف المرفوع فوق الشفتين الرفيعتين شبه المتلاشيتين، قامتها طويلة نحيفة تحوطها بشال ملوّن، تبدو كالطيف الشاحب يتلفع بالأوان زاهية، عنقها نحيف ينثني قليلاً تحت رأس كبير وشعر قصير «الأجارسون» مصبوغ بلون أسود داكن، كأنما هو رأس مسروق من تمثال رجال إفريقي، الجاكيث من الصُوف الإنجليزي المتين مطرّز فوق الصدر بشعار حزب اليسار، أو حزب الطبقة العاملة، وهذا الشكل مجرد ذكرى؛ لأن صديقتي سامية لم تعد من الطبقة العاملة، ولا هي عاملة بل مالكة لمزرعة كبيرة في دلتا النيل وشركة استيراد وتصدير، انطفأ في عينيها العنف القديم، وأخذت رعشة تهز شفّتيها المزمومتين كأنما سؤال مكبوت يتأهب للإفلات من قبضة إرادتها الحديدية.

على الرّغم من بلوغها السّبعين فإنّ ابنة الطبقة العاملة لا تشعر بالتقدير الكافي لطبقته، تتهكم على الرّجال في حزبها خاصة زوجها رفاعة، تمط شفّتيها المطبقتين وتقول مناضل ماركسي! بهذه العبارة من كلمتين، كانت تقدم زوجها، وقد أسقطت الكلمة الثّانية مع سقوط الاتحاد السوفييتي.

في عيناها الصغيرتين شبه الخاليتين من الرموش تلمع دمعة شفافة حين تسمع كلمة ماركس أو الاتحاد السوفييتي، الأمر بالنسبة لها ليس هذا ولا ذلك، بل هو إيمانها الذي سقط، وكانت ترغب في الإيمان بشيء تراه ضخماً فوق عرشه معصوماً من الخطأ، محصناً ضد الموت أو السُّقوط، ترتعش جفونها كأنما دمعة مكبوتة تستعد للإفلات منها.

صوتها تشوبه رنة أنفية شبه بكائية، تميل إلى النحيب الصامت، حتى قبل السقوط السوفييتي أحيانها فأقول: «لكل جواد كُبوّة يا سامية»، هنا تتحمّس لإنقاذ ماركس: «يا نوال ده جورباتشوف الملعون تأمر مع أميركا!» تضيق عيناها حتى تطفر الدمعة الحبيسة وترتعش شفّتاها كأنما تكبت الرغبة في الصراخ، إلا أن هذا الغضب ينقلب إلى حزن صامت شبه مستسلم حين تتحدث عن زوجها رفاعة. يدق جرس التليفون في بيتي

ويأتيني صوتها الباكي: «نوال عاوزة أشوفك.» تجتاحها هذه الرغبة المفاجئة لرؤيتي حين تريد أن تغتابَ زوجها: «تصوري يا نوال بعد أربعين سنة جواز أكتشف إنني عمري ما حبيت الراجل ده!»

في غرفة داخلية لا يدخلها الرِّجال تربعت السيِّدة التي سافرت إلى سويسرا أمامها السبرتاية تعلوها الكنكة، ورائحة البن المطحون بالحبهان، فناجين صغيرة من الصيني، ترشف الهوانم القهوة، ترتسم الشفاه الحمراء على حافة الفناجين، لا يبقى في القاع إلا الثمالة، ترجُّها السيِّدة بحركة تذكرنى بطنط نعمات وأنا طفلة في العاشرة، تقلب الفنجان ثم تعدله وتقرأ البخت أو الطالع. هؤلاء الهوانم أكثر دجلاً من الهوانم القديمات منذ نصف قرن، يكتبن ما يسمى الوثيقة، تشبه العهد القديم بين أرواح الجان والبشر، مكتوبة على مطواة قرن غزال أو حدوة حصان، تطلب من الجان إبقاء الرُّوج مع زوجته كي لا تخلعه من قدمها مدى العمر، وحروف مكتوبة بدم الحيض على ظهر صورة الرُّوج تأمره بالعودة راکعاً فوق ركبتيه كالخروف يعود إلى الحظيرة.

تلنقي عيناى بعيني بطة، الدكتور كاميليا، متربعة فوق الشلثة بجسمها القصير السمين، ازادات سمنة، عيناها الواسعتان أقل اتساعاً، النني الأسود أقل سواداً، جفونها واردة شاحبة رغم الكحل الأسود، تحت الجفون تجاعيد تختفي تحت البودرة والمكياج، ساقاها السمينتان القصيرتان مضمومتان تحتها، تُسْمَلُ وتُحَوَّلُ فيما يشبه الشَّبَق، تكرر بضحكتها القديمة كأنما عادت التلميذة الصغيرة «فاكرة يا نوال أد إيه أنا كنت باحب حسين، وكنت مخطوبة لحمدي وباكره زي العمى، كنت واخدة حريتي وأنا متجوزة، ولا عمري حفظت آية في القرآن ولا ركعت لربنا ركعة واحدة، وطلع طارق ابني طويل وحلو مش زي أبوه المكعب، أصلي وأنا حامل كنت باتوحم على حسين.»

وقاطعتها السيِّدة الهانم التي سافرت إلى سويسرا: أيوه يا بطة هانم الوَحْم مفعوله باتع زي السحر تماماً، وربنا زكره في القرآن وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قال ... وانطلقت أصوات النساء تصليّ وتسلم على النبي، وبطة هانم تواصل كلامها، توجه الحديث إليّ. كنت جمهورها المستمع الوحيد والأخريات انشغلن عنها بأحاديث جانبية، كل منهن تحكي قصة حبها المكبوت، كلمة هنا أو هناك، وعبارة تكاد تتكرر وبصوت خافت «أصل جوزي عمري ما حبيته يا حبيبتى» ويرتفع صوت بطة هانم على الأصوات، وقطعة الشَّبَّة تطرقع في النَّار وتتخذ شكلاً آدمياً مثل جمجمة محروقة تشير إليها الأصابع القصيرة ذات الظفر الأحمر الطويل المدبب يشبه مخلب القط.

شوفى يا نوال رأسها السوداء زى وشها علشان تعرفى إن البت السُّكرتيرة كانت عاملاله عمل، وأنتِ عارفة حمدي طول عمره راجل دوغرى لا يمكن يبص لواحدة، إلا البت المفعوصة دي ما عرفش عملت إليه شألبت كيانه، عمرها عشرين سنة وهو فوق السبعين، أصل الرِّجالة عقلهم ببصغر كل ما يكبروا فى السن، ورحت شفقتها فى مكتبه، بت سودة وجربانة جلدة على عظمة، وطردتها من المكتب، رحت عملاله عمل عند الشيخ المحلاوى، ده شيخ مشهور أوى يا نوال لازم سمعتى عنه، النَّاس تيجى له من كل البلاد، حتى من أميركا وأستراليا، ناس متعلمين ودكاترة.

وكنت لا يمكن أصدق فى حكاية المشايخ وأنتِ عارفانى من زمان، لكن قالوا لى عليه، وكان حمدي عشان يعاندنى فرش شقة فى الزمالك للبت المفعوصة، وسمعت إنه عمل معاها عقد عرفى، أو رسمى ما اعرفش، بقيت ما نامش الليل يا نوال، وقلت يانا يا هى فى الدنيا. ورحت للشيخ المحلاوى، قلت أجرب، مش حاخسر حاجة، أول ما دخلت عليه شفت النور، نور يا نوال والله، نور من عند ربنا، قمر منور قاعد على الكنبه، وقال لى تعالى اقعدى جنبى يا كاميليا يا بنت سعدية، عرف اسم أمى إزاي ما اعرفش، أمى ماتت من ثلاثين سنة وماحدش يعرف اسمها، لقيته عارف عنى كل حاجة، عمل لى العمل، علقه فى صدرى، حجاب عليه كلام من القرآن وكلام تانى لا يمكن حد يقراه غيره، وقال بعد أسبوع واحد جوزك حيرجع ويقفل شقة الزمالك.

وفعلًا يا نوال بعد أسبوع واحد بالضبط، وكان يوم جمعة الصبح، لقيت حمدي راجع، من يومها مابقتش أقرأ غير القرآن، وربنا قال عن السحر يا نوال وعن أرواح الجان، وآلاف النَّاس بتروح للشيخ المحلاوى، رغم إن الفيزيتا بتاعته بقت عشرة آلاف دولار يعنى ثلاثين ألف جنيه، لكن كل يوم عنده آلاف ولازم أحجز قبلها بشهر أو شهرين، باشوفه مرة واحدة فى السنة، وحمدي يقولى إزاي تصرفى فلوسك على الشيخ المحلاوى، وأقول له أهى فلوسى من عرق جيبنى أصرفها على حد واحد عارف ربنا أحسن ما أصرفها على الشيطان، ويسكت حمدي، يخاف يفتح سيرة الشيطان، عشان مافكروش بالفلوس اللي صرفها فى شقة الزمالك.

كانت المرة الأخيرة أرى فيها صديقتى القديمة بطة، صوتها كان يأتينى أحيانًا عبر الأسلاك، يرد عليها شريف نيابة عنى: نوال خرجت يا بطة لما ترجع أقولها تطلبك. لم أكن أطلبها، عيناها لا أريد أن أراها مرة أخرى، رأيت فىهما شيئًا مخيفًا يشبه الموت، كأنما ماتت

عينها، تسري قشعريرة باردة في جسدي إذا تذكرتهما، وأسأل نفسي أهى الصدمة النفسية العنيفة في الزّواج وشريك الحياة؟! أهو الانحدار الذي أصاب المجتمع في السنين الأخيرة؟! أهو اليأس المطلق إلى حد الإيمان المطلق بالشيخ الأعمى؟! وكان الشيخ المحلاوي أعمى مثل الشيخ حمدان في القرية، وكانت تقول عنه أم إبراهيم منذ أربعين عامًا: «ربنا كشف الحجاب عنه يا ضكطورة وماحدث يعرف ربنا إلا العميان.»

إنها بدايات يونيو ٢٠٠٠، يوم صيفي رَمادي غارقة تحت شبورة خانقة بلون الدخان، أعيش المنفى داخل الوطن كما عشته في الخارج، أشعر بالغرابة وأنا أمشي في الشّارع، تشبه غربتي حين كنت في مدرسة منوف الابتدائية ويرمقني الرّجال بعيون جاحظة، يقذفني أحد الصبية بطوبة! أو كلمة نابية يسب بها أمي، يصب اللعنات على أعضاء الأنتى، خاصةً العضو المتبور بالموسى، الملعون في الغياب كالحضور.

هربت من القرية إلى المدينة، لكن الضجيج، في النهار والليل، ومكبرات الصوت مثبتة فوق الجوامع والبيوت حتى المقابر، أصبح من حق الموتى سماع الأذان للصلاة وتلاوة القرآن في المآثم أو الطُبول والغناء في الأفراح، ولم يعد من حق الأحياء النّوم، خاصةً في الأحياء الفقيرة مثل حي شبرا القديم، وفي الأحياء الرّاقية في مصر الجديدة لا تسمع الطبقة العالية ورجال الأعمال ونساؤهم إلا زقزقة العصافير وحفيف الأشجار في الحدائق الخضراء.

شبح الموت يطاردني منذ زيارتي الأخيرة لبطة، أشعر بالإثم حين تطلبني فأنكر وجودي، أقلب أحياناً في ألبوم الصور القديم، أراها إلى جوار يدي نضح وسط حوض من الزهور، شعرنا الأسود يطيره الهواء، فمها مفتوح عن آخره كأنما أطلقت نكتة من نكاتها المأثورة، تبتسم صفيّة في الصّورة بهدوئها المعهود، لم تكن تطلق هذه الضحكة الرنانة التي تطلقها بطّة، تكرر ضحكتها مثل الماء الراقراق يخرج من عنق بلّورية ضيقة، وسامية واقفة في طرف الصورة، شفتاها الرفيعتان مزومتان في مواجهة الشمس القوية، لم تكن تضحك أبداً، وإن ابتسمت لا تنفرج شفتاها عن مساحة مرئية للعين.

أحياناً يدفعني الحنين فأطلب صفيّة، هي أقربهن إليّ، إن لم أجدّها أطلب سامية. ذلك اليوم طلبت بطّة، بالأمس تركت لي رسالة تليفونية على آلة التّسجيل: نوال كلميني، أنا في البيت. صوتها المبحوح تشوبه شرخة خفيفة جديدة وربما عندها زكام أو برد، في صيف أيام متربة حارّة يهب هواء ساخن من الصحراء مع ذرات الرّمال والدُّخان وفيروسات

الأنفلونزا الصيفية القادمة من وراء البحار، ترشح الأنوف مع ارتفاع خفيف في الحرارة ثم ينتهي الزكام بعد أيام قليلة.

قلت: ربما أصابها فيروس وهي في البيت لم تخرج، ربما هي تنتظر مكالمتي، وأدركت قرص التليفون برقمها، رعشة خفيفة كالقشعريرة زحفت عليّ كالهواء البارد، كأنما النافذة انفتحت مع أنها مغلقة كأنما جسدي يدرك اللحظة القادمة قبل أن يدركها عقلي، وجاءني صوت رجل غريب، هل أخطأت الرقم؟! كنت أضع السّماعَة حين سمعته يقول: عاوزة مين حضرتك؟

- عاوزة بطة.

- مين حضرتك؟

- أنا نوال السعداوي.

- أهلاً يا دكتورة.

- مين حضرتك؟

- أنا الدكتور حمدي.

- ما عرفتش صوتك يا دكتور ... أقدر أكلّم بطة؟!

- بطة؟ ... تعيشي إنتي.

توقف الهواء في صدري، الكلمتان «تعيشي إنتي» نسيت معناه، غاب عن ذاكرتي لحظة، أصبح عقلي مثل صفحة بيضاء، ثم بدأت الذاكرة تعود بالتدرّج. كنت طفلة في منوف حين سمعت الكلمتين لأول مرة في حياتي، كانت لنا جارة اسمها أم محمد، سألت عنها أمي ذات يوم فقالوا لها تعيشي إنتي. وقالت أمي إن أم محمد ماتت.

أمسكت رأسي بيدي الاثنتين وأجهشت دون بكاء دون دموع، كأنما نسيت البكاء منذ الطفولة ولم تعرف عيناى الدموع. عاد شريف إلى البيت رأني راقدة في الفراش مربوطة الرأس، قلت له: بطة ماتت يا شريف. كأنما أقول أمي ماتت أو أختي أو أخي، وكان أخي طلعت قد مات منذ شهور قليلة، ربما لم يكن وجهي شاحباً مثل هذا الشحوب؛ فلم يكن أخي صديقي في الطفولة، لم يكن بيننا حكايات عن الحب ولم نكن نضحك كثيراً كما كنت أضحك حين تحكي بطة آخر النكت، وأفقت على صوت شريف: البقية في حياتك يا نوال.

ومن يمكن أن يواسيني في هذا اليوم إلا صديقتي صافية أو سامية؟! لم تكن سامية في مصر، كانت في مؤتمر خارج البلد، وبكت صافية عبر الأسلاك حين سمعت الخبر، أغرقتها بالدموع، وسماعة التليفون في يدي أصبحت مبللة.

قلت لها تعالي شوية يا صافية، وجاءت صافية إلى بيتي، جلست إلى جوارِي وأنا راقدة في السرير، حكيت لها عن زيارتي الأخيرة لبطة، كانت تعرف كل شيء، ولا شيء يدهشها، هي أيضاً تعرضت لصدمة من نوع آخر، إلا أنها لم تذهب مثل بطة إلى الشَّيخ المحلاوي، كانت تذهب إلى الدكتور عبد القادر أستاذ الطبِّ النَّفسي، وكان زميلاً لنا في الكلية منذ أربعين عاماً، أصبح يمتلك الخمسة «عين»، ومنها عمارة عالية في مصر الجديدة يسمنونها عمارة «الدُّكتور» إلى جوارها عمارة لا تقل عنها ارتفاعاً يسمنونها عمارة «الشَّيخ»، أصبح الدكتور والشَّيخ متجاورين كما كانا في العصور السَّالفة، ومن الكهنة ورجال الدِّين القدامى انزلق الأطباء إلى التَّاريخ الحديث. كان الليل قد تأخر وصافية تحكي دون انقطاع، ست ساعات مضت وهي متكئة بكوعها على الوسادة دون أن تغير جلستها على السرير، دون أن تتغير نبرة صوتها الخافت، أو تتحرك عيناها الشاخصتان نحو قطعة من السماء وراء زجاج النافذة المغلق، كأنما تهمس لنفسها أو لامرأة أخرى كامنة في أعماقها، أو تخاطب القوة المجهولة داخل هذا الخُصمِّ الأسود الذي اسمه السَّماء، والذي بدأ سواده ينقشع بالتدرُّج ليُصبح رَمادياً بلون الضُّباب، وانتبهت صافية فجأة كمن تصحو من النُّوم وصاحت: يا خبر، النَّهار طلع يا نوال!

– باين عليك تعبانة تحبي أوصلك البيت؟!

– بيت إيه وزفت إيه خليه ينهد على أصحابه!

– نامي شوية يا صافية وبعدين نتكلم.

أغمضت عينيها، راحت في النُّوم وكوعها كما كان في مكانه لم يتغير، حرَّكتها قليلاً لتنزلق الوسادة تحت رأسها، غطيتها بالبطاطين، وأطفأت اللمبة الصغيرة إلى جوارِي، لتغرق الغرفة في الظلمة إلا خيطاً رفيعاً من الضوء الرَّمادي يتسرب من وراء الزجاج. وأغمضت عيني أنشد النُّوم دون جدوى، صوت صافية الهامس يسري كأنما لم ينقطع، أراها إلى جوارِي نائمة مغمضة العينين. ليلة كاملة مضت ونحن نتحدث، تذكّرني بليالي الدَّاخِلِيَّة في حلوان التَّائِيَّة. كنا نقضي الليل كله في حديث متصل، تفتح القلب الذهبي يتدلى من السُّلسلة حول عنقها، تلمم الصورة وخصلة شعر من رأسه، اسمه مرقص أبوه قبطي وأبوها مسلم، هدهدا بالسُّكين لتقطع علاقتها بمرقص. أصابته ذبحة صدرية حين دخل أخوها سعد السُّجن بتهمة الشُّيوعيَّة، أمسكه البوليس وهو يهتف في مظاهرة ضد الإنجليز، وكانت ضابطة الدَّاخِلِيَّة تمر علينا بكشافها، تفتش على نومنا وأحلامنا، لم تكن نحلم إلا بالحب والحرية، وفي ضوء القمر تشتعل فوق صدورنا الحروف «الجلء بالدماء»،

والنَّاطرة تضربنا بالمسطرة فوق أصابعنا حتى تنزف منها الدَّماء، نلف حولها أربطة من الصُّوف، ندفنها تحت البطاطين ونتهامس طوال الليل، نتشاطر الألم والفرح والأمل في المستقبل.

الليل ساكن لا أسمع إلا صوت أنفاسى، وأنفاسًا خافتة إلى جوارى، صفية غارقة في النُّوم، عضلات وجهها مسترخية كأنما نفضت عنها العبء، بشرتها بيضاء إلا خطأً واحدًا داكنًا عميقًا في اللحم يمتد من زاوية عينها اليسرى حتى زاوية الفم، لم ألحظ هذا الخط من قبل، أدرك فجأة أنها لم تعد شابة، لم يبقَ أمامها إلا شهور قليلة وتبلغ السبعين من العمر، إلا أن أنفها وذقنها وشفتيها وكل ما في وجهها يبدو طفوليًّا، كما كانت في المدرسة الثَّنَوِيَّة، ولا شيء يخرجها من الطُّفولة إلا هذا الخط الوحيد الذي بدا أنه ظهر فجأة على وجهها كأنما طعنة مباغطة أصابت نصف وجهها الأيسر، أو صفة حادة غيرت موضع الفك فتحرك نحو الأنف، أكاد أرى الأصابع مرسومة فوق الخد الأيسر، تشبه أصابع زوجها الدكتور مصطفى، كانت له كف كبيرة ضخمة تشبه قدم الفيل.

وعلى مهل ومن دون أن أوقظها طبعتم على خدها قبلة خفيفة كأنَّما بهذه الملامسة السريعة أمسح نصف قرن من الألم الغائر في اللحم.

منذ كتابه عن أبى ذرِّ الغِفَارِيِّ والاشتراكية في الإسلام لم يكتب مصطفى الزهيري إلا مقالات قصيرة تنشرها صحف الحكومة في مصر وصحف حكوميَّة أخرى في عدد من البلاد العربيَّة، تصله المكافآت بالدينار أو بالدُّولار على شكل شيكات، تكون فوق مكتبه قبل النَّشْرِ، إلا أن كلمة الاشتراكيَّة سقطت تمامًا من مقالاته منذ السبعينات، وسقط أبو ذرِّ الغِفَارِيُّ في الثَّمَانِيَّات، ولم يبقَ في التَّسْعِينِيَّات إلا الإسلام ووجه الله الكريم. أعلن الدكتور مصطفى الزهيري في أحد المقالات أنه رأى الله، ومنذ ذلك المقال ظهرت الزبيبة السوداء فوق جبهته العريضة، والسبحة الصَّفراء بين أصابعه لها فصوص تلمع في الظلمة، وأصبح أستاذًا له لحية طويلة بكروسيِّ في أرضي الحجاز بجوار الحرمين الشريفين، وفي مصر أصبح يملك الخمسة «عين»، وعيونًا أخرى تتجاوز أحلام طلبة الطب والكليات الأخرى، ومنها شارع وجامع في مصر الجديدة أصبح يحمل اسم الزهري، ومكتبة كبيرة وقاعة سينما واسعة لعرض الأفلام الدينية في رمضان وموائد الرحمن لليتامى والمساكين.

حين تزوج صفية منذ أربعين عامًا على الوفاء والصدق حكى لها عن حبه الأول لابنة العمدة، حين تزوجت ابن خالتها التاجر بالموسكى، صام عن الطعام ثلاثة أيام، في اليوم

الرَّابِعُ قرصه الجوع، كان يوم الجمعة وأمه تخبز أمام الفرن تساعدوا واحدة من البنات اليتيمات، تكسب قوت يومها بمساعدة النساء في الخبز. حملت أمه الخبز الساخن مع الجبن والمخلل وخرجت إلى زوجها في الحقل، كان يومًا شتويًا باردًا، وقبع الدكتور الزهري — وكان عمره عشرين عامًا — على ظهر الفرن يلتهم الرغيف والبنات اليتيمة الصغيرة كانت تقاومه بذراعيها وساقها، تستحلفه بالله والرَّسول أن يتركها، ولم يتركها وقد تخيلها حبيبته الأولى ابنة العمدة، إلا أنها بلا أم ولا أب، ولن يصيبه أذى إذا انكشف الأمر، وفعلاً ظل الأمر طَيِّ الكتمان، ولم يعرف شيئًا عن البنات منذ حادث الفرن. غادر القرية إلى القاهرة، استأجر غرفة في شارع الملك. كانت له مع البنات والنساء مغامرات، حكى لصفية عنها بزهو كثير، كأن الفساد الأخلاقي هو الرجولة، وسألها عن حياتها السابقة، كانت صفية عذراء لم يمسه بشراً، إلا أن قلبها مليء بالإثم. في المدرسة كانت تعلق في عنقها صورة مرقص، لم تعرف في حياتها إلا هذا الحب العذري، لم يقبلها أحد على شفيتها أو خدها، حرقت الصورة ومعها الذكرى قبل الزواج، وفي ليلة الزفاف أرادت أن تقول الصِّدق، حكى لزوجها قصة حبها الوحيدة، نسي كل شيء في الكون إلا هذه القصة، وإن شردت عينها لحظة نحو السماء بعد أربعين عامًا يسألها: بتفكري في الدكتور مرقص؟!!

— كان عنده شك فيكِ يا صفية رغم السنين دي كلها؟!!

— أبدأ، كان عنده شك في نفسه طول الوقت، رغم جسمه الطَّويل العريض وغزواته مع البنات والسيدات كان عنده شك في رجولته، ودايمًا يبلع فيتامينات ويشترى برطمانات زيت كبد الحوت وملكات النحل، وكل ما يسمع عن أقراص جديدة للتنشيط الجنسي يشتريها، حتى حبوب الفياجرا، لكن المشكلة مش الجنس، المشكلة الشرخ في الشَّخصية من الطفولة، الفساد اللي ينخر في العضم، أبوه كان كده وجده، ويظهر إن معظم الرِّجال بالشكل ده إلا القليل جدًّا، ويمكن كلامك صحيح يا نوال عن النظام الطبقي الأبوي، كنت دايمًا أعارضك وأقولك طبقي إيه وأبوي إيه، لكن أخيراً فهمت بعد أربعين سنة جواز وكنت مش عارفة حاجة، ومشغولة بالعيال والشغل في المستشفى، وهو كان المدير لا شغل ولا مشغلة، يبجي آخر الليل ويقول كان في اجتماع مع الوزير، وبعد ما انحال على المعاش بقت الحجة السَّفَر في المؤتمرات، والحقيقة إنه كان متجوز واحدة ثانية، وعاش معاها أكثر من عشرين سنة وأنا مش داريانة، ولما عرفت قالي ده حقي حسب القانون والشرع، وإن كان مش عاجبك نعمل طلاق، قلت له نعمل طلاق، راح رافع إيده وضربني، حسيت إن عيني الشمال طارت، ولعن أبويا وأمي وقال: كان لازم أطلقك من أربعين سنة من أيام سي مرقص أفندي بتاعك!

أوراقى ... حياتى (الجزء الثالث)

بعد ساعة نهضت صفية وعادت إلى بيتها، لم يطلقها زوجها ولا هي طلبت الطلاق،
جاءني صوتها مستسلماً عبر أسلاك التليفون: طلاق بعد أربعين سنة يا نوال وأروح فين؟
... أبويا مات وأمي ماتت والعيال اتجوزوا وما عنديش بيت إلا بيتي، يروح هو مطرح ما
يروح وأنا في بيتي لغاية ما أموت، وعندى معاشى ومش عاوزة حاجة من حد، ولكن أي
بنت تسألنى: «أقول لخطيبى بصدق عن حياتى قبل الخطوبة؟» أقول لها: «تبقى حمارة
لو قلتى والدنيا دي ما ينفعش فيها إلا الكذب!»

الشُّرفة في الدور السَّادس والعِشرين

يوم من أيام يوليو الحارَّة عام ٢٠٠٠، أجلس في الشُّرفة المطلَّة على النِّيل في الدور السَّادس والعشرين، مُنذ عودتي من المنفى وأنا أعيش في هذه الشُّقَّة الصَّغيرة في حي شبرا القديم، أعيش المنفى داخل الوطن كما عشته في الخارج. لم يعد هناك داخل وخارج، أو شرق وغرب، أو شمال وجنوب، أو العالم الإسلامي والعالم المسيحي. نحن نعيش في عالم واحد يحكمه نظام طبقي أبوي منذ نشوء العبودية، تغيّرت أشكال العبودية تحت أسماء جديدة؛ منها العولة وحرية السوق، والخصخصة والخصوصية، يتربع على قمة النظام العالمي الجديد أقل من خمسمائة شخص يملكون أكثر من نصف ثروة العالم، ويعيش مليار ونصف من البشر تحت خط الفقر، أغلبهم نساء وشباب وأطفال، يعيشون داخل هذه البيوت على شكل العشش، أراها من حولي، تمتد من شبرا إلى إمبابة وبولاق وروض الفرج، ومن نزلة السمان عند سفح الأهرامات إلى القلعة والسيدة زينب وسفح المقطم، تتساند البيوت القديمة الآيلة للسقوط إلى جوار المباني الجديدة الفاخرة، يتربع على العرش في بلادنا قلة قليلة تملك الثروة والسلطة والسلاح، والاتصالات بالخارج، من حولها نخبة مثقفة تعيش في كنفها، تُحوّل جرائمها إلى بطولات. تحت اسم الدِّيموقراطية يتم ذبح الدِّيموقراطية، تحت اسم حقوق الإنسان يتم ذبح حقوق الإنسان، تحت اسم حقوق المرأة يتم ذبح حقوق النساء. من يختلف في الرأي عن الفرد الحاكم أو الأفراد الحاكمين يجد نفسه في السُّجن دون محاكمة، أو محاكمة شكلية تختفي فيها العدالة، يفقد الإنسان سمعته الأدبية أو الوطنية، يتحول من مُدافع عن حقوق الفقراء والنساء إلى خائن للوطن، يتم اختزال الوطن إلى أفراد قلائل أو فرد واحد يجلس على العرش، مثل فرعون القديم الحاكم والإله في آن واحد.

حين يبلغ الحزن مداه تعجز العين عن الدمع، تكف الحواس الخمس عن الإحساس، لا يبقى إلا الحاسة السادسة، المجهولة الغائرة في أعماق الجسد والعقل والتاريخ، القدرة وحدها دون الحواس الأخرى على إدراك أن الأرض تدور رغم السكون، أن الزمان يلتحم بالمكان، لا شيء يفصل الروح عن الجسد أو الإله عن الشيطان أو المرأة عن الرجل. منذ أيام قليلة أصابني غثيان شديد وقيء، رقدت في الفراش لا أستطيع الحركة، تصورت أنها النهاية، طلبت حضور ابنتي وابني لأراهما قبل مغادرة الدنيا، الاثنان الغاليان هما قطعة من جسدي وعقلي، ثالثهما شريف رفيق العمر منذ خمسة وثلاثين عامًا، الأسرة الصغيرة الدافئة العواطف، تختلف عن أغلب الأسر الخاضعة لسيطرة رجل واحد، أسرتنا لا يسيطر فيها أحد، لا رجل ولا امرأة ولا ابن ولا ابنة، كلنا سواسية، يدور بيننا الجدل حتى نصل إلى القرار الأصوب.

قالت ابنتي: ماذا أكلت بالأمس يا أمي؟

قلت: لم أكل إلا بطيخًا مع جبنة بيضاء قريش.

قال شريف: هناك حالات تسمم بسبب البطيخ أو الخيار أو الخوخ، يرشونها بالمبيدات الحشرية، أو يحقنونها بالهرمونات، يستوردون أغذية من الخارج غير صالحة للبشر، يرسلونها إلى بلادنا الإفريقية بمثل ما يرسلون النفايات النووية لتُدفن في صحرائنا الشرقية أو الغربية، أصيب بعض الفلاحين في قرية ميت حلفا بمحافظة القليوبية بإشعاع نووي وماتت أسرة بكاملها، ويعيش سكان القرية تحت رعب الإشعاع، وهناك تكتم شديد على هذه الأخبار الأخيرة، لا نعرف بالضبط ماذا حدث ... لكن بعض الحقائق تتسرب إلى الصحف.

اشتد الغثيان والدوار، قلت لشريف ولابنتي وابني: لا أريد أن أدفن في مقبرة تحت الأرض ليأكل جسدي الدود، أريد أن أتبرع بجسدي إلى مشرحة عادلة، تشرح جسدي وتعرف الأسباب الحقيقية لهذا التسمم الغذائي، وأرجو محاكمة المسؤولين الكبار عن مشروعات التنمية والإصلاح الاقتصادي، التي أدت إلى مزيد من الفقر والجهل والمرض.

سمعت صوتي يصرخ وأنا في الفراش، لازم الناس دي تتحاكم محاكمة علنية عشان الناس تعرف. رأيت حوالي ثلاثة من الأطباء، شخّصوا الحالة تسممًا غذائيًا، أخذت العلاج ثم تماثلت للشفاء بعد أن فقدت شهيتي لجميع أنواع الفاكهة في مصر.

أجلس في الشرفة العالية، أطل على أسطح البيوت القديمة الآيلة للسقوط، جسمي لا يزال ضعيفًا بعد النقاهة من المرض، أشعر بالدوار كلما حرّكت رأسي، كأنما سأفقد

الوعي. فكرة الموت تلوح قريبة مني، أتذكر أُمي حين ماتت ويدها في يدي، أكاد أحس يدها تمسك يدي، رغم مرور أكثر من أربعين عامًا على موتها، وجه أبي يلوح أمامي كأنما مات بالأمس، كنت في أول الشَّباب أتفتح كالزهرة المغلقة الأوراق، لا أعرف شيئًا عن جرائم الإله المتنكر في زي فرعون، لا أحد يحاسب الإله، يعيش ويموت ملفوفًا بالعلم المقدس، ويُساق إلى المقصلة كبش فداء من عامة الشَّعب، يطلقون عليه اسم الشَّيطان. رجل فقير نطق الحقيقة دون أن يدري، أو فتاة صغيرة غريرة حملت سفايحًا ولم تعرف من الذي اغتصبها في ظلمة الليل، ربما هو الإله ذاته المتنكر في ثوب رب العائلة الكبيرة أو الصغيرة، تسقط عنه الجريمة بحكم القوة أو القدسية، تُساق الفتاة إلى الموت أو إلى الزَّواج ممن اغتصبها؛ حماية لشرف العائلة.

تغيرت الأشياء عبر أربعين عامًا، تضامنت النِّساء المقهورات تحت اسم الشرف مع الرِّجال المقهورين تحت اسم الفقر. بدأ الترابط بين القهر الجنسي والقهر الاقتصادي، أخطر ما يهدد النظام الحاكم هو هذا الترابط، بين الجنس والاقتصاد. منذ نشوء العبودية حتى اليوم، كيف يغتصب الإله الفتاة العذراء في الظلمة وكيف يسرق قوت الفقراء من الشَّعب، كيف ينجو من العقاب تحت اسم السيادة أو القدسية، ربما يحاكم بعد الموت، ربما ينقلب عليه بعد الموت أحد أعوانه ويكشف جرائمه تحت اسم «عودة الوعي».

قبل أربعين عامًا كنت في ربيع الشَّباب، اليوم أنا في مكان آخر وزمان آخر، أشعر بشيء من الوهن بعد النقاهاة من التسمم الغذائي، أشعر بشيء من التفاؤل كلما زاد الترابط بين المقتولين تحت اسم التنمية والإصلاح الاقتصادي. رغم المحاولات لضرب التَّضامن بين هؤلاء وهؤلاء فإن المقهورات والمقهورين لا يكفون عن التمرد والثورة والاستمرار في الكفاح ضد النظام الحاكم وأعوانهم من النُّخبة المثقفة.

يحدث هذا في مصر وفي بلاد العالم الأخرى، تتكرر المظاهرات الشَّعبية في عواصم الغرب والشرق، والشمال والجنوب، ضد الآلهة في واشنطن ولندن وباريس ودمشق والرياض والقاهرة والخرطوم وبغداد وتونس والرباط وموسكو وطوكيو وبكين وغيرها وغيرها، يتجمع الآلهة في اجتماعات القمة هنا وهناك تحت اسم العولة والديموقراطية وحقوق الإنسان وحقوق النِّساء، ويتجمع الشياطين المقهورون والمقهورات في مظاهرات في الشوارع تحت اسم العولة من أسفل، يضربون الآلهة بالحجارة والطوب والزلط، يرد الآلهة بالقنابل النووية والمسيلة للدموع.

قرأنا عن المظاهرات فى سياتل فى خريف ١٩٩٩، ومظاهرات أخرى تتكرر، آخرها المظاهرات فى جنوب فرنسا فى أول يوليو ٢٠٠٠، تجتمع الرجال والنساء والشباب والأطفال وضربوا معادل الآلهة، منهم «ماكدونالد» الإله القوي الذي يلد نفسه فى جميع بلاد العالم، و«سينسبرى» الإله الجديد المنافس للآلهة القدامى، وفى شارعنا الذي يسمونه شارع معهد ناصر فتح «سينسبرى» محلاً ضخماً، أطلق عليه اسم «سينسبرى أغاخان»، ليست منطقة أغاخان الثرية المجاورة لنا، ولكن منطقة حي شبرا القديم الفقير. جاء هذا السوبر ماركت البريطاني الجديد ليضرب محلات البقالة الصغيرة والمنتجات المحلية المصرية، وليملأ شارعنا بالصناديق الفارغة والقمامة والذباب دون أن تحاسبه وزارة البيئة المصرية، رغم أنها تحاسب المحلات المصرية الفقيرة حساباً عسيراً، وقد تأمر بإغلاقها إن لم تتخلص من قمامتها أو ما يسمونها النفايات. حاولنا أنا وشريف مع سكان الحي الفقير أن نعترض على النفايات المتراكمة فى شارعنا، التي يلقي بها السوبر ماركت اللامع البلاط «سينسبرى» إلى عرض الشارع الذي نعيش فيه، نهبت محاولتنا حتى اليوم عرض الرياح، لم يتحرك مسئول واحد فى الحكومة المصرية لحماية حي شبرا الفقير من نفايات الإله البريطاني الجديد.

يدور الصراع غير المتكافئ بين الآلهة الكبار القليلين المالكين للإعلام والسلاح والمال، وبين الملايين من الشعوب الفقيرة المعدمة من النساء والرجال، يلعب الإعلام دوراً أمضى من السلاح العسكري. بالأمس قرأت فى بعض الصحف المصرية تشويهاً للمظاهرات الشعبية الأخيرة فى جنوب فرنسا، كتب أحد رؤساء تحرير صحيفة حكومية يقول فى ١ يوليو ٢٠٠٠ التالي: شهدت فرنسا مظاهرات شعبية مؤيدة للشذوذ الجنسى ضمن الهتافات ضد العولمة، تحولت هذه المظاهرات إلى ما يشبه الظاهرة العالمية لتشجيع الشذوذ الجنسى تحت اسم محاربة العولمة والشريعة الدولية، وقد قطع الرجال والنساء فى الغرب شوطاً كبيراً فى قبول الشذوذ الجنسى كأنما هو شيء طبيعى، مع أنه انحراف أخلاقي خطير، وقد شارك فى هذه المظاهرات مئات الألوف من الشعب الفرنسى تتقدم صفوفهم الأحزاب السياسية المختلفة ومنظمات حقوق الإنسان؛ فهل يمكن لنا أن نؤيد مثل هذه المظاهرات المنتشرة فى الغرب اليوم؟! نحن بلاد شرقية لنا خصوصية دينية وقيم نابغة من تراثنا وثقافتنا وهويتنا الأصلية، ولا نقبل أن ننساق وراء هذه الإباحية والشذوذ الجنسى الخطير!

هكذا تم الربط بين المظاهرات الشعبية ضد العولمة وضد كافة أشكال القهر الاقتصادية والجنسية إلى مجرد مظاهرات ضد القيم والأخلاق والخصوصية والهوية.

جسدي ينتفض بالغضب وأنا أقرأ الصُّحف، أكتشف الزيف بحكم خبرتي ومشاركتي في بعض هذه المظاهرات الشَّعبية العالمية، التي كسرت الحواجز بين النَّاس، حواجز الدين أو الجنس أو الجنسية أو العِرْق أو اللون أو المهنة أو غيرها. كنت أجد نفسي بين آلاف البشر بصرف النظر عن اختلافاتنا نهتف معاً ضد هؤلاء القلة من الآلهة الذين يتربعون على العروش في جميع البلاد، وأسمع صوت شريف يقول: هذا الغضب يا نوال مُضِرُّ بصحتك، وأنتِ لا زلتِ في دور النقاهاة بعد هذا التسمم الغذائي، علينا أن نحافظ على صحتنا. وأقول له: معك حق يا شريف، لكن كيف لا أغضب وأنا أقرأ هذا التزييف اليومي تحت اسم الهوية والخصوصية واحترام الاختلافات الثقافية، يشجعون الخصخصة وضرب الاقتصاد المحلي، وتحت اسم العولمة من أعلى يضربون العولمة من أسفل.

كان معنا تلك الليلة صديق قديم لشريف، اسمه عادل أمين، وهو محام معروف، تولى الدفاع عني حين دخلت السُّجْن عام ١٩٨١، جاء في زيارة لنا تلك الليلة يحمل زجاجة نبيذ وكتاباً جديداً سجل فيه وقائع محاكمة الشيوعيين عام ١٩٥٣، ضحك عادل أمين وهو يجلس معنا في الشرفة العالية، يرشف من كأسه على مهل، وقال: لا بد لنا من نبيذ عمر الخيام يا دكتور شريف حتى نتذكر هذه المحاكمات منذ سبعة وأربعين عاماً، وفي هذا الجزء من كتابي نقلت أقوالك في التحقيق عام ١٩٥٣، وأقوال الدكتور إسماعيل صبري عبد الله وغيره من قيادات الشيوعيين، وسوف تكتشف الفرق الكبير بين أقوالك في التحقيق وأقوالهم، وأنت يا شريف إنسان صادق مستعد أن تدفع حياتك لتعبر عن رأيك، وهذا واضح في التحقيق معك، لكن بعض زملائك الشيوعيين لم يكونوا كذلك، لقد دخلوا السِّياسة لأهداف أخرى مثل الحصول على منصب وزير أو رئيس وزراء أو جوائز الدَّولة، وأنت لم تحصل على شيء من هذا، لكنك حظيت باحترام الجميع وأنا منهم.

تركت شريف وعادل أمين يتبادلان الذكريات عن التحقيقات، أخذت الكتاب إلى غرفتي لأقرأ ماذا قال شريف حتاتة في ذلك التحقيق عام ١٩٥٣، ذلك العام كنت طالبة بكلية الطب، أعاني ما يعانیه أحمد حلمي والفدائيون الذين شاركوا في حرب القنال عام ١٩٥١، أصبحوا كبش الفداء بين صفقة الحكومة المصرية والاحتلال البريطاني، مات بعضهم على أرض المعركة، مات بعضهم في المنفى في الخارج أو في الداخل، من عاش منهم أصابه المرض النفسي أو الإدمان من أجل النسيان، حتى اليوم لم يورِّخ أحد لهذه الفترة من حياة مصر، سقطت أسماء هؤلاء الفدائيين الشهداء في العدم.

تحت اللمة الكهربية فى غرفتى فتحت كتاب عادل أمين وقرأت أقوال شريف حتاتة فى التحقيق:

ذكر شريف أنه قُبض عليه فى ٣ نوفمبر ١٩٥٣ الساعة الرابعة صباحًا، وأودع السُّجن الحربى، وتم التحقيق معه يوم ٥ نوفمبر ١٩٥٣، وقيل له إنه مقبوض عليه بأمر من مجلس قيادة الثورة، وعومل بطريقة غريبة، السُّجن الانفرادى المطلق لمدة أربعة شهور محرومًا من كل شيء، صحف أو كتب أو الاتصال بعائلته أو بمحامٍ، وضرب عدة مرات ضربًا مُبرِّحًا، وكُبل بالحديد الخلفى والحديد فى الأرجل، وهدده ضابط المخابرات أحمد محمود بالشنق، وبالاعتداء الجنسى، والانتقام من أفراد عائلته إن لم يُدَلِّ بالأقوال التى يريدتها، كما هدده عدة مرات بالاعتداء عليه وشنقه داخل زنزانته. لم يصدر أمر من النيابة العامة بحبس شريف حتاتة إلا فى ١٥ مارس ١٩٥٤، ونُقل إلى سجن مصر بأمر حبس عسكري، مطلوبًا تقديمه لمحكمة الثورة وإعدامه مع بعض زملائه، لولا أن هذه المؤامرة أُحبطت. كان التحقيق يجرى فى ظل الأحكام العرفية. وقال شريف فى التحقيق: إن الشعب المصرى يريد الكفاح المسلح فى القنال لطرده الاحتلال، وإن النيابة مشتركة فى الجريمة ضده، وإنه يحتجُّ على هذا الإرهاب. وأضاف أن التعذيب أدى إلى إصابة زميله كمال عبد الحليم باختلال فى قواه العقلية، وعولج بالصددمات الكهربية فى المستشفى العسكرى، ومَرِضَ الآخرون بحالات عصبية وجسمية يحملونها معهم بقية العمر.

وتم مع شريف حتاتة ضبط مطبوعات كالتى: ست نسخ من نشرة صوت الفلاحين، ست عشرة صفحة مكتوبة بالآلة الكاتبة ومطبوعة بالرونىو فى شكل كتيب صغير، الصفحة الأولى منها عبارة مأثورة عن فردريك إنجلز تقول: «بغير نظرية ثورية لا يمكن أن توجد حركة ثورية»، وفى الختام عبارة تقول: «رجال الحكم فى مصر يتعاونون مع الاستعمار لا يستطيعون مواجهة الشعب إلا بالدابابات والمشانق ومحاكم الثورة»، ثم هذه العبارة الأخيرة: «تسقط جمهورية الدكتاتورية العسكرية وتحيا الجمهورية الشعبية الديمقراطية». وقد حُكم على شريف حتاتة بعشرة أعوام سجن مع الأشغال الشاقة، أداها بالكامل داخل سجون مصر، لم يُطلق سراحه إلا عام ١٩٦٣، وظل تحت المراقبة عدة سنين بعد ذلك، حتى غادر مصر عام ١٩٧٣، ثم عاد إلى الوطن عام ١٩٨٠.

وفي عام ١٩٨١ دخلت أنا السَّجن وبقي شريف خارجَه، وعشنا المطاردة عدة سنوات حتى ١٩٨٨، حين دخل اسمي قائمة الموت. وفي عام ١٩٩١ وجهت إلينا الحكومة ضربة كبيرة بسبب وقوفنا ضد حرب الخليج. وفي عام ١٩٩٢ كان لا بد من السَّفر خارج الوطن حمايةً لأرواحنا، ثم عدنا إلى الوطن بعد ستة أعوام في المنفى، وها نحن نعيش المنفى داخل الوطن، في تلك الشقة الصغيرة، تكاد تشبه العُلبَة من الأسمنت المعلقة بين السماء والأرض في الدور السادس والعشرين في حي شبرا القديم، لولا هذه الشرفة العالية المطلة على النيل والفضاء الواسع، لولا انهماكنا في الكتابة الإبداعية، ولولا زيارات الأصدقاء القدامى والصديقات الجديديات من الشابات والشباب ... ربما أصابنا الاختناق أو الموت بالذبحَة الصدرية أو التسمم الغذائي.

في هذه الشرفة جلس في الليل، شبورة سوداء ترقد تحتها مدينة القاهرة، المأذن وقباب الكنائس تغرق في الخِصْم الأسود على حد سواء، أصوات صاحبة ترتفع من خلال مكبرات الصوت، تراتيل دينية بصوت ذكوري خشن، وتراتيل غنائية بأصوات المطربات وراقصات يطرقعن بالصاجات، رائحة الهامبرجر الأمريكي تتصاعد من قُمامة سينسبري البريطاني فوق الشَّاشَة، وفي الإذاعات تتكرر الصورة الواحدة والصوت الواحد للحاكم الإله، من حوله رجال ونساء البلاط.

قلبي ينوء بالحزن على هذا الوطن، ستون مليوناً من البشر يعيش نصفهم تحت خط الفقر، أغلبهم نساء معذبات داخل البيوت، يعانين إلى جانب الفقر الاغتصاب الجنسي داخلَ الزَّواج أو خارجَه، يقهرهن رجال العائلة بمثل ما يقهرهن رجال الدَّولة.

منذ ولدت في بداية الثلاثينيات وأنا غاضبة ثائرة ضد هذا الظلم منذ الطفولة أحلم بعالم آخر، أبحث عن شيء لا أعرف ماذا أسميه، تعجز اللغة الطبقيّة الأبوية عن التعبير عنه، ليس هو الحب الذي يتغنى به هذا العالم المزدوج الوجه، وليس هو الإله الذي يعبده الرِّجال ويضعهم في درجة أعلى من النِّساء.

شيء أبحث عنه لا أجده في هذا الكون، قد يجذبني البريق في عيني الإنسان أو الإنسانية، أنتبه كالعشب الحساس العاري، أبحث تحت البريق عن الشيء العميق، أنخدع وأخدع نفسي المرة وراء المرة، ثم أفيق بعد عام أو عامين أو عشرين عاماً، أكتشف جزءاً من الحقيقة التي تتخفى مثل جبل الثلج، يتراكم الحزن في قلبي العامَ وراء العام، لا شيء إلا الحزن حين أواجه الحقيقة في هذا العالم.

مفتوحة العينين أحملق فى وجه الموت، أحملق فى وجه الزيف، فى وجه فرعون الإله حاكم البلاد، أثبت عيني وهو جالس فوق المنصة العالية، أشير إليه بإصبعى وأقول له: أنت أول من يحاسب عن الظلم والفساد والفقر فى هذا البلد وليس نائبك أو مندوبك؛ لأنك الوحيد الذى تقبض فى يدك على السلطة المطلقة، ومن يملك السلطة هو المسئول. لكنهم يفصلون بين السلطة والمسئولية، كلما ازدادت السلطة اكتسب الحاكم حصانة أكبر، مثل الإله يصبح مسئولاً عن الخير فقط، أما الشر فهناك كبش الفداء أو الضحية، يسمونه الشيطان أو حواء الآثمة، أى النساء الفقيرات المغتصبات جسدياً واقتصادياً تحت سطوة القيم الطبقيّة الأبوية.

فى المرآة أرى سحابة الحزن تكاد تُخفى البريق القديم فى عيني، أجلس فى الشرفة العالية أطل على المدينة، القاهرة لأهلها المقهورة بحكامها، أقاوم الحزن بالكتابة، أحب ملمس القلم بين أصابعى، الأوراق متراكمة فوق مكتبى بخط يدي، تُطل من داخل الغلاف البرتقالي مكتوب عليه: أوراقى حياتى، الجزء الثالث. مفكرتى الصغيرة غلافها أزرق تشبه الكشكول فى طفولتى عام ١٩٤٢، مكتوب عليها ٢٠٠٠. ثمانية وأربعون عاماً مضت منذ بدأت أكتب فى مفكرتى السرية، لم يعد عندي أسرار، كتبتها كلها ونشرتها على الناس، تحولت من ذكريات مكبوتة تبعث على الحزى والعار إلى قيمة علمية وأدبية يدرسها الطلاب والطالبات فى جامعات العالم، ما عدا الجامعة المصرية.

هناك مثل شائع يقول: «لا كرامة لنبي وسط أهله.» أحياناً أدرك أن الحظ يحالفنى؛ لأننى أعيش ولم يغتلبنى أحد بعد، أفرد ذراعى عن آخرهما وأخذ شهيقاً عميقاً، أشعر بحرية الخروج من دائرة المألوف، أتذكر أبى منذ اثنين وأربعين عاماً حين ترك الحكومة المصرية، فرد ذراعيه عن آخرهما وقال: أخيراً تحررت بعد ثلاثة وثلاثين عاماً عشتها رهين المحبس، الوظيفة الحكومية وسرير الزوجية!

ضحك شريف وقال: أبى أيضاً مثل أبىك تحرر من الحكومة بعد الإحالة إلى المعاش. لكنه تحرر من سرير الزوجية قبل ذلك يا شريف كان أبى مخلصاً لأمى، لم يكن يفصل بين الإخلاص للزوجة والإخلاص للوطن. قال شريف: أنت مثالية يا نوال، كل شيء نسبي فى الحياة، لا يوجد إخلاص مائة فى المائة. قلت: كم تستخدم نظرية النسبية يا شريف لتبرير كثير من الموبقات فى العالم! ضحك شريف وقال: وكم من موبقات أكثر تحدثت تحت اسم المثالية والمطلق.

يدور الحوار بينى وبين شريف ونحن جالسان فى الشرفة، ستة وثلاثون عاماً منذ تزوجنا ونحن فى حوار دائم، نُطل من الشرفة العالية على القاهرة من أهرامات الجيزة

إلى جبل المقطم والقلعة، مساحات من الأسمنت بلا شجرة خضراء أو حديقة للأطفال، قطعوا الأشجار وزحفت الجدران على الزرع، جدران سوداء بلا نوافذ، أو نوافذ كالشقوق داخل الشقق، كالعُلب المستوردة، يحفظون فيها الفاصوليا وحبوب الصويا، داخل كل علبة تكدست الأجسام، الجد والجدة والأب والأم والأولاد والبنات والأحفاد والحفيدات، والأعمام والأخوال والخالات والعمات وأولادهم وبناتهم، يرقد اللحم إلى جوار اللحم في غرفة واحدة، يدس الواحد منهم إصبعه في عين الآخر دون أن يراه، يدخل قضيب أحدهم في ثقب مظلم داخل الجدار أو داخل اللحم، لا يُعرف في الظلمة الجدار من الجسد. لا شيء يتحرك في النُّوم إلا الأشباح وأرواح الجان، ورد ذكرهم في كتاب الله، كلهم يؤمنون بالكتاب وبالأرواح الخفية، ينامون دون أن يتكلم أحد في النُّوم، في النهار يسرون بعيون نصف مغمضة، لا أحد ينطق بشيء مما يدور في عقله، إنهم يعيشون تحت حكم قانون الطوارئ يشبه قانون الأحكام العرفية، إن نطق أحدهم بما يدور في رأسه أخذه إلى السِّجن دون تحقيق. بالأمس وافق مجلس الشَّعب على مد العمل بقانون الطوارئ ثلاثة أعوام أخرى حتى عام ٢٠٠٣، وبعدها لا أحد يعرف الغيب إلا الله والسَّيِّد الرَّئيس.

بالأمس اعترض مجلس الشَّعب على حق المرأة في السفر دون إذن زوجها، قلت لابنتي: أنتِ أكثر حرية من أمك لأنك غير متزوجة. قالت ابنتي: ولماذا تزوجتِ يا أمي؟ قلت: لم يكن ممكناً أن أنجب أطفالاً منذ أربعين عاماً دون زواج، أنا لا أومن بورق الزَّواج أو شهادة الطب أو الأدب أو شهادة الميلاد أو الوفاة، لكنني تزوجت بعقد مكتوب ليكتسب أطفالاً الشَّرعية، لكن اليوم لم يعد عقد الزَّواج الرسمي صالحاً، لم تعد النِّساء خاضعات مكسورات، أغلب الشَّابات المثقَّفات يرفضن الزَّواج الرَّسمي، بدأت أنواع أخرى من الزَّواج غير الرَّسمي تنتشر مثل الزَّواج العرفي وزواج المسيار، وزواج الدم، وكلها تتحدى الزَّواج الرسمي المختوم بالنسر.

في هذه الشُّرفة في الدور السادس والعشرين يدور الحوار بين أجيال مختلفة من الشَّباب والشَّابات، من عمر ابنتي، وعمر ابني، أرمقهم بإعجاب ... عيونهم لم تعد منكسرة، رءوسهم لم تعد مُطَّرقة إلى الأرض، عيونهم لم تعد نصف مُغمَّضة، يتحاورون ويعبرون عما يدور في عقولهم دون خوف.

وقال شريف: سيكون المستقبل أفضل من الحاضر يا نوال! قلت: لكننا لن نكون هنا يا شريف. قال: لا يهم أن نكون هنا بأجسامنا لكن أفكارنا ستكون موجودة في الكتب.

وسأل بدهشة: أيكون الورق أطول عمراً من البشر؟! ألهذا لجأ الآلهة أيضاً إلى الكتب من أجل البقاء؟! من أجل البقاء؟! من أجل البقاء؟! من أجل البقاء?!

مِن مَّفكرتي السَّرِيَّة عام ١٩٤٧

اليوم ٩ يوليو ٢٠٠٠، تجمع في بيتي أعداد من الشابات والشباب، أسسوا جمعية جديدة باسم النهضة الفكرية للمرأة المصرية. بدأت معاكسات وزارة الشئون الاجتماعية، رفضت تسجيل الجمعية في مارس الماضي، لكن العضوات والأعضاء أصروا على مواصلة العمل، أنظر إلى وجوههم، أتذكر نفسي منذ أربعين عامًا، حين كنت في مثل هذا العمر، ربيع الشباب، يعود إليّ حماسي كما كنت في العشرين أو الثلاثين، ابنتي منى وابني عاطف جزء من هذه النهضة الفكرية والفنية الجديدة، هذه الوجوه تشبه ابنتي وابني، كأنما ولدتهم جميعاً في مكان وزمان لا أدري عنه شيئاً.

لا شيء يعيد إليّ التفاؤل والأمل مثل العمل الجماعي، هذه الوجوه الشابة المليئة بالتفاؤل والأمل، عيونهم يكسوها البريق، يبتسمون ويضحكون، يتحركون في بيتي كأنما بيتهم، يدخلون إلى المطبخ، يصنعون الشاي، يقطعون فطيرة الذرة، ثم تتولى واحدة منهم إدارة الاجتماع، شابة في الخامسة والعشرين اسمها ابتسام، تكتب الأدب والشعر، تخرج إلى المظاهرات ضد الفساد في الدولة والعائلة، خاضت تجربة الزواج والأمومة، خرجت من التجربة برواية جديدة طويلة وطفلة عمرها ثلاثة أعوام، تحملها معها في كل مكان، تدرّبها منذ الطفولة على رؤية العالم، والتحدي، تعيش وحدها مع طفلتها، تنفق عليها من راتبها الشهري، تشتغل في إحدى الصحف الجديدة، تحصل على ما يكفيها ويكفي طفلتها ... قالت ابتسام في الاجتماع: أنا امرأة سعيدة أستمتع بالحياة دون حاجة إلى رجل. قال أحد الشباب: ليس كل الرجال متخلفين. ضحك الجميع، وقال شاب: أغلبهم متخلفون، لا بد

من الاعتراف أن قلة نادرة من الشَّبَاب تخلصوا من عقدة الذكورة. وقالت إحدى الشابات: لا بد من الاعتراف أن قلة نادرة من الشابات تخلصن من عقدة الأنوثة.

يدور الحوار بينهم وهم جالسون في صالة بيتي، أستمع إليهم، ربما هم هؤلاء القلة النادرة، وإلا فلماذا جاءوا إليَّ أنا بالذات؟! وقالت ابتسام: قرأت كتبك يا دكتورة نوال وتغيرت حياتي كلها، استطعت أن أحول كل تجربة مؤلمة مرتت بها إلى عمل إبداعي. هذه الكلمات ترنُّ في أذني كالموسيقى، كالماء يروي الزهرة، كالهواء النقي يدخل صدري، يطرد الغبار والحزن واليأس، أتلفت حولي وأرى الفقر يشدد، الجهل يشدد، المرض يشدد، التلوث المزمّن القديم منذ عهود الملكية والإقطاع: «الفقر، الجهل، المرض»، هذا التلوث يتجسد أمامي أينما ذهبت، كأنما لم يتحرك الزمن منذ كنت طفلة في السابعة من العمر.

لكن هذه الوجوه الشابة تعيد إليَّ التفاؤل والأمل، تقول ابتسام: لسنا قلة نادرة يا دكتورة نوال، نحن أغلبية هذا الشعب، الأغلبية الصامته التي لم يكن لها صوت، أصبح لنا صوت، ربما ضعيف في مجموعة صغيرة لكنَّ صوتنا سوف يكبر ويكبر. تطلق ضحكة مرحة يشاركها الجميع الضحك، أضحك معهم، أسمع صوت ضحكتي بأذني، أستعيد طفولتي وشبابي، يتسرب الألم من جسدي والحزن، أنهض بحركة خفيفة كأنما في العشرين من العمر، كأنما تلاشت أربعون سنة من عمري، أياكون الزمن هو الوهم؟! أتكون الشيخوخة هي المرض المؤقت لا يشفيه إلا الأمل؟!

همست لشريف في الليل، سأعيش حتى القرن الثَّاني والعشرين، ضحك شريف وقال: بالأمس قلت يا نوال إنك ستموتين غدًا. نعم يا شريف، كان ذلك بالأمس، لكن اليوم أنا شابة من جديد، ما رأيك في كأس من النبيذ وقليل من الفول السوداني، وكثير من الحب؟! يضحك شريف، الساعة الآن الثالثة صباحًا يا نوال. إيه يعني يا شريف؟! ولية تبص في الساعة؟! تعود شريف أن ينام والساعة حول مِعصمه، وخاتم الزَّواج حول إصبعه، أي خاتم، ولا أعرّف بأي خاتم.

يقول شريف عنها: «الفوضى الضرورية لأي نظام»، نحن في حاجة إلى شيء من الفوضى لندرك النظام، شريف كان يدرس معي في جامعة ديوك المادة الجديدة التي أطلقنا عليها اسم «التمرد والإبداع». حين التقيت بشريف لأول مرة منذ ستة وثلاثين عامًا قلت له: أنت يا شريف متمرد ومبدع، في أعماقك حنين للفوضى رغم مظهرك الخارجي المنظم جدًّا. أصبحت نظرية الفوضى في علم الكون الجديد جزءًا لا ينفصل عن النظام، وفي علم الفلسفة الجديد أصبح الشَّيطان جزءًا من الإله، تلاشت الثنائيات الباطلة الموروثة منذ

نشوء العبودية؛ ومنها ثنائية الذكر والأنثى والحاكم والمحكوم؛ أل هذا السبب لا أترف بأي حكومة في العالم؟! تشترك الحكومات جميعاً في بعض الصفات الأساسية، على رأسها القهر والتضليل، ما إن ترن كلمة «حكومة» في أذني حتى تتكور يدي في قبضة قوية، كأنما سأضرب رأس شعبان.

وأندش حين يفخر أحد بمنصبه العالي في الحكومة، أو حين ينال جائزة حكومية تحمل اسم جائزة الدولة.

- ما الفرق بين الحكومة والدولة؟

- في الأنظمة الدكتاتورية لا يوجد فرق؛ لأن الشعب لا يشارك في الحكم.

- وهل يشارك الشعب في أي حكم في العالم؟

- في عالمنا الطبقي الأبوي هذا؟

- نعم.

- لا توجد ديموقراطية حقيقية في أي بلد، العالم تحكمه القوة والأموال وليس العدل أو الحرية.

يدور الحوار في بيتنا عام ٢٠٠٠ كما كان يدور منذ نصف قرن في بيت أبي، سقط النظام الملكي وبدأ النظام الجمهوري وظلت الحكومات كما هي، لا يمكن لحكومة أن تبقى مستقرة فوق عرشها دون قهر الشعب وتضليله، كان أبي يقول: لا شيء يضل الشعب مثل نظام التعليم.

كنت في الثامنة والعشرين من عمري حين مات أبي، كلماته محفورة في ذاكرتي، وزارة التعليم تلعب دوراً في تجهيل الناس بالحقيقة، المعرفة إثم حتى اليوم، أصبحت عمليات التجهيل أكثر إتقاناً مع تطور تكنولوجيا التعليم والإعلام الحديث وما بعد الحديث.

في أعماقي حنين منذ الطفولة للمعرفة، شهوة المعرفة أكبر عندي من الشهوة الجنسية، لا يجذبني الرجال ذو الفحولة الذكورية، لقد مر بحياتي رجال كثيرون، انجذبوا إلى أنوثتي الخادعة، إلى البريق المثل من العينين، تصوروا أنني أبادلهم الحب، لكن سرعان ما تحدث المأساة، تصطدم الذكورة التقليدية بأنوثة مختلفة غير قابلة للاختراق.

بعد موت أبي وأمي تصورت أنني تحررت، في طفولتي كنت أحلم أنهما ماتا لأخرج من البيت بدون إذن، أصحو من النوم مبللة بالدموع، أبكي على موتهما بمثل ما أبكي على عدم موتهما.

بعد موت أبى جاءت صديقتى بطة لتعزىنى، مرت علىّ بعيادتى فى ميدان الجيزة، كانت الساعة السابعة أول الليل، العيادة خالية من المرضى والتورجى فى إجازة، انتهزتُ فرصة موت أبى لأغلق عيادتى شهراً كاملاً، علّقت ورقة على الباب تقول:

«العيادة مغلقة حتى يوم ٢١ مارس»، كنت أريد أن أكتب «العيادة مغلقة إلى الأبد»، لقد فتحت هذه العيادة من أجل أبى، دخلت كلية الطب من أجل أبى، وقد مات أبى وانتهت علاقتى بمهنة الطب، أما العيادة فقد أصبحت مقرّاً لندوات الأدب، حيث ألتقى الأصدقاء والصديقات.

دخلت بطة كعادتها مثل ريح تدفع الباب، تدق الأرض بكعب حذائها العالى المدبب، جسمها السمين القصير مدكوك داخل ثوب حريرى أسود، علامة الحداد على موت أبى، فتحة الصدر واسعة تكشف عن عنق سمين ناعم حتى الشق العميق بين النهدين المضغوظين بالمشد، رأت وجهى الشاحب الحزين فجلست مُطْرِقة إلى الأرض ترسم على وجهها علامات الحزن، عيناها السوداوان الواسعتان مرسومتان بالكحل، تملأهما ضحكة مرحة مكتومة الصوت.

- تشربى إيه يا بطة؟

- قهوة سادة سوداء يا نوال، مش كده ولا إيه؟

أفلتت من شفيتها المملئتین تنهيدة قصيرة، لعقت بطرف لسانها شفيتها السفلى السمينة وقالت: عندك حاجة تانية؟ قلت: عندي ينسون يا بطة. هنا أطلقت ضحكتها المرحة وقالت: مش تبطلى طفولة بقة إنت كبرتى يا نوال، عندك جين تونيك؟

كانت أول مرة فى حياتى أسمع كلمة «جين تونيك»، قالت بطة: إنه الشيء الوحيد الذى تشربه حين تكون حزينة، المشروب الوحيد الذى يبده الكآبة وتبدو الحياة تحت أضواء جديدة، فى أعماقى حنين لأذوق كل ما تشتهى الأنفس، وكان وجود أبى فى حياتى كاللوح الزجاجى السميك الشفاف، أرى من خلاله الحياة وإن مددت يدي نحوها يعترضنى حاجز لا أراه.

دق جرس التليفون فوق مكتبى، جاءنى الصوت يقول: البقية فى حياتك يا نوال، سأمر عليك بعد ساعة. لمعت عينا بطة وتساءلت: مين هو؟ قلت لها: رجاء الشاعر. مطت بوزها وقالت: يعنى! وهى كلمة شاعت فى ألسن الناس فى مصر منذ الوحدة مع سوريا، وهى تعنى الموافقة وعدم الموافقة فى وقت واحد، بعد فشل الوحدة وانفصال سوريا عن مصر بقيت الكلمة تتردد على الألسن، وتعنى اللامبالاة أو عدم الاهتمام، يهز الواحد منهم

كتفه ويقول «يعني»، أو تمط الواحدة منهن شفيتها وتقول «يعني»، فندرك ماذا تعني. بدأت الكلمة أول ما بدأت على لسان جمال عبد الناصر في الأيام الأولى للوحدة مع سوريا، دخلت الكلمة القاموس المصري بقرار شفهي شبه جمهوري، تشبهاً بالسوريين، ثم انتقلت إلى المصريين تشبهاً بالرئيس عبد الناصر، وأعقب ذلك الإمساك بالسبحة بين الأصابع. ودخلت كلمة أخرى إلى القاموس المصري مع تحريك حبات السبحة، وهي كلمة «واللا»، تضحك بطة وهي تردد كلمة «واللا» بصوت عبد الناصر، تعقبها بكلمة «يعني»، ثم تطرقع أصابعها القصيرة البضة وتمط شفيتها وتقول: عارفة يا نوال أنا باعرف بتوع الاتحاد الاشتراكي من طريقة كلامهم. وكان الاتحاد الاشتراكي قد تكون بعد صدور القرارات الاشتراكية عام ١٩٦١، وعُقد المؤتمر الوطني للقوى الشعبية عام ١٩٦٢، وخرج الميثاق إلى الوجود وصديقتي بطة تسخر من كل ذلك، تمط بوزها وتقول: يعني!

لم يكن صديقي رجاء الشاعر يعجب صديقتي بطة، تقول عنه «اشتراكي غارق لأذنيه في عشق البرجوازية»، وهو نحيف الجسم قصير القامة، قدماه صغيرتان، وهي لا تطيق القدم الصغيرة في الرّجال، كما لا تطيق القدم الكبيرة في المرأة، ترمق بإعجاب قدمها الصغيرة البضة المقوّسة داخل الحذاء ذي الكعب العالي، تقارنها بقدمي الكبيرة داخل حذائي بدون كعب، وتمط شفيتها: مش عارفة يا نوال إيه اللي عاجبك في جزم الرّجالة دي اللي بتلبسيها! كانت بطة تتولى مهمة تحويلي إلى أنثى مثلها، ترمق بشرتي السمراء بشيء من الامتعاض، وتقول: عارفة إيه اللي ناقصك يا نوال عشان تبقي ملكة جمال، شوية بودة وروج وتصبغي شعرك الأبيض ده!

كأنما كانت النقيضة لي، رغم اختلافي معها في كل شيء، كان هناك شيء غامض يجمعنا، تلازمني في كل مكان أذهب إليه كظلي، تطلبني كل يوم في التليفون وتأتي لزيارتي في البيت أو العيادة، أصمم في كل مرة ألا أرد عليها، لكن ما إن يرن الجرس وأعرف صوتها حتى أقول أهلاً بطة. كانت تملأ حياتي الحزينة بشيء من المرح، تملأ حياتي الجادة بشيء من الاستهتار، إلى جوارها أحس بالنقاء، كأنما يحتاج النقاء دائماً إلى شيء من الفساد ليرى نفسه، كالضوء لا نراه إلا في الظلمة.

حين قالت بطة «يعني» ومطت بوزها، قلت لصديقي رجاء الشاعر: إنني متعبة وحزينة لموت أبي ولا أقابل أحداً من الناس. أحسست في صوته خيبة الأمل، كان يريد أن يراني في تلك الليلة، وكانت معي صديقتي بطة، وهي قادرة على تسليتي أكثر منه، تجعلني أضحك من أعماق قلبي، لا تحدثني عن سوريا أو العراق أو مصر أو الإيمان بالله أو الوطن،

تُخرج من حقيبتها زجاجة الجين، وتسألنى: عندك ثلج يا نوال؟ لا تنتظر منى الإجابة، تنهض وتفتح الثلاجة فى البيت أو العيادة، تضع قطع الثلج فى صحن صغير، تفتح زجاجة ماء التونك، تخلط الجين بالتونيك مع الثلج وقطعة من الليمون على شكل الدائرة، تغمسها فى الكأس بطرف إصبعها ثم تمصه وتقول: يا ترى مين العبقري ده اللى اكتشف الجين تونيك؟ تعرفى أنا باحسدك ليه يا نوال؟ لأنك قدرتى تطلقى جوزك؛ ولأن أمك وأبوكى ماتوا وبقيتى إنسانة حرة!

تطلق بطة ضحكها المرحة المديّة مثل المرض؛ فأضحك مثلها بقوة لا إرادية، أود أن أشعر أننى إنسانة حرة، لكن القيود تلفنى كخيوط من الحرير، ذراعى مشبوكتان حول صدري، لا أستطيع أن أطلق هذه الضحكة العالية المرحة التى تطلقها وتكاد تخرق الحوائط الأربعة.

– يا بختك يا بطة بتقدرى تضحكى من كل قلبك.

تتوقف بطة عن الضحك فجأة، يسقط وجهها كأنما فى قاع مجهول، تكسو عينيها سحابة حزن كثيفة، ترشف الجين تونيك فى صمت، تممص شفيتها وتقول: أنا باضحك معاكى بس يا نوال، باحاول أفضفض عن نفسى ... وسرعان ما تنقشع السحابة، تلمع عيناها من جديد، يطل منهما بريق مشع متأجج بالرغبة المكبوتة، يشتغل رأسها بالخيال الجامح، تبدأ فى الاعتراف بشيء لا تنطق به وهى فى كامل الوعي، تعرفى يا نوال أنا نفسى فى إيه دلوقتى؟ تصمت لحظة مترددة ثم تهمس: نفسى أخرج وأمشى فى الشارع وأصطاد أى راجل يقابلنى، راجل لا يعرفنى ولا أعرفه، متهاياً لى يا نوال إن هو ده الراجل اللى ممكن يقدر يحقق المعجزة، ممكن يحقق المستحيل، اللذة المستحيلة يا نوال!

كانت بطة تؤمن أن هناك تناقضاً بين الحب والجنس، لا يمكن أن تتحقق اللذة الجنسية إلا مع رجل فاسد لا يؤمن بالثالوث المقدس: «الله، الوطن، الحب». وكانت تقول إنها حين تحب الرجل لا تمارس معه الجنس حتى يحتفظ بصورتها الملائكية حتى الموت، ثم تطلق ضحكها وأنطلق أضحك كأنما بالعدوى.

كنت وحدي بالبيت، مات أبى ليلة الخميس ١٩ فبراير ١٩٥٩، مضت سنة كاملة على موته وخمسون يوماً. الليلة هى أول إبريل عام ١٩٦٠، لم يكن بيتنا يخلوا إلا نادراً، تلك اللحظات يتسع الأفق فجأة، وأكاد أرى الإله «رع» وراء السحابة البعيدة. يصمت الكون وأكاد أسمع دبة النملة، وحفيف أوراق الأشجار البعيدة، نسمة الليل تصيح رقيقة ناعمة

كحرارة الجسم، أستشعر اللذة حين أفرد جسمي حتى النهاية، أمد عنقي حتى النهاية، يصبح رأسي عاليًا قريبًا من رأس الإله «رع» في السماء، لم تكن هذه الحركة مباحة للنساء، والمفروض ألا يعلو رأس المرأة عن رأس أبيها أو زوجها، فما بال من هو أعلى منهما في الكون، كانت قامتي شامخة وعنقي طويلًا، وكان لا بد من علاج هذا العيب.

أصبحت أمشي بقامة منحنية قليلاً، لا أستطيع أن أفرد جسدي حتى نهايته في اليقظة أو في النوم، الانحناءة تنمو كالصنم فوق ظهري دون أن أدري، كالعضو الغريب ينمو خلسة ويصبح جزءًا من الجسم، كالخوف من عقاب الله يتسلل إلى العقل ويكمن فيه، كالمرض المزمن. كانت أسرتنا كبيرة العدد، يسميها أبي «الفاميليا» ينطق الكلمة بسخرية، ينفث الهواء مع الياء الأخيرة، والألف المدودة يمدّها مع زفير طويل، مملوء بالضجر والزهو الخفي، يشير إلينا بإصبعه الطويل ونحن متراسّون حول المائدة:

«الفاميليا الكريمة تسعة من العيال وأهم.»

عرفت منذ الطفولة أن الفاميليا هي أسرة أبي فقط، أمي مثلنا نحن الأطفال واحدة من العيال، كلمة العيال ترن في أذني مهينة تنم عن الاحتقار، العيال هم من يعيشون عالية على غيرهم.

لم تكن أمي تواظب على الصلاة أو تلاوة القرآن، يسألها أبي كل يوم: ليه يا زينب مش بتصلي؟ تضحك أمي ضحكتها المرحّة الساخرة وتقول: أنت بتصلي بالنيابة عني يا سيد. يندهش أبي ويقول: بالنيابة عنك إزاي يا زينب؟ تواصل أمي السخرية: إنت بتنوب عني في كل حاجة حسب القانون والشرع، يبقى لازم تنوب عني في الصلاة كمان، ولا إيه؟! في طفولتي لم أفهم كلام أمي، أدركت بالفطرة أنها لا تؤمن بالله، تزمرج أحياناً بغضب مكتوم وتخطب السماء قائلة: يعني كل حاجة من حق الرّجال دنيا وآخرة واحنا مافيش حاجة؟! تتراجع بعد لحظة وتهمس: أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم. بعد موت أبي أدركت أن الفاميليا ماتت، ألم يكن عمودها وعميدها؟! ألا يسقط البناء بسقوط العمود؟! الفرح الخفي يهزّني وأنا أرى البناء يسقط، يبدو لي منذ الطفولة واهياً، مصنوعاً من الوهم، أو مجرد الاسم، كانت أمي تضحك حين يشير أبي إلينا نحن التسعة ويقول بزهو: أولادي!

تضحك أمي وتسأله: مَنْ قال إنهم أولادك؟! يضحك أبي مدرّكاً الفكاهة، ثم سرعان ما ينتابه سُعال جافٌ ويصمت فجأة كأنما يسقط في بئر عميقة بغير قاع.

كان أبي يؤمن بالحياة الأخرى بعد الموت، يحكي لنا كيف يعاقب الله المذنبين، كيف تُلقى أجسادهم في النار لتحترق، نختفي نحن الأطفال تحت السّرير من شدة الخوف،

تقول أختى الصغرى: إن الميت لا يمكن أن يحس شيئاً. كان الموت فى نظرنا نحن الأطفال هو الموت، هو نهاية الألم ونهاية الإحساس، لم نصدّق فى طفولتنا ما يقوله الكبار، كانت أختى الصغرى تشاركنى اللعب تحت السرير، وتقول لى: إن الأطفال يعرفون ما لا يعرفه الكبار. وأسألها: ليه؟ تقول: لأن الكبار عقلهم صغير. ونفجر بالضحك المکتوم حتى لا يسمّعنا أبى أو أمى الجالسان فى الصالة.

كان البيت خالياً تلك الليلة، دادة أم إبراهيم أخذت ابنتى الطفلة وأخواتى الأربع الصغيرات فى رحلة إلى القرية، ربما كانت إجازة شم النسيم أو عيد الربيع، أو الاحتفال بعيد العمال أو أحد المشاريع الاشتراكية الجديدة، أصبحت أم إبراهيم تتغنى بالاشتراكية مثل وزير الصحّة. بعد موت أمى أصبحت هى بديل الأم، تطبخ وتغسل الصحون وتدعك المرحاض. بعد موت أبى أصبحت أنا بديل الأب، أتولى الإنفاق على الفاميليا الكبيرة، ورثتها عنه ضمن أشياء أخرى منها أثاث البيت واسمه الكريم ودينه الحنيف، ونصف فدان من الأرض الزراعية فى كفر طحلة، استولى عليها الحاج محمد ابن عمه.

أول كل شهر أناول أم إبراهيم مرتبها مثل الموظفين فى الدوّلة، أوراق البنكنوت تمسكها فى يدها لحظة قبل أن تدسّها فى جيبتها، عيناها يكسوهما البريق القديم، كشعاع من الضوء ينفذ من قاع عظام الرّأس، ترتعش أطراف أصابعها قليلاً كأنما تجري وهى واقفة، ثم تطلق ضحكها المرحة وتقول: «أصل الفلوس يا ضكطورة راكبها عفريت اللهم احفظنا يا رب من شرهم!»

كان الليل هادئاً وأنا راقدة فوق الكنبة فى الشرفة البحرية، أستمتع بالوحدة وغياب الأسرة عن البيت. لم تكن الأصوات تنقطع فى بيتنا إلا فى منتصف الليل، حينئذ تسري من خلال الجدران أصوات الجيران. كانت غرفة نومي ملاصقة لغرفة نوم جارتنا الست حمدية وزوجها السيّد أحمد عبد التواب، يسري أنينها فى الليل وأنا غارقة فى النّوم، أو صوت أم كلثوم تغنى قرب الفجر، «هو صحيح الهوى غلاب ما عرفش أنا»، أو صوت جمال عبد الناصر يخطب فى إحدى المناسبات الوطنية، يضغط على مخارج الألفاظ بقوة، «الاشتراكية! أيها الإخوة والأخوات! علينا جميعاً أن نبنى المجتمع الاشتراكي الجديد!»

تلك الليلة أول الربيع كان الكون هادئاً وأنا وحدي فى البيت بلا أسرة ولا صوت يسري من عند الجيران، إلا شيء خافت يشبه حفيف الشجر من بعيد، ربما هو صوت أميلاً شيء خافت يشبه حفيف الشجر كلثوم تغنى فى راديو الجيران بمناسبة عيد الربيع، أو صوت جمال عبد الناصر يخطب فى عيد العمال. حروف الكلمات لم تعد مسموعة والصوت لم يعد

صوتًا، بل صار شيئًا مسحوقًا يتسلل من وراء الجدار الحجري كالزّمام الناعم، كحفيف أوراق الأشجار في الأفق البعيد، إلا كلمة واحدة ظلت متماسكة الحروف، تقاوم الانسحاق داخل الجدار، تحملها نسمة الليل إلى أذني وأنا راقدة فوق الكنبة في الشرفة، ترن في الجو بصوت أنثوي يشبه صوت سامية عضو اللجنة القيادية في الاتحاد الاشتراكي، تقف فوق المنصة وراء الميكروفون وتنطق بصوت جمال عبد الناصر كلمة الاشتراكية! الاشتراكية أيها الإخوة والأخوات.

لم تكن سامية أقرب الزميلات إليّ في عنبر الدّاخلية، كانت تكبرني بعامين اثنين، بدت في ذلك الوقت كأنما تكبرني بقرن أو قرنين، تعرف قواميس لغات لا نعرفها، تفك طلاسم كلمات غامضة على عقولنا نحن التلميذات الصغيرات، ومنها كلمة الشُّبوعيّة والمادية الديالكتيكية، وعلى رأسها اسم «ماركس»، وهو اسم يختلط في أذاننا مع اسم «مركس» بصوت زميلتنا «بطة»، حين كانت تقلب حرف القاف الخشن إلى حرف الكاف الرقيق، تشبهُها بالطبقة الراقية والأجانب، ويصعد الدم إلى وجه صافية حين ترنّ في الجو كلمة «مركس» أو «مرقس»، فهو الاسم الذي تُعلقه داخل القلب الذهبي فوق صدرها، يحتقن خذاها البيضاوان بلون الدم، ترمقني بعين حمراء كأنما أنا أفشيت السر، وكانت هي تحكي قصة حبها للزميلات في عنبر الدّاخلية، أو لأي زميلة تسهر معها بعد أن يدق جرس النّوم، تقفان معًا في النافذة تطلان على القمر والنجوم في غياب أبلة عزيزة ضابطة الدّاخلية.

لم تكن «بطة» معنا في حلوان الثانوية، أصبحت زميلة لنا في كلية الطب، كان الحديث بين الزميلات موصولًا على الدوام، لا يفصل المدرسة عن الجامعة أو الطفولة عن المراهقة عن الشّبَاب، لا يقطعه زواج أو طلاق أو موت الزّوج أو أي حادث آخر يعترض حياة البنات والنساء، كأنما عطش الحب لا يرتوي أبدًا حتى تبلغ المرأة مائة عام.

كنت منذ الطفولة أخفي عن أبي وأمي كثيرًا من المحرّمات التي تتردد في عقولنا نحن الأطفال، أغلبها يتعلق بالحب أو الموت، ومنها فكرة أن الموت نهاية الألم، أي أن الجسد الميت لا يحس شيئًا إن وضع في النار. كانت هذه الفكرة واضحة لعقلي منذ الطفولة الأولى قبل أن أبلغ السابعة من العمر، لكنها بدأت تختفي كلما كبرت ودخلت المدرسة. كانت صافية أقرب الزميلات إليّ في عنبر الدّاخلية، تكبرني بعام واحد، وتبدو كأنما هي امرأة ناضجة، ثدياها ممتلئان باللحم مثل أمي، كأنما تزوجت وأنجبت، أو خاضت تجارب في عالم الحب لا نعرفها، حول عنقها سلسلة ذهبية يتدلى منها قلب مصنوع من الذهب، تفتحه بأطراف أصابعها الناعمة البضة كأصابع أمي، تلثمه بشفتيها، وصدرها يعلو ويهبط من أنفاسها،

تلتقط خصلة شعر رفيعة ملفوفة داخل تجويف القلب، تقربها من أنفها وتشمها، تأخذ شهيقاً عميقاً مع تنهيدة طويلة، ثم تفتح جفونها ورموشها، ترتعش وتقول بصوت يتقطع مع أنفاسها: «باحبه يا نوال باموت فيه!» ... تكرر هذه العبارة الليلة وراء الليلة، كلما وقفتُ معها في النافذة بعد أن يدق جرس النوم، حين يغلبني النعاس أتركها وحدها واقفة في النافذة تُناجى القمر، وفي الحلم أراها ممدودة فوق السيخ المحمي في النار، يحرقها الله المرة وراء المرة، إن إثمها ليس واحداً بل اثنين، الإثم الأول هو الحب، كان الحب محرماً على البنات إلا في الأغاني والأفلام، الإثم الثاني هو «مرقس» حبيبها القبطي وهي مسلمة، كنت أهدس في أذنها «الحب ده حرام ربنا حيحرقك في النار يا صافية»، تهز كتفيها، تمط شفيتها إلى الأمام وتهمس: «بعد ما أموت يا نوال مش حاحس بحاجة»، يسري صوتها في هدوء الليل كحفيف الأشجار تتراءى من بعيد في الظلمة كالأشباح أو أرواح الجان، يتسلل الحفيف إلى أذني في الليل مخيفاً مثل فحيح الشيطان، يرتعد جسدي وأنا واقفة في النافذة إلى جوارها، تسري القشعريرة من قمة رأسي إلى بطن القدمين، أحس البرودة تصعد من بلاط العنبر إلى منابت الشعر تحت الجلد، والشعيرات الدموية تنتصب فوق ذراعي العاريتين كرهوس الإبر، أقرّب شفتي المرتعشتين من أذنها وأهدس: «يعني مش حانحس بالنار بعد ما نموت يا صافية؟» وتفلت من بين شفيتها ضحكة مكتومة وهي تخفي فمها بيدها الناعمة البضة «نار الحب يا نوال بس نحس بيها». أتركها وحدها واقفة في النافذة وأختفي تحت الغطاء، كل شيء في كياني يرتج، والسّرير من تحتي يرتج في صرير مسموع يكاد يوقظ نبات العنبر، وأنتفض تحت الأغطية كالفرخة المذبوحة، إلا خلية واحدة في رأسي تظل هادئة وقورة لا ترتج ولا تهتز، كأنما هي تعرف الحقيقة منذ ولدت، أو كأنما هي الخلية الوحيدة في عقلي التي عاشت منذ الطفولة.

لم تنقطع صداقتي بصافية حتى اليوم، أصبحت زوجة الداعية الإسلامي الكبير الدكتور مصطفى الزهيري، تلف رأسها بحجاب أنيق يتمشى مع الأصالة ولا يتعارض مع الحداثة، يسمونه «البونية»، كلمة فرنسية تنطقها بصوت قوي يشبه صوت زوجها، تضغط على أسنانها وهي تقول «البونية» بلهجة رجولية تتناقض مع وجهها السمين البض الذي يفيض أنوثة، وشفاتها الممتلئتان الناعمتان وضغطت عليهما بإصبع الروج الأحمر قبل أن تخرج من البيت، وبعد أن ارتدت البونية وأحكمتها حول رأسها، لا يظهر من شعرها الأسود المصبوغ إلا خصلة نافرة رفيعة تتدلى فوق جبهتها العريضة من الأمام، أو فوق عنقها القصير السمين من الخلف.

في النوم يتكرر الحلم القديم رغم مرور السنين، وأراها تشوى في النار كخروف العيد، دون أن تشعر بالألم، تنطلق ضحكتها في سكون الليل، وصوتها يسري في أذني كالسيخ الحامي «نار الحب يا نوال بس نحس بيها»، كنت أحكي لها الحلم وهي واقفة إلى جوارى في النافذة، عيناها تشتعلان بالضوء كأنما بنار خفية، تسري حرارتها إلى رأسي وعنقي وأنا واقفة إلى جوارها، دون أن تلامسني أو ألمسها، كأنما هي شعلة مختبئة في الأعماق، لا أعرف من أين تتدفق هذه السخونة وتسري من قمة رأسي إلى أسفل الكعبين، يصبح البلاط ساخناً تحت قدمي الحافيتين، والبنات غارقات في النوم داخل العنبر، وأبلة عزيزة ضابطة الدأخلية غائبة في إجازة، ولا أحد يظل علينا من السماء إلا القمر المكتمل بدرًا، يتألق نوره فوق رمال الصحراء الممدودة تحت عيوننا حتى الأفق، بحر من الفضة السائلة تشع موجاته ومضات من الضوء الأبيض تبدو في الظلمة كفضوص اللؤلؤ.

هذه الصورة محفورة في عقلي رغم مرور خمسة وأربعين عامًا، وقصيدة من الشعر كتبتها في مفكرتي السرية قرب الفجر، بعد أن سهرت الليل واقفة عند النافذة مع صديقتي صافية، هي تحكي عن نار الحب وتحلم بالزواج من مرقس بعد أن يعتنق الإسلام، وأنا أحلم بأن أكون كاتبة أو شاعرة أو ممثلة فوق المسرح أو راقصة أو أي شيء آخر إلا الزواج. كان الشفق الأحمر بلون الدماء يسبق ضوء الفجر إلى السماء، وكنت أشعر كأنما تورمت قدمي من طول الوقوف، ثماني ساعات أو تسع منذ دق جرس النوم ونحن واقفتان نطل على القمر والنجوم ... تركتني صافية قبل الفجر بقليل ونامت، كان النوم قد هجرني كأنما إلى الأبد، ولن يعرف جسدي التعب أو الألم، كأنما ينبوع ينفجر في أعماقي بأشياء لا أعرفها، أمسكت القلم وأنا واقفة، الورقة البيضاء فوق حافة النافذة، وبدأت أكتب، كان القلم يمشي وحده كأنما بقوة خارج جسدي وعقلي، خارج الزمان والمكان، كلمات من الشعر أو النثر تكتب نفسها بنفسها.

قرأت على صافية في الليلة التالية، وفي الليلة التي بعدها، والتي بعدها ... تلمع الدموع في عينيها وأنا أقرأها، أتوقف لحظة لأبتلع دموعي، أطوي الورقة وأخفيها تحت مرتبة السرير، تشدها من تحت المرتبة وتقرأها. في ليلة وهي تعيد قراءتها بدت الكلمات قديمة كأنما راحت شحنتها الأولى المتوهجة، أمسكت الورقة ومزقتها، وفي يوم كنت وحدي بالعنبر، خرجت كل البنات في رحلة إلى الحديقة اليابانية، فتحت مفكرتي السرية وأعدت كتابة القصيدة، بقيت في ذاكرتي حتى اليوم، أعطيتها عنوان: «لن أموت»، أردد بعض أبياتها أحياناً حين يفيض بي الشجن أو الحنين، لا أعرف من أين ينبعث الشجن ولن يكون الحنين، ربما هو

أوراقى ... حياتى (الجزء الثالث)

الحب الغائب الحاضر، الطيف الذي لا يتجسد أبدًا في الواقع والحقيقة، ربما هو الوهم أو الحزن أو الخوف من الموت، أقول لنفسي حين تتأزم الأمور وأوشك على الهلاك: «لن أموت، سأتحدى القضاء والقدر، ولا لن أموت.»

في خريف عام ١٩٨١ حين كان التشاؤم يسود المسجونات معي في الزنزانة، ويحوم شبح الموت حول رءوسنا، إذا بالقصيدة تهب منتصبة داخلي كالمارد، تقاوم اليأس، تتحدى الموت، وأسمع صوتي الغاضب يقول: لن نموت، وإن متنا فلن نموت ساكتات ... لن نمضي في الظلمة دون ضجة، لا بد أن نغضب ونغضب، نضرب الأرض ونرج السماء ... لن نموت دون أن نكسر قضبان الحديد، وإن متنا فلن نموت صامتات.

مذكراتي في سجن النساء ١٩٨١

وفي مفكرتي السرية عام ١٩٤٧، وأنا تلميذة في المدرسة الداخلية في حلوان الثانوية، ظلت هذه القصيدة مكتوبة بالحبر الأسود، محفورة في ذاكرتي وفوق الورق:

قبل أن أغيب في النوم كل ليلة، أقول لنفسي:
سيأتي الصبح حتمًا ولن أموت، وإن مت
فلن يؤلمني شيء، بعد الموت
لا السقوط في الامتحان، ولا الضرب
على أطراف الأصابع بالمسطرة
ولا زهمير البرد ولا لهيب الشمس ولا نار الجحيم
لم أجد إلا صديقتي في العنبر لأسألها: هل نموت؟
وإن متنا هل يؤلمنا أن نموت؟ أين نحن؟!
الآن في عنبر الموتى، في اللامكان واللازمان
ولا وجود للحب إلا بعد أن نحترق في الحريق
ونصير كالرَّماد، وكرمال الصحراء في حلوان
كأننا يا صديقتي متنا قبل الأوان
رأيت المشهد في الحلم، وعرفت أننا نمضي
إلى حيث لا ندري، فهل أكون في الغد ما أريد أن أكون؟!
شاعرة أو ناثرة أو حتى آئمة؟!
هل أرى اسمي فوق كتاب ممنوع؟! وأشق السماء

من مفكرتي السريّة عام ١٩٤٧

بقلمي، وأجعل المطر رهن مشيئتي؟!
والنهار والشعر والنثر
ينثال من خطيئتي،
فليحرقني الله في نار جهنم
ولتشرب الأرض دمائي
لكني أبداً لن أموت.

حلوان الثانوية ١٩٤٧

الباحثة عن الحب

صيف عام ١٩٦٣ بدأت كتابة رواية أعطيها عنوان «الباحثة عن الحب»، في أعماقي حنين غامض لشيء أكثر غموضاً، لا أعرف بالضبط عما أبحث، بلغت الثانية والثلاثين من العمر، أصبحت طبيبة ناجحة وأديبة معروفة، في حياتي كثير من الأصدقاء والصدقات، نساء ورجال أتبادل معهم الحديث على شاطئ النيل، نتحاور في الطب والأدب والفلسفة، مع قضاة من الحمام المشوي ورشقات نبيذ عمر الخيام، نطل على مدينة القاهرة من فوق ربوة الأهرامات، نتسكع في المدينة بعد أن ينام الكون ... أعشق الشوارع الخالية من السيارات والبشر، يصفو عقلي وأتطلع إلى النجوم، يعود إليّ السؤال الطفولي — كنت أسأله لأبي وأنا في السابعة من العمر: مين خلق النجوم دي كلها؟ ربنا يا ابنتي. ومين خلق ربنا يا بابا؟ ربنا خلق نفسه بنفسه يا ابنتي. لم يكن عقلي الطفولي يقبل هذه الفكرة، أن يخلق أحد نفسه بنفسه.

في العشرين من عمري نسيت الأسئلة الطفولية كلها، انشغلت بالدراسة في كلية الطب والنجاح في الامتحانات آخر العام. قبل الامتحان بأيام قليلة أواظب على الصلاة، لم أكن أرى أمي تصلي إلا وقت الأزمات، أسمع الشيخ في الراديو يقول للنساء ناقصات عقل ودين. بدأت أتشبه بأبي، أواظب على الصلاة في غير أوقات الامتحان، بلغ بي الإيمان ذروته عام ١٩٥٢، حين بلغت الواحدة والعشرين من العمر، أصبحت في الأوراق الرسمية مواطنة في سن الرشد، أحظى بحقوق الإنسان فيما عدا الحقوق التي منحها الله للرجال دون النساء، كان الدستور المصري ينص على المساواة بين الناس أمام القانون، لكن شريعة الله تنص على أن الرجال أعلى درجة من النساء، كان التناقض واضحاً بين الدستور والشريعة، لم أكن أرى هذا التناقض وأنا في الواحدة والعشرين من عمري، الإيمان المطلق الأعمى يجعلني لا أرى التناقضات الواضحة للعيان.

كنت أمشى فى طريقي من البيت إلى الكلية فى خط مستقيم، لا أحرك رأسى هنا أو هناك، وأعود من الكلية إلى البيت مباشرة دون أن أتطلع إلى هذا أو ذاك، كل يوم أروح وأجىء فى الطريق ذاته، كالبقرة العمياء معصوبة العينين تدور فى الساقية، وفجأة التفت بأحمد حلمى ... كنت أمشى فى فناء الكلية حين استوقفنى ونادانى باسمى: نوال. توقفت عند سماع اسمى بهذا الصوت، كأنما لم ينادنى أحد باسمى من قبل، أو كأنما كلمة نوال لم تكن اسمى، أصبحت اسم امرأة أخرى جديدة ولدت لتوها فى هذه اللحظة.

ربما هما العينان وليس الصوت، عيناه وهو واقف أمامى فى الفناء، عيناه فقط رأيتهما، ربما لم تكونا هما العينين، بل شيء آخر لم أره تمامًا؛ لأننى لم أملك القدرة على النظر إليه، فقدت شجاعتى قبل أن ترتفع عيناى إليه.

أتوقف عند هذه اللحظة بعد مرور خمسين عامًا، أتذكرها، أستعيدها، تعود إلي كما حدثت، تعود معها التفاصيل الصغيرة الدقيقة، تصورت أنها ضاعت من الذاكرة خلال نصف قرن، تُفاجئنى أنها تعيش فى الحاضر كما عاشت فى الماضى، لحظة لم تتكرر فى حياتى منذ خمسين عامًا، أتكون هى لحظة الحب الكبير أو الوهم الأكبر؟!

كان أحمد واقفًا فى الفناء، بالضبط عند الباب الصغير بين فناء الكلية والمداخل إلى مستشفى قصر العيني القديم، كان يرتدى قميصًا أبيض، وفى يده مجلة يناولها إليّ ويقول: ده العدد الجديد من مجلة شعلة التحرير يا نوال. ينطق حروف اسمى كأنما يعرفها، كأنما يألّفها، رغم أنها المرة الأولى التى أقابله وجهًا لوجه. أخذت المجلة وانشغلت بفتح حقيبتي وإدخال المجلة فيها بين كتب الطب وكشاكيل المحاضرات والمشرط وأدوات التشريح، حقيبتي كانت ثقيلة ممتلئة، وكان عليّ أن أفتحها وأضع المجلة فيها، حركة أنقذتني من النظر إلى عينيه، تظاهرت أنني منهمكة فى فتح الحقيبة، وإفساح مكان للمجلة بين الكتب والكشاكيل، بدت الحقيبة مكدّسة بأشياء قديمة مهترئة لا قيمة لها إلى جوار المجلة الجديدة، يبرق اسمها فوق الغلاف بخط أحمر، يلمع تحت شعاع الشمس: «شعلة التحرير».

— يا ريت يا نوال تقري قصة العدد وتقوليلى رأيك.

كنت فى طريقي إلى مدرج علي باشا إبراهيم، أسرع الخطى قبل أن أتأخر عن موعد المحاضرة. كان الأستاذ هو «أنريب»، يدرّس لنا علم الفسيولوجى، يلقي المحاضرة بلغة إنجليزية تشوبها لكنة روسية. جاء من روسيا إلى مصر ليصبح أستاذًا فى كلية الطب فى نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات، قصير سمين مربع الجسم داخل معطف أبيض، له

وجه مربع عريض يشبه الدب الأبيض، لحيته كثيفة تشبه لحية تشيكوف ودوستيوفسكي. كان يحكي لنا عن العالم الروسي «بافلوف» الذي اكتشف نظرية الارتباط الشرطي، أحدثت طفرة في علم الفسيولوجي، وفي نظرية المعرفة. خيالي الأدبي كان يسرح مع الدكتور «أنريب» وهو يحكي لنا قصة الكلب والجرس، إنها التجربة التي أجراها بافلوف في المعمل، كان يضع الطعام أمام الكلب كل يوم في ساعة معينة، يُقبل الكلب على الطعام بشهية، كلَّ يوم في الموعد نفسه يجد الكلب الطعام في المكان نفسه، يأكل بشهية، ويلحس الصحن، أصبح بافلوف يدق جرسًا عدة دقائق تصاحب اللحظة التي يأكل فيها الكلب الطعام، بدأ الكلب يسمع دقائق الجرس مع قضامات أسنانه على الطعام، تكرر الحدث كل يوم، عدة أيام، ثم بدأ بافلوف يدق الجرس دون أن يقدم الطعام للكلب، أصبح لعاب الكلب يسيل لمجرد سماع صوت الجرس، وأصبحت معدة الكلب تفرز الأنزيم الخاص بالهضم كأنما هي تستقبل الطعام. لقد ارتبط صوت الجرس في خيال الكلب وعقله برائحة الأكل ومذاقه في فمه ومعدته. توصل بافلوف إلى الارتباط الشرطي بين المادي والخيالي في عملية التعليم والتدريب في حياة الكلاب، وحياة البشر على حد سواء. كانت العلاقة بين المادة والروح تشغلني أحيانًا، أدرك أن الجسد لا ينفصل عن العقل، وأن الخيال جزء من الحقيقة.

كنت أستغرق بعقلي وجسدي فيما يقوله الدكتور أنريب. لم يكن يتلو علينا المحاضرة مثل الأساتذة الآخرين، كان يحكي لنا الحكايات، نفهم الفسيولوجي ونظرية المعرفة الجديدة عن طريق القصص، والربط بين الخيال والواقع، الربط بين الماديات والروحانيات. يتخلل الإيمان الأعمى بانفصال الروح عن الجسد، تدور في رأسي الأسئلة الطفولية القديمة، عيناى ترتفعان إلى السماء في رهبة، كلمة «الله» ترمز إلى الروح بدون جسد، عقلي الطفولي كان عاجزًا عن الإيمان بوجود الروح دون جسد. بلغت سن الرشد، ونسيت البديهيات، سرت نحو النضوج والإيمان الأعمى بالأرواح المنفصلة عن الأجساد، بدأت أرى في الليل أشباح الجن، أو من بوجودها وبكل ما ورد في القرآن.

في غرفة الطالبات فتحت حقيبتي، الغلاف الجديد والعنوان بالخط الأحمر، شعلة التحرير، لمحت الصديقاتُ البريق في عيني، رمقتني بطة بعين مجرّبة وهمست: حب جديد يا نوال؟! لم يكن للطالبات حديث في أوقات الفراغ إلا عن الحب. كثيرة هي قصص الحب بين الطلبة والطالبات، يدس الطالب رسالة حب في كشكول الطالبة، تقرأها علينا في غرفة الطالبات، تتورد خدود البنات وهنَّ جالسات تحت شجرة الكافور الضخمة، يحفرن بمشرط التشريح فوق جذع الشجرة حروف الاسم داخل القلب، يرسمن القلب بدقة كما هو مرسوم في الكتاب، وكما يظهر في صدر الجثة فوق منضدة التشريح.

كنت واحدة من هؤلاء البنات المراهقات فى كلية الطب، أومن بالحب الروحى المنفصل عن الجسد، كما أومن بالله، الروح العليا فى السماء، المنفصلة عن الجسد الأدنى فوق الأرض، وكنت أجد رسالة الحب داخل الكشكول، كل يوم يدس أحد الطلبة الرسالة، كان الطلبة عددهم بالمئات، والطالبات عددهن قليل يعد على أصابع اليد الواحدة، أو اليدين الاثنتين. كان نصيبى من رسائل الحب أكثر من زميلاتي، لم يكن للزميلات نشاط فى الندوات الأدبية بالكلية، أو الاجتماعات السّياسيّة أو المظاهرات الوطنية، ربما كنت الطالبة الوحيدة فى ذلك الوقت التى تكتب القصص القصيرة والمقالات، وكان رؤساء تحرير المجلات من الطلبة الكبار يأتون إليّ وأنا جالسة بين زميلاتي فى المشرحة، تحمر وجوه البنات حين يأتى إلينا طلبة غرباء ليسوا زملاء لنا فى المشرحة. كان الطلبة الغرباء أكبر سنًا وأكثر جرأة فى التطلع إلى البنات، يرفعون رءوسهم فى كبرياء كأنهم زعماء، يتنافسون على الخطب فى المظاهرات، ينقسمون إلى فرق متناحرة بعدد الأحزاب فى مصر قبل سقوط الملك: الإخوان المسلمون يرفعون شعار السيف والقرآن، الشيوعيون شعارهم المطرقة والمنجل، والوفديون يحملون صورة النحاس باشا، الحزب الوطنى يردد كلمات مصطفى باشا كامل، أحزاب الأقلية لكل منهم شعاره، الحكومة والسراي والإنجليز لكل منهم حزب داخل البلاد، المستقلون لهم أحزابهم، بعضهم يتبع عزيز المصرى، بعضهم يؤمن بالألمان والنازية، بعضهم يؤمن بالحلفاء والديموقراطيّة، كلهم توابع للقوى المتصارعة فى الساحة السّياسيّة.

بدا أحمد حلمى كأنما هو المستقل الوحيد، مجلة شعلة التحرير يُصدرها مع مجموعة من زملائه، يدفعون نفقاتها من جيوبهم. كان هو رئيس التحرير، قرأت عددين أو ثلاثة، نشرت فيها بعض القصص القصيرة بأقلام طلبة الطب ذوى الميول الأدبية. قرأت قصة أحمد حلمى بعنوان «كلب وغلأم»، لا أنسى القصة رغم مرور نصف قرن من الزمان، صورة الكلب الصغير الأعرج يأكل من صفيحة قمامة إلى جواره طفل أعرج. كان أحمد حلمى ينظم الندوات الأدبية، يربط بين الفقر والمرض، بين الطب والأدب. لم يكن يوسف إدريس يكتب القصة بعد، كان يكتب المقالات السّياسيّة ويرأس مجلة أخرى اسمها «الجميع».

فى إحدى الندوات الأدبية قال يوسف لأحمد: قرأت قصتك «كلب وغلأم»، إزاي كتبتها يا أخي؟ شيء عجيب فعلاً، تصور يا أحمد وأنا نايم فى عز النوم أشوف الكلب الأعرج يباكل من الزبالة مع الطفل الأعرج، يا أخي القصة دي أحسن من ميت مقال سياسى!

لم يكتب أحمد حلمى شيئاً بعد هذه القصة، سافر إلى القنال وعاد محطماً، خانه الأصدقاء قبل الأعداء. تزوجنا ضد إرادة أبى، كان أبى يؤمن بالعمل الفدائى والموت من

أجل الوطن، ملاً خيالي وعقلي منذ الطفولة بأناشيد الغداء، بلادي بلادي أفديك بروحي ودمي. عاش أبي المنفي في منوف عشر سنوات، كف فيها عن النشيد، أصبح ينوء بالجمل الثقيل، عائلة من تسعة عيال وأمهم، أصبح رهين المحبسين الوظيفة الحكومية والأسرة الأبوية.

كان أبي يؤمن بالله والوطن، ولكن أحمد حلمي كان يؤمن بالوطن فقط. في أول حديث لنا عن الدين سألني: أتؤمنين بالله يا نوال؟ قلت: طبعاً... مرت لحظة صمت طويلة، كنا نجلس في حديقة الشاي، مكان هادئ يطل على بحيرة صغيرة، يعوم فيها البط داخل حديقة الحيوان بالجيزة. كنت أردتي بلوزة وردية جديدة، أرى وجهي منعكساً فوق مياه البحيرة، عيناى يكسوهما بريق، الدقات تحت ضلوعي محسوسة، أنفاسي تتعاقب بسرعة لم أعودها، أحاول أن أظاهر بالهدوء وأنشغل بمراقبة البط يفرد أجنحته في الماء، يتطاير فوق ريشة الرذاذ مثل ذرات من اللؤلؤ تلمع تحت أشعة الشمس.

– وأنت يا أحمد هل تؤمن بالله؟

– لأ يا نوال.

الصدمة الأولى في الحب، تجمدت الدقات تحت ضلوعي، توقفت الأنفاس وقدرتي على النطق، لم أعد أرى البحيرة ولا البط، غامت عيناى، مرت سحابة حجب الشمس، تصورت أن الله سمع كلمة «لأ» وأراد أن يدمر الأرض والشمس وكل ما في الكون.

فتحت عيني ورأيت أحمد جالساً أمامي، كأنه كائن ميت لا أقوى على النظر إليه.

– آسف يا نوال إذا كنت صدمتك، أنا دائم التفكير في فكرة نشوء الكون، أنا غير مقتنع بنظرية الخلق في الكتب السماوية، أنا شرحت جسم الإنسان في المشرحة، وقررت كتاب داروين «أصل الأنواع»، الكتاب ده بمثابة المسمار في عرش الإمبراطورية البريطانية؛ لأنه هدم أهم أركانها وهو الكتاب المقدس، أو أهم ما في الكتاب المقدس وهي نظرية الخلق ونشوء الكون.

صمت أحمد قليلاً، أحسست الجفاف في حلقي، شيء يؤلمني تحت الضلوع، أنفاسي عادت بطيئة ودقات القلب لم تعد هناك، أحس الدم يمشي في صدري بطيئاً بارد الملمس، كأنما جرح في صدري مفتوح منذ الطفولة، جرح لم يلتئم منذ ولدت ولم أسمع الزغاريد، لم أشهد في العيون إلا الحزن والصمت، أصابع غليظة سمراء كالمسامير الصدئة تحاول خنقي تحت الماء، وأنا أرفس بقدمي وذراعي وأطفو، صوت يخرق أذني مثل السيخ المحمي في النار، بنت وليست ولدًا! العوض على الله! كلمة «الله» تنفذ إلى أذني مثل المسمار الحديدي

الذائب فى النار، الله يفصل الرِّجال على النِّساء، الله صاحب الجلالة مذكر وليس مؤنثًا، فى القرآن الله لا يلد ولا يولد، وفى التوراة - الكتاب الأول المقدس - الله لا يلد البنات، أبناء الله تزوجوا بنات النَّاس وأنجبوا البشرية.

- قرىتى أصل الأنواع يا نوال؟

- لأ.

- لازم تقرىه يا نوال، وكمان كتاب كارل ماركس «رأس المال»، فى سنة ١٨٨٢، السنة نفسها اللي احتلت فىها مصر مات داروين، عملوا له مقبرة عظيمة فى وست مينىستر أبى، كان كارل ماركس فى لندن من سنة ١٨٤٩، مات فى لندن بعد داروين بسنة واحدة، قبل ما يموت أهدى كتابه «رأس المال» لداروين، لكن داروين كان مؤمنًا بالمسيح والإمبراطورية البريطانية، عشان كده رفض هدية كارل ماركس، رفض أن يستلم كتاب «رأس المال»، كان خايف من الكنيسة والحكومة فى لندن، قرىتى «رأس المال» يا نوال؟

- لأ.

- ده كتاب مهم يا نوال، أنا مش ماركسي ولا شيوعي لكن الكتاب ده مهم لازم تقرىه. دار هذا الحوار بينى وبين أحمد قبل زواجنا وقبل سفره إلى الحرب مع الفدائيين، عدت إلى البيت سيرًا من حديقة الحيوان إلى بيت أبى فى أول شارع الهرم، قدامى تسييران وحدهما فى الطريق وعقلي شارده. كادت سيارة تصدمنى وأنا أجتاز الشارع لأهبط تحت نفق القطار، كأنما أسير فى نفق مظلم لا أعرف الحقيقة من الخيال. بدا كل شيء من حولى يتخبط فى الوهم، الحب والإيمان بالله، والكتاب المقدس ونظرية الخلق ونشوء الكون ... أتطلع إلى السماء كأنما أتوقع أحدًا يرد، أتطلع إلى أبى فى البيت أود أن أسأله لكن صوتى لا يخرج، لم تعد كلمة «الله» تخرج من فمى عادية، أصبحت مشحونة بالكهرباء أو الديناميت، أخشى لو نطقت بها أن ينفجر المكبوت فى أعماقى منذ الطفولة، أن ينكشف السبب الحقيقى وراء إيمانى، وهو الخوف من أبى أو الخوف من الله ونار جهنم الحمراء بعد الموت.

بعد أن سافر أحمد إلى الحرب فى القنال بدا الكون خاويًا بلا معنى، بلا إله ولا شيطان، ولا أى شيء، كلية الطب بدت بلا معنى وبلا هدف، الطلبة يَهْرولون إلى المشرحة والمستشفى كالأسباح فى عالم من الوهم، الأرواح الخفية والجان وكل ما ورد فى القرآن، أرى أبى راكعًا يصلى فأشفق عليه من الوهم، أكاد أقول له لا توجد جنة بعد الموت ولا جدوى من الركوع والصلاة، أضع يدي فوق فمى أحبس الكلمات فى حلقي.

حزمت حقيقتي وقررت السفر إلى القنال، تطوعت مع بعض المرضات في المستشفى للسفر إلى الجبهة، تدربت على الإسعافات الأولية. كانت لي صديقة بين المرضات اسمها وديدة، خطيبها سافر مع الفدائيين إلى القنال، أرادت أن تراه ثم تعود، أنا أيضًا أردت أن أرى أحمد ثم أعود، لم يكن الطريق إلى الإسماعيلية طويلًا، ساعتين بالسيارة، ويمكن أن أعود بالسيارة في اليوم نفسه، أو في اليوم التالي.

ركبت مع وديدة السيارة اللوري، جوار السائق، خلفنا جلس أحد المرضين وسط زجاجات الدم والبلازما، أفقت على صوت السائق يقول: فاضل كيلو واحد على الإسماعيلية، قلبي يخفق تحت الضلوع، لم يعد إلا كيلو واحد وألتقي أحمد، أحوط صدري بذراعي، أكتم الخفقات عن السائق بجواري، أخشى أن يكتشف السبب الحقيقي وراء سفري إلى الإسماعيلية، لقد أعلنت له أنني متطوعة مع المرضات من أجل الوطن.

خرجنا من القاهرة في الليل، وديدة ركنت رأسها فوق حافة النافذة، شردت عيناها في السماء، صوتها المبحوح يدندن بأغنية أم كلثوم «هو صحيح الهوى غلاب ما عرفش أنا»، يذكرني صوتها بزميلتي فاطمة في مدرسة حلوان الداخلية. فتحت حقيقتي وأخرجت الساندويتش، رغيف فينو طويل داخله جبن رومي وبيضة مسلوقة بالملح والفلفل، قسمت الرغيف لثلاثة أقسام ناولت السائق جزءًا، وديدة جزءًا، وأخذت الجزء الأخير.

كنت جائعة، رائحة الخبز والجبن والفلفل تصيبني بانتعاش مفاجئ، أعود طفلة تأكل بشهية، أتذكر أُمي حين كانت تجهز الساندويتش لأخذه إلى المدرسة وأنا طفلة في السابعة من العمر.

رائحة الخبز والجبن والفلفل أعادت إلى خيالي صورة أُمي في طفولتي، مثل صوت الجرس في تجربة بافلوف، يستحضر في خيال الكلب صورة الطعام، هناك تشابه بين خيال الكلب وخيال الإنسان. تعود إلى ذاكرتي قصة «كلب وغلام»، كان لأحمد أسلوب مميز في الكتابة، كلماته فوق السطر تتتابع بهدوء يشبه خطوته فوق الأرض، يشبه صوته حين يتكلم، الإيجاز في التعبير يبدو كالإعجاب، والتصوير الدقيق إلى حد التجسيد. يترأى لي جسم الغلام الصغير النحيف، وجسم الكلاب يشبه الغلام صغيرًا ونحيفًا، يأكلان معًا من صفيحة القمامة، عيونهما غائرة داخل عظام الجمجمة، المقلتان السوداوان بارزتان فوق البياض مشتعلتان بنار الجوع، كل منهما ينظر إلى الآخر في ألفة وصدقة، يتيمان وحيدان في مدينة القاهرة الراقدة تحت شبورة رمادية، وسماء ملبدة بالآلهة غير مبالية.

همست وديدة في أذنى والعربة اللورى تدخل إلى مشارف الإسماعيلية: لازم أعرفك باليوزباشى رجب، ناويين نتجوز على طول أول ما يرجع من الحرب، وحشنى موت يا نوال، حتبقي مفاجأة لما يشوفنى، ما يعرفش إنى تطوعت في كتيبة التمريض عشان أشوفه. ثم أطبقت شفيتها في صمت، كأنما تخون الوطن، تفكر في الحب وقت الحرب، وتنتمي إلى عالم النسوة العاطلات الخاملات، لا شيء يشغلهن إلا الرجال.

سمعنا دويّ الانفجارات من بعيد، أسرع السائق فوق الطريق المحاذي للسكة الحديد، لم أكن أعرف إلى أين نتجه، الظلمة كثيفة، الشفق الأحمر تراءى من بعيد، دويّ الانفجار يشتد، السائق يدوس على البنزين، صوته يعلو على صوت الموتور: لازم نوصل المعسكر قبل الفجر ما يطلع. كأنما هو في سباق مع حركة الشمس حول الأرض أو الأصح حركة الأرض حول الشمس كما قال كوبرنيكس، كوكب الشمس مركز الكون وليس الأرض، مسمار كبير في نعش الكنيسة عام ١٥٤٣، قبل مسمار داروين بثلاثة قرون ونصف، وكمن مسامير أخرى تعاقبت حتى اليوم، وأصبحت الشمس مجرد كوكب ضمن أربعمئة مليون كوكب آخر في المجموعة الشمسية، تبعد عن الكوكب الأرض أربع سنوات ضوئية، أي بلايين البلايين من الكيلومترات، المسافة بين الشمس والأرض أكثر من مائة وخمسين مليون كيلو متر تجتازها أشعة الشمس في ثماني دقائق ضوئية، أي بسرعة نصف مليون كيلومتر في الثانية الواحدة.

المدافع تدويّ في أذنى، السيّارة اللورى تتخبط فوق مطبات الطريق، الموتور يعلو فوق صوت السائق، زجاجات الدم والبلازما تتخبط وراءنا، التمرجي القابع في قاع السيّارة يشير إلى السماء في فزع، فيه غارة جوية وفوق راسنا طائرة!

كان ذلك في نهاية عام ١٩٥١، كنت في العشرين من العمر، لا أعرف معنى الحرب، كنت أسمع عن المدافع والرشاشات، لم أعرف في حياتي حتى ذلك الوقت إلا رشاشة الفلت، أمسك مقبضها بيدي وأحرّكه كالمنفاخ، يتطاير رذاذ الفلت ويقتل الذباب. منذ سافر أحمد إلى القنال وأنا أرى حُلماً يتكرر في النوم، أمسك رشاشة الفلت وأحرك مقبضها، يتساقط الجنود الإنجليز إلى الأرض كالذباب الميت. في طفولتي كان يُطربني سماع صفّارة الإنذار تُعلن عن الغارة الجوية، ينطلق النَّاس خارج بيوتهم إلى المخابئ تحت الأرض، تخرج النَّساء بقمصان النوم والرجّال بلا أحذية ولا بدل ولا كرافتة. في المخبأ تذوب الفوارق بين الأغنياء والفقراء، يختلط النَّساء بالرجّال والبنات بالأولاد، نلعب نحن الأطفال معاً في الظلمة بقطع الطوب الصغيرة، نرسم فوق التراب المربعات ونلعب السبيجة، حين تنطلق

صَفارة الأمان نشعر بالحزن، تعود كل عائلة مع أطفالها وراءَ جدران بيبتها، تعود التقاليد تفصل البنات عن الأولاد، تبقى البنات داخل المطبخ ويخرج الأولاد يلعبون في الشارع. كانت جدتي تقول: إن الله فرَّق بين البنات والأولاد، وهو الذي خلق العائلات وخلق البيوت والجدران.

لم أكن أرى الكشافات في القرية، كنت أراها في بيت جدي في القاهرة، حين تُدوي صَفارة الإنذار أجري إلى الشرفة الواسعة المطلَّة على السماء، تتعلق عيناى بكشافات الضوء، تروح وتجيء في الكون اللانهائي، أذرعها بيضاء طويلة تسمح الظلمة من السماء، كأنما هي أذرع الله تكشف طائرات الأعداء، وترن أصوات المدافع في أذني من بعيد مثل صواريخ العيد.

توقفت العربة اللوري عند المعسكر، خيام سوداء متفرقة تتخفى تحت الشجر، عربات جيب مصفحة مركونة على جانب الطريق، عربات كارو تجرُّها الخيول أو الحَمير، أوعية للأكل وماء داخل قَرَب من جلد الماعز، شباب يرتدون بدل حرب العصابات، بدو الصحراء يجرُّون جمالهم من فوقها الأسلحة مختفية تحت عباءات من صوف الإبل.

بدأ الشَّباب ينقلون زجاجات الدم والبلازما، رأيت رئيس المعسكر واقفاً أمام باب الخيمة، يتأمل الشَّباب ينصبون خيامهم، يحفرون خنادق تحت الأرض، الجو مشبع بالرمال والتراب. سألت أحد الشَّباب عن أحمد حلمي، لا أحد يعرف أحدًا باسمه الحقيقي، الجميع يحملون أسماء تنكيرية.

من بعيد وسط الضباب على شط القنال كتلة ضخمة من السواد تنتصب في الظلمة مثل قلعة ضخمة تحرس قناة السويس، يقولون عنها معسكرات الإنجليز، قناة السويس ترتبط في خيالي الطفولي بالخدوي عباس، ودليسيبس، والفلاحين يحفرون القناة من أجل الله والوطن، كالعبيد بنوا الهرم الأكبر من أجل فرعون والوطن... الكرايبيج كالسياط تلسع أجسادهم، يسقطون من الإعياء ويموتون، يتطوع أبناءهم الفقراء فداء الوطن، يتلقَّون الرصاص في صدورهم، يُستشهدون في ساحة القتال وهم يهتفون: الملك، الله، الوطن!

سمعت الشَّباب يهتفون، كل فرقة تهتف بشعار مختلف: الإخوان المسلمون يرددون لا إله إلا الله محمد رسول الله، الشيوعيون يهتفون الكفاح المسلح الكفاح المسلح يحيا الشعب، شباب الوفد يهتفون النحاس النحاس. تختلط أصوات الشَّباب وتذوب في الصمت، يتعالى الغبار مع ضربات المعاول في الأرض. على الضفة الأخرى للقناة أرى تلال سيناء، رمالها تشوبها حُمْرة تحت أشعة الشمس كأنما هي غارقة في الدم. منذ التَّاريخ كانت سيناء هي

البوابة الشمالية يدخل منها الغزاة، يركبون الخيول وألحمير والدبابات أو الطائرات. فوق الخريطة تبدو مثلثة الشكل، شبه جزيرة سيناء، تلال من الرمال دُفنت تحتها أجساد الشباب الفقراء، لم يكن أبناء الأثرياء يذهبون إلى الحرب، يدفع الأب الفدية، مبلغاً من المال يشتري به حياة ابنه، يموت الشاب الفقير في سبيل الله والوطن.

في الليل، داخل الخيمة، همستُ وديدة في أذنى: ما حدش عارف حد هنا، مش عارفة أنام يا نوال، خايفة موت نرجع من غير ما أشوفه. ثم أغمضت عينيها وراحت في النوم ... تشبه الطفلة، شعرها أسود غزير يغطي وجهها، ترتدي قميص نوم من الكستور الأبيض فيه زهور صغيرة حمراء. فتحت عينيها ورأتني شاخصة إلى سقف الخيمة، همست في أذنى: صاحية ليه يا نوال؟! اللي واخذ عقلك يتَهَنَأُ بيه! لازم أرجع بكره يا وديدة، بابا ما يعرفش إنى هنا، قلت لهم في البيت إنى في مستشفى القصر العيني وعندي نوبتشية، لازم أرجع بكره يا وديدة.

كانت المرة الأولى أكذب على أبى وأمى وأبيت خارج البيت، رتبت مع السائق أن أعود معه في العربة اللوري في الصباح. فقدت الأمل في العثور على أحمد. كل شيء هنا يبدو غريباً، مثل اللحم المفزع. رأيت المرضعات يغسلن الجروح من الدم والصديد، في إحدى الخيام رقد شباب ينزفون الدم، فوق رؤوسهم زجاجات الدم والبلازما، والخرطوم السوداء الرفيعة يجري فيها الدم من الزجاج إلى الأذرع الممدودة فوق الأرض، أحد الشباب لفظ النفس الأخير، دفنوه في الأرض في مقبرة بجوار الخيمة.

لم يعرف أحد كم من الفدائيين ماتوا في هذه الحرب عام ١٩٥١، لكن الأرقام نُشرت بعد ثلاثين عاماً. في عام ١٩٨١، وأنا داخل الزنزانة في سجن النساء بالقناطر الخيرية، جاءت زوبة، من عنبر المومسات تحمل أرغفة الخبز لنا، لفتت الأرغفة الثلاثة الخاصة بي داخل ورقة من أوراق الصحف، وهمست: بالهناء والشفاء يا دكتورة نوال. كانت زوبة تهرب لنا بعض أوراق الصحف. الصحيفة تحمل تاريخ ٢٧ أكتوبر ١٩٨١؛ أذكره لأنه تاريخ ميلادي. لم تكن إلا صفحة واحدة داخلية، فيها بعض الأخبار وخبر صغير في أسفل الصفحة يقول: في حرب ١٩٥١ قُتل من الفدائيين ما يزيد عن مائتي فدائي. كشفت الحقائق بعد ثلاثين عاماً عن أن هذه الحرب ضد الاحتلال البريطاني هي التي مهدت لثورة يوليو عام ١٩٥٢، إلا أن أسماء هؤلاء الشهداء ضاعت في التاريخ، بعضهم حُفر اسمه على عمود من الحجر بالقرب من شط القنال، سقط الحجر مع الزمن واندثر الاسم في العدم. كنت أرمق هؤلاء الفدائيين بعين ملؤها الحسد، وهم يسرون برءوس مرفوعة، سلاحهم فوق كتفهم، عيونهم تلمع بالكبرياء، إن سقطت قنبلة فوق الخيمة يموتون

واقفين في كبرياء، وأنا أموت في فراشي راقدة مع النساء المرضيات. لم يكن للمرأة أن تنال شرف الموت وهي تقاتل، كانت تموت وهي راقدة في فراشها، أو وهي تحمل بُران الفدائيين في الجردل، أو تغسل جروحهم من الدم والصديد.

من بعيد كنت أرمق معسكرات الإنجليز، ينتابني القلق أو الخوف من المجهول، هل أعيش حتى أرى هذه المعسكرات حُطامًا؟! إنها تبدو مثل القلعة المحصنة، مثل الأبراج العالية تسكنها كائنات غير بشرية، مفترسة ومخيفة، يتراقص من فوقها العلم البريطاني، مثل طائر خرافي من الطيور الجارحة، خطوطه حمراء بلون الدم تتقاطع مع خطوط سوداء بلون الموت.

بعد أربعة عشر عامًا جئت إلى الإسماعيلية بعد حرب ١٩٦٧، تغير شكل العلم فوق معسكرات الأعداء، أصبح يحمل نجمة داود، يرفرف في الظلمة، والعربة اللوري تشق الطريق ما بين الإسماعيلية وبورسعيد.

تحت ظلمة الليل كانت الصحراء تتلاشى والسماء، كل شيء في الكون يتساوى في الظلام، أعلام الدول ومعسكرات الأعداء، كلها تتساوى وتذوب في السواد، عيناى مفتوحتان لا أنام، وديدة راحت في النوم تحلم بعودة خطيبها من الحرب وليلة الزفاف. أخشى أن أسقط في النوم ولا أصحو في الصباح، أخشى أن تسقط قنبلة وأموت في الإسماعيلية، يكتشف أبي وأمي أنني كذبت عليهما وقضيت الليلة في الإسماعيلية وليس في نوبتشية القصر العيني، كان الموت أهون في نظري من انكشاف الكذب.

خرجت من الخيمة أتمشى في الصحراء، الشفق الأحمر يسري في صدري مع نسمة الفجر، أستشعر الحنين للحب، أمشي نحو عين الماء، أتصور أنني سوف ألتقي بأحمد هناك، ربما نهض من النوم ليشرّب، ربما يدرك أنني هنا في الإسماعيلية، في الخيمة المجاورة له، وأنتني أنهض وأمشي إلى عين الماء، كأن بيننا موعدًا وأنا أمشي إليه، وهو يمشي إليّ، نقطتان صغيرتان في الكون تمشيان نحو بعضهما، نجمان مؤرّقان في سماء الليل والكون كله نائم. لم يكن أحد عند عين الماء، أحسست خيبة الأمل، كأنما أحمد خان العهد وتخلف عن الموعد. غسلت وجهي وذراعي بالماء البارد، ملأت كفي بالماء وشربت، ليس له طعم ماء النيل، له نكهة معدنية، كأنما أضيفت إليه مادة كيميائية، هل سمم الأعداء الماء؟! كنت أسمع من البدو أن الأعداء يسممون عيون الماء والآبار. من بعيد رأيت البدو يسرون وهم يقودون الحمير أو الجمال، نصبوا خيامهم وانضموا إلى كتائب الفدائيين، الفلاحون أيضًا جاءوا بفئوسهم، وقطّاع الطرق جاءوا بالأسلحة. والفلاحات أيضًا، منهن امرأة فارعة القامة تحمل بندقية

فوق كتفها يسمونها أم الفدائين، ترتدى جلباباً واسعاً أسود، تربط رأسها بحزام من جلد الماعز، قدماها كبيرتان سمراوان، كعبان مشققان، تشبه جدتي الفلاحة أم أبى، خطوتها واسعة فوق الأرض، خفيفة الجسم، قفزاتها سريعة كوثبات الفهد.

هنا وهناك بركت الجمال والحمير، راحت فى ما يشبه النعاس، والحصان الأبيض يركبه رئيس المعسكر، أهدها إليه أحد الأعراب من سيناء، تلال سيناء وصخورها منتصبه فى غضب، كأنما تريد الانقضاض على معسكرات الأعداء.

«الله أكبر والله الحمد، هذه التلال يا إخوانى خلقها الله لتحمي المسلمين من غزوات الكفرة!» هذا هو صوت أحد الفدائين فى كتيبة الإخوان المسلمين، صوته ينطلق مع أذان الفجر. وصاح شاب من كتيبة الوفد أو الشيوعيين «والحمية العسكرية هنا ليه يا أخ إذا كانت التلال دي حاميانا؟!» نشب حوار أشبه بالمعركة بين الشباب، كادت تُستخدم فيه الأيدي والبنادق. لم يُفُضْه إلا حضور رئيس المعسكر، عضلاته مشدودة، علامة القيادة، سلاحه يُطل من جيبه، يرتدى كاسكيت يحجب نصف وجهه العلوي، ذقنه مربعة عريضة، راح يتمشى بعد أن فض العراك بخطوة الأسد الهادئ الواثق من نفسه، يرفع وجهه نحو السماء، عيناه تشردان فى الأفق نحو معسكرات الأعداء، ربما كان يتخيلها حطاماً، يتخيل نفسه بطل النصر، أينتصر حقاً على الإنجليز؟! وإن انتصر وأصبح بطلاً لمن يدين بهذه البطولة؟! لهؤلاء الشباب الفدائين أم للإنجليز الأعداء؟!

أغمض عينيه كأنما نام وهو واقف، ثم أطرق إلى الأرض، ربما اجتاحه شعور بالإثم وتأنيب الضمير، سؤال يدور فى عقله، أيمكن أن يكون بطلاً دون وجود الإنجليز الأعداء؟! أخرجته السؤال فاستدار، لم أعد أرى إلا ظهره، وارتفع صوت الفدائي يمزق الصمت: يا إخوانى، إن جبل سيناء معنا ضد الإنجليز؛ فقد ظهر الله فوق هذا الجبل لسيدنا موسى عليه السلام، اصطفاه الله من كل جبال العالم ليهبط فوقه، وهناك أيضاً معبد سانت كاترين، والطريق الذى سارت فيه السيدة مريم مع سيدنا عيسى عليه السلام ويوسف النجار هاربين إلى مصر، هذا يا إخوانى جبل مقدس، الرمال فيه مقدسة، التلال والصخور تتربص بأعدائنا الإنجليز، وإذا كان الجبل معنا فإن الله معنا والنصر معنا، وسوف تصبح هذه المعسكرات حطاماً بإذن الله، نُزِيلُها من الوجود، ونبنى مكانها جامعاً ومثدنة يرتفع من فوقها صوت الحق، الله أكبر الله أكبر!

دبّ الحماس فى الشباب، هتف بعضهم: الله أكبر. فريق آخر راح يهتف: يحيا كفاح الشعب المسلح! وانطلقت أصوات أخرى تهتف: النحاس النحاس! وارتفع شعار الهلال

والصليب في الجو، مع راية عليها سيفان يحملان المصحف الشريف، وراية أخرى مرسوم عليها المطرقة والمنجل، وعلم مصر يرفعه بعض الشباب.

كان رئيس المعسكر واقفاً من بعيد يتطلع إليهم، نصف وجهه العلوي يختفي تحت الكاسكيت، عضلات فمه مشدودة، يمسك ذقنه المربعة بأصابع متوترة، ربما كان يفكر أن معركته الأولى هي إخضاع هذه الفرق المتناحرة، ثم بعد ذلك يأتي إخضاع الإنجليز، أليكون إخضاع الإنجليز أسهل؟! هؤلاء الشباب الفدائيون ليسوا جنوداً من أبناء الفلاحين الفقراء الجهلة، إنهم طلبة في الجامعات، رءوسهم محشوة بالأفكار الجديدة: حرية الرأي، الاستقلال، الديمقراطية، العدالة الاجتماعية. هل تنفع هذه الأفكار في الحرب؟! الحرب ليس فيها إلا فكرة واحدة: الطاعة العمياء للأوامر وقتل العدو أينما كان!

كلما فرغت الدماغ من الأفكار أصبح الجندي أفضل.

كان واقفاً من بعيد مطرق الرأس كأنما يفكر في هذه العبارة، الغبار الرمادي الأصفر يغطي الكون، العواصف الصحراوية تهب يعقبها نباح الكلاب، صوت طلقات الرصاص من بعيد، أهى بنادق صيد؟! هل خرج الإنجليز في رحلة للصيد في الصحراء أم خرجوا مع كلابهم في حملة استكشاف أوكار الفدائيين؟! كلابهم لديها جهاز عصبي حساس يعرف رائحة العدو، هذه الرياح الصحراوية قد تحمل رائحة الفدائيين إلى أنوف الكلاب، الرياح قادمة من ناحية الجبل، أينقلب الجبل ضد المسلمين ويصبح مع الإنجليز؟!

كان السؤال يدور في رأسي وأنا واقفة أنتظر سائق اللوري، أتلفت حولي في دهشة لا أكاد أعرف من أين جئت وإلى أين أمضي؟! الأرض مفروشة داخل الخيمة بقطع من فروة الخرفان، سرير من الصاج ترقد فوقه وديدة، فوقها كليم من الصوف، طشت نحاس وإبريق ماء، تحت وسادتها المصحف الكريم، آية منقوشة تتدلى عند باب الخيمة ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، مقعد من القش المجدول، كنية من البامبوه أو عيدان البوص المشغولة بأيدي النساء من البدو، حصيرة فوق الأرض من القش أو الجريد.

كانت وديدة راقدة في سريرها تحمق في الظلمة، تنظر إلى أصابع يديها، أصابع شاحبة رفيعة تهتز في الضوء الشاحب، ترسم على الجدار ظلالاً سوداء على شكل أصابع، عينها شاحستان مفتوحتان لا يطرف لهما جفن. سرت فوق جسدي قشعريرة، «وديدة!» ناديتها بصوت هامس، لم تتحرك شفثاها، تصورت أنها ماتت في هذا الوضع، يدها اليمنى فوق صدرها، صغيرة ناعمة كأصابع الطفلة، خاتم الخطوبة يلتف حول إصبعها، يشع في الظلمة ضوءاً خافتاً ذهبي اللون.

بعد عام واحد من هذا اليوم كنت أمشى في فناء مستشفى قصر العيني الجديد، رأيت وديدة تمشي منحنية الظهر ترتدي ملابس الحداد السوداء، تصورت أن خطيبها قُتل في الحرب؛ لكنها أجهشت بالبكاء، وهمست في أذني: يا ريته كان مات في الحرب على الأقل كنت أفكره بالخير ... مسحت دموعها وصمتت، تصورت أن خطيبها تعرض لخبية الأمل، مثل أحمد حلمي، يحقن نفسه بالسم لينسى الخيانة، الحرب مثل وابور الطحين يا وديدة، إن لم تقتل الجسد قتلت الروح، يصبح الإنسان ميتاً وإن عاش.

أجهشت وديدة بالبكاء المكتوم، أنفاسها تتقطع مع كلماتها وهي واقفة في فناء المستشفى: موت الضمير أفضع شيء يا نوال، والرجل الخائن للحب يخون الوطن أيضاً. كان خطيبها من البوليس السياسي، تنكر في زي الفدائيين، عاد من القنال سراً قبل حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢. اختفى عن خطيبته وديدة ستة شهور حتى قيام ثورة ضباط الجيش يوم ٢٣ يوليو، ظهر اسمه في الصحف بعد بضعة شهور، فتحت وديدة الجريدة ذات صباح، رأته صورته وخبراً عن حفل زفافه إلى ابنة أحد رجال الثورة، كان الحفل ليلة عيد رأس السنة الجديدة أو يناير ١٩٥٣. ارتدت وديدة ملابس الحداد السوداء، ابتلعت مائة قرص لونه أسود مع كوب من الماء، تمددت في سريرها داخل عنبر المرضات، أنقذوها في المستشفى بغسيل سريع للمعدة. أجهشت بالبكاء حين عادت إلى الحياة، حاولت الانتحار مرة ثانية، أنقذها من الموت طبيب جديد في سنة الامتياز، وقعت في حبه وكفّت عن الانتحار. بعد عشرة أعوام وأنا أمشي داخل حديقة الحيوان التقيت أحمد حلمي وجهاً لوجه، كان ذلك في يوم حارٍّ من صيف عام ١٩٦٣، كنت أهبط في الصباح الباكر من بيتي في شارع مراد، أمشي مسافة دقيقة أو دقيقتين لأصبح في شارع الجيزة، أمام باب حديقة الحيوان. لم أكن أدفع رسوم الدخول، أصدر الطبيب البيطري للحديقة أمراً بإعفائي من الرسوم، قلت له: إنني أكتب رواية طويلة جديدة، وأن الوحي لا يهبط عليّ إلا وأنا أتمشى في ممرات الحديقة. كان رسم الدخول خمسة قروش فقط، ليست لها قيمة الآن، كانت تبدو لي منذ سبعة وثلاثين عاماً مبلغاً كبيراً لا يمكنني دفعه كل صباح، وكان الطبيب البيطري يتابع ما أنشره من قصص ومقالات.

- وإيه عنوان الرواية الجديدة يا دكتورة نوال؟

- الباحثة عن الحب يا دكتور.

لمعت عيناه الضيقتان لحظة ثم انطفأ البريق، كأنما عادت إلى ذاكرته صورة من الماضي البعيد، كان رجلاً قصيراً ممتلئ الجسم في الخمسين، يبدو لي عجوزاً وأنا في مرحلة

الشَّباب. كنت أقف أمام جبلاية القروء، تلقتَّ حوله في دهشة يتأمل وجوه الحيوانات، كان الشمبانزي جالساً مربعاً فوق جذع شجرة يشبه الإنسان. تركته واقفاً يتأمله وسرت إلى حديقة الشاي، هناك كانت المنضدة التي أجلس إليها كلَّ يوم وأكتب الرِّواية، أتسلَّى بمراقبة البط في البحيرة الصغيرة، يسبح تحت أشعة الشمس الذهبية، يفرد أجنحته ويطير فوق سطح الماء، ينفض عن ريشه الرذاذ، تتناثر من حوله القطرات اللؤلؤية، تشع ضوءاً مثل ذرات تتساقط من الشمس.

كنت أكتب الفصل الأخير من الرِّواية، كانت البطلة قد أعلنت لبطل القصة أن ما بينهما قد انتهى، وسألها بدهشة كيف ينتهي الحب؟! قالت: الحب ينتهي مثل زهرة تموت ولا تعود، مثل فراشة تطير فوق الزرع يقبض عليها الأطفال وتموت في أيديهم. سألتها: هل في حياتك رجل آخر؟ قالت: ليس في حياتي رجل آخر، لكن في حياتي نساء ورجال كثيرون، بعد أن خرجت من خندق الحب إلى الحياة الواسعة.

رفعت وجهي من فوق الأوراق، كانت الشمس قد مالت نحو الغرب، أسراب البط عادت إلى بيوتها، رأيت إلى جواربي شخصاً واقفاً، كان يرتدي قميصاً أبيض، ونظارة سوداء تُخفي عينيه، ابتسم قليلاً، تذكَّرتَه على الفور.

– أهلاً يا أحمد.

– إزيك يا نوال!

لم تعد كلمة نوال بصوته تهزني، لا شيء يدق تحت ضلوعي، لعب الزمن دوره في نسيان الألم والحزن والفرح والحب، قميصه الأبيض أصبح مثل أي قميص، نظارته السوداء مثل أي نظارة سوداء، واسمه أحمد حلمي أنطقه كأبي اسم عادي.

جلس معي بعض الوقت قبل أن ينصرف، طلبت له كوب شاي، قال: أتذكرين حين جلسنا هنا في أول لقاء لنا منذ اثني عشر عاماً؟!

كنت أذكر اللقاء الأول، لم تعد الذكرى تؤلمني أو تفرحني، جلست معه أشرب الشاي كما أجلس مع أي زميل أو صديق، أتكلم معه بحرية وسهولة، أصبحت العلاقة بيننا أكثر إنسانية.

لم تعد علاقة بين رجل وامرأة، تحررنا من ثقل التَّاريخ والإرث العبودي القديم، جلست معه ودار الحوار بيننا أجمل مما كان، نكهة الشاي أصبحت أحلى مما كانت، أصبح أحمد إنساناً بعد أن كفَّ عن أن يكونَ زوجي.

إجهاض الثورة

صباح السبت ١٥ يوليو ٢٠٠٠.

جالسة إلى مكتبي أحاول الكتابة، أود أن أنهي هذا الجزء الأخير من قصة حياتي، القلم بين أصابعي لا يتحرك، شريف يقرأ الصحف في الصباح، ثم يجلس إلى مكتبه يواصل كتابة روايته الجديدة، لا أعرف كيف ينتقل بهذه السهولة من قراءة الأخبار إلى كتابة الرواية؛ إن قرأت الصحف أتوقف عن الكتابة يوماً أو يومين حتى يزول التوتر والغضب، حتى أنسى حوادث القتل والحرب، أو أخبار المفاوضات من أجل السلام، كلاهما محكوم بقوة السلاح والمال والإعلام؛ الثالث الذي يحكم العلاقات بين الدول أو الجماعات والأفراد. أصبحت أقرأ الصحف بطريقتي الخاصة، أكتشف التناقض بين السطور المكتوبة وغير المكتوبة، والصور المرسومة في الصفحة الأولى، الابتسامات العريضة فوق الوجه واليد تختفي وراء الظهر ممسكة بألة القتل. هذا الصباح كانت صورة الثالث في كامب ديفيد الثانية، منذ واحد وعشرين عاماً كانت كامب ديفيد الأولى، الوجوه الثلاثة في الصفحة الأولى، الرئيس الأمريكي والرئيس الإسرائيلي والرئيس المصري، يبتسمون للكاميرا ويتفاوضون من أجل السلام، كلمة السلام تعني الاستسلام أمام بطش السلاح والمال والإعلام. خرج الرئيس المصري صفر الديدن يبتسم للكاميرا يعلن الانتصار، وفي عيد النصر ٦ أكتوبر ١٩٨١ انطلقت مائة وعشرون رصاصة في صدره، سقط قتيلاً وهو يشهد موكب النصر المصنوع من البالونات والألعاب النارية الملونة، سار في جنازته الرؤساء الأمريكيون والإسرائيليون

وتخلف الشَّعب المصري عن الموكب. ذلك اليوم كنت في زنزانة داخل سجن النساء بالقناطر الخيرية، كان الرَّئيس المصري القتل هو الذي أمر باعتقالي ضمن المعارضين لمعاهدة كامب ديفيد، كان يسميها معاهدة النصر والسلام، أصبح اسمها اليوم معاهدة الهزيمة والاستسلام، لا تتكشف الأوراق السرية للمفاوضات والمعاهدات إلا بعد عشرين أو ثلاثين عامًا من حدوثها، لا تعرف الشعوب شيئًا عما يدور في المداولات السرية، تنشر الصحف وأجهزة الإعلام أخبارًا ملفَّقة، يعيش النَّاس في أوهام النصر، وأوهام الثراء بعد الموت، في قصور الجنة، يموتون والابتسام على وجوههم وقلوبهم محروقة وقلذات أكبادهم مقتولة. هكذا كانت صورة الرَّئيس الفلسطيني في كامب ديفيد الثَّانية، يبتسم للكاميرا، يده وراء ظهره فارغتان، لا يملك شيئًا، لا السلام ولا المال ولا الإعلام، ظهره عارٍ لا يستند إلى أية قوة، جردوه من سلاحه ومن شعبه، جرَّوه إلى مائدة المفاوضات في كامب ديفيد. الرَّئيس الأمريكي يبتسم في وجه الرَّئيس الإسرائيلي، أيديهما تتشابك من وراء الظهر، يتبادلان السلاح والمال والإعلام، حصلت إسرائيل بالأمس فقط على ٢,٨ مليار دولار، وحصلت مصر على ٢ مليار دولار، صدر قرار الكونجرس الأمريكي والمفاوضات تجري في كامب ديفيد. قرأت الخبر في الصحف بالأمس، واليوم السبت ١٥ يوليو ٢٠٠٠ أرى صورة الرؤساء الثلاثة الأمريكي والإسرائيلي والفلسطيني، تحت الصورة مانشيت كبير يتألَّق تحت أضواء النصر: تلعب مصر دورًا قياديًا في عملية السلام كامب ديفيد الثَّانية كما لعبت في كامب ديفيد الأولى.

شريف يناولني الصحيفة لأقرأ الأخبار، أخفتي في غرفتي، أشعر بالعار! ما علاقة خبر المعونة الأمريكية لمصر ومعاهدة كامب ديفيد الأولى والثَّانية؟! كلمة المعونة تجعل الدم يصعد إلى رأسي، كأنما شريان سينفجر حتمًا، ترن كلمة المعونة في أذني نابية، مثل البصقة أو الصفعة على الوجه. منذ عهد السادات أصبحت مصر تتلقى المعونة الأمريكية؛ من أجل استمرار المعونة تحدث التنازلات. قلت لشريف: الدَّولة التي تعيش عالَّة على غيرها كالمرأة أو الطفل الذي يعيش عالَّة على غيره، منذ بلغت سن الرشد أصبحت أعول نفسي بنفسى، لكن كيف يكون الفرد مستقلًّا في وطن غير مستقل؟! منذ الطفولة أهتف مع أبي، الاستقلال التام أو الموت الزُّوأم. لم أعرف ما هو الموت الزُّوأم، تصورت أنني لن أموت وإن سِرْتُ إلى الموت بقدمى، كنت أسمع أمى تقول: نرمى نوال في النار ترجع سليمة. أصبحت أمشى داخل النار دون أن أحترق، أسافر إلى جبهة القتال ثم أعود دون أن أموت.

كم مرة سافرت وعدت من دون أن أفقد ذراعاً أو ساقاً، بعد هزيمة ١٩٦٧ تطوعت ضمن مجموعة من الأطباء، سافرنا إلى جبهة القتال في القنال، كان عددنا ستة أطباء متطوعين، انقسمنا إلى ثلاث فرق، كل فرقة تتكون من طبيبين، سافرت الفرقة الأولى إلى السويس، والثانية إلى الإسماعيلية، والثالثة إلى بورسعيد، كنت ضمن الفرقة التي سافرت الإسماعيلية مع زميل لي اسمه الدكتور طلعت حمودة.

كان صباحاً مُكْفَهراً مُلَبِّداً بالغيوم، تركت مكتبي في وزارة الصِّحَّة لأركبَ العربة اللوري إلى مدينة الإسماعيلية، جلست إلى جوار السائق في المقعد الأمامي، صعد طلعت حمودة من الخلف وجلس فوق دكَّة خشبية بين الصناديق المعبأة بزجاجات الدم والبلازما، كان شاباً من عمري نحيف الجسم قصير القامة، يمكن أن يجلس بسهولة في أي مقعد، الطريق بين القاهرة والإسماعيلية يستغرق بالسيارة حوالي الساعتين، عجلات العربة اللوري ضخمة تضرب الأسفلت بقوة، أصابع السائق طويلة سمراء مشققة، تحوط عجلة القيادة كالأم تحتضن طفلها في صدرها، عيناه غائرتان تحت جبهة عريضة تتطلعان نحو جبهة القتال بشيء من القلق، يرتدي بدلة صفراء مهترئة، طاقية فوق رأسه لونها أصفر شاحب، شعر رأسه كثيف مجعد يتخلله الشيب، عمره خمسون عاماً، بدا لي عجوزاً وأنا في تلك المرحلة من الشباب، كنت أناديه عم محمد، يناديني باسم الضكطورة ... يذكّرني بلهجة دادة أم إبراهيم وأقاربي في القرية، كان صامتاً طوال الطريق، مستغرقاً في التفكير، جسده القصير الممتلئ يهتز مع اهتزازات العربة اللوري، أصوات الزجاجات تتخبط داخل الصناديق، صوت الدكتور طلعت حمودة يأتينا من الخلف: فاضل كام كيلو يا عم محمد على الإسماعيلية؟

– أربعة كيلو يا ضكطور.

– أنا سامع أصوات انفجارات.

– أيوه يا ضكطور.

– جايه منين دي يا عم محمد؟

– عساكر إسرائيل بيضربوا الإسماعيلية من البر الثاني.

أتابع الحوار بين السائق والدكتور طلعت حمودة دون أن أدرك ماذا يحدث، لم أكن أعرف ما هي الحرب حتى ذلك اليوم في نهاية عام ١٩٦٧، لم أكن أسمع صوت القنابل إلا في الأفلام، لم أكن شهدت القتلى والأشلاء الممزقة إلا في الصور.

سمعت صوتاً غريباً، يشبه صوت الريح تعوي بصفارة حادة تكاد تحرق الأذن، يشبه صوت طائرة نفاثة أو جسم صلب مدبب يخترق الكون بسرعة تفوق سرعة الضوء. كانت

العربة اللورى قد دخلت الإسماعيلية، ضغط السائق على دواسة البنزين، اختار الطرق الجانبية بعيداً عن شاطئ القنال، لم تكن إلا دقائق حتى وصلنا إلى المستشفى، فى هذه الدقائق توقف عقلى عن التفكير، اختفى الدكتور طلعت حمودة تحت الصناديق، أخفيت رأسى بذراعى الاثنتين، سمعت عم محمود يقول: ربنا ستر يا ضكطورة، فيه دانة عدت من ورانا، ربنا ستر!

كانت المرة الأولى التى أسمع فيها كلمة «دانة» إنها مثل القذيفة التى تنطلق فى الجو وتحدث ذلك الصوت الشبيه بصفارة الريح العاتية، يعقبها على الفور صوت الانفجارات. رأيت جدراناً تسقط ونيراناً تشتعل، أغمضت عيني كأنما فى الحلم، كأنما العربة اللورى تمشي داخل النار، وصوت أمى يأتيني من تحت الأرض: نوال نرميها فى النار ترجع سليمة. فتحت عيني على مشهد عجيب، وجدت نفسى واقفة أمام باب المستشفى، العربة اللورى واقفة بجوار الرصيف داخلها الصناديق، مقعد السائق عم محمد خال ليس فيه أحد، فقط ذراعه اليمنى بأصابعه الخمسة السمراء المشققة قابضة على عجلة القيادة، أين ذهب جسد السائق عم محمد؟! رأيت بعض الوجوه من حولى، وصوتى يقول كأنما ليس صوتى: فىن عم محمد؟! فىن الدكتور طلعت حمودة!؟

كان الدكتور طلعت حمودة منبطحاً تحت الصناديق فوق أرض العربة اللورى، أخرجوه من الباب الخلفى شاحب الوجه يهمس بصوت متحشرج: حصل إيه يا دكتورة نوال؟

– مش عارفة يا دكتور طلعت.

رأيت من حولنا بعض التمورجية بالمرائل البيضاء، أصواتهم تصرخ فىنا: ادخلوا المخبأ بسرعة! أخذونى والدكتور طلعت حمودة إلى المخبأ تحت المستشفى، كان هناك مدير المستشفى والأطباء والمرضات والتمورجية وعدد من الجرحى، سمعت أصواتاً تقول: عم محمد راح، مسكين، ضربته الدانة، وفجأة اهتز المخبأ كأنما زلزال يرجُّ الأرض، تساقط التراب فوق رأسى من السقف، تصورت أن السقف سوف يسقط، وسوف نموت كلنا تحت الأنقاض.

توالت القذائف والدانات فوق المكان الذى نحن فيه، انخلع قلبى وانبطح الجميع فوق الأرض، تصورت أنهم ماتوا جميعاً وأنا الوحيدة على قيد الحياة، ثم سمعت صوت مدير المستشفى يقول: الضرب المرة دي جاد، يظهر عاوزين يهدؤوا المستشفى. وقال أحد الأطباء: أصلهم بقوا قريبين أوى مننا، بقوا على الناحية الثانية من القنال قصادنا على طول، وجايز شايفينا.

كان الجنود الإسرائيليون قد وصلوا إلى الضفة الأخرى من قناة السويس، بعد احتلالهم لأرض سيناء كلها بعد خمسة أيام فقط من حرب يونيو ١٩٦٧، وكان التراب يتساقط فوق رأسي وأنا جالسة فوق الأرض متكورّة حول نفسي، أضع يدي فوق أذني حتى لا أسمع صوت الدانات التي تصفّر وتعوي كالريح العاتية، يعم السكون لحظة ثم تدوي الصفارة في أذني، يعقبها صوت الانفجار ويتساقط مزيد من التراب فوق رأسي، اخترقت إحدى الدانات جدار المخبأ ورأيت مدير المستشفى راكعاً يصلي يقرأ الشهادة بصوت مرتعش. يوم من الأيام السوداء في حياتي، رأيت الموت دون أن أموت، دون أن أفقد الوعي لحظة واحدة.

غرقت تحت التراب المتساقط من السقف إلا أنني بقيت في مكاني أتنفس، وكان هناك في الناحية الأخرى جهاز تليفزيون فوق منضدة، كانت الصور تظهر على الشاشة رغم الدانات، لم ينقطع التيار الكهربائي، ولم ينقطع الإرسال لحظة واحدة، لم أعرف ماذا كان يُعرض فوق الشاشة، ربما أحد الأفلام القديمة لأنني رأيت راقصة تشبه سامية جمال ترقص وفريد الأطرش يغني. كان مشهداً غريباً مذهلاً، نحن في الإسماعيلية غارقين تحت التراب تنهال علينا الدانات من الجيش الإسرائيلي المرابط على الضفة القنال، ومدينة القاهرة ترقص وتغني.

بدا المشهد كأنما في مسرحية عبثية، وقد تطوعت للموت من أجل وطن يرقص ويغني بينما أنا أموت، إلا أنني نجوت وعدت إلى القاهرة بعد عدة أيام. مات زميلي الدكتور طلعت حمودة بعد أسبوع واحد بالسكتة القلبية وهو يقود سيارته في الشارع بجوار وزارة الصحة. وقلت لشريف: تصور يا شريف كان التلفزيون نازل رقص وغنا واحنا تحت الأرض بنموت! يظهر التلفزيون في بلد واحنا في بلد تانية! وكتبت قصة قصيرة بعنوان بلد غير بلد. ودق جرس الباب صباح يوم، رأيت أحد الرجال يناولني ورقة صغيرة: استدعاء الدكتورة نوال السعداوي للحضور إلى إدارة المخابرات العامة بسراي القبة. أخذني شريف بسيارته الفيات الصغيرة إلى مبنى المخابرات، انتظرتني في الشارع ما يقرب من ست ساعات، تركوني في غرفة تشبه الزنزانة أربع ساعات، ثم جاء رجل بوليس، أخذ يحقق معي ساعتين، أول سؤال كان عجيباً: لماذا سافرت إلى الإسماعيلية؟ أدركت أننا نعيش في دولة المخابرات، وأن النظام في مصر لم يتغير منذ الملك فاروق، وكما طارد البوليس الفدائيين بعد أن عادوا من حرب ١٩٥١، وحرب ١٩٥٦، فإنه يطارد الأطباء الذين تطوعوا لبناء الطوارئ الطبية في مدن القنال الثلاث بعد حرب ١٩٦٧.

أما الدكتور طلعت حمودة فقد مات بالسكتة القلبية بعد أيام قليلة من عودتنا من الإسماعيلية، ترك وراءه زوجة شابة وطفلين صغيرين، أقاموا له في وزارة الصحة حفل تأبين، يشبه حفل تأبين زميلي أحمد المنيسى الذي استشهد على أرض القتال في نهاية عام ١٩٥١، حفروا اسمه على لوحة الشهداء في فناء الوزراء، سقطت اللوحة بعد سنوات قليلة، وراح اسم طلعت حمودة في العدم، بمثل ما راح اسم أحمد المنيسى وأحمد حلمي وغيرهما من الفدائيين. أما السائق عم محمد فقد اندثر اسمه مع جسمه في العدم، دون حفل تأبين، دون لوحة شرف يسقط فوقها اسمه.

في صيف عام ١٩٦٨ أرسلت نقابة الأطباء إلى جبهة القتال في الأردن فريقاً من الأطباء المتطوعين، كنت الطبيبة الوحيدة التي تطوعت للسفر ضمن مجموعة من خمسة أطباء، لماذا تطوعت؟! لا أعرف، كنت في حاجة إلى السفر بعيداً عن القاهرة، بعيداً عن الصحف وشاشة التلفزيون، لم أكن أطيق رؤية تلك الوجوه التي تظهر فوق الشاشة أو على الصفحة الأولى من الجرائد اليومية، لم أعد أطيق سماع الأكاذيب في الإذاعات، سجلت اسمي ضمن الأطباء المسافرين إلى جبهة القتال في الأردن.

وجدت نفسي أعيش في خيمة بمنطقة الأغوار بالقرب من السلط، أركب عربة الإسعاف مع امرأة يداها وقدمها محروقة بالشمس، تلف رأسها بالशलّ الفلسطيني، يسمنونها أم الفدائيين. كانت عربة الإسعاف تنطلق بنا في الليل تقود العربة فتاة فلسطينية فدائية، عيناها مرفوعتان إلى أعلى، فيهما بريق خاطف، تتطلع نحو شاطئ نهر الأردن، إلى جوارها سلاحها، السيّارة مصفحة من نوع الجيب، عجلة القيادة كبيرة تقبض عليها يد الفتاة، أصابعها طويلة، عظامها قوية تشع من تحت الجلد ما يشبه الضوء، وحركة خفيفة لها إرادتها الخاصة، أصابع كالحديد لا تَلين، قابضة على عجلة القيادة الحديدية كأنما هي لعبة أطفال، أرمى يدي خلسة وأنا جالسة إلى جوارها، عظام أصابعي تبدو رقيقة هشّة، يدي اليمنى معقودة مع يدي اليسرى فوق جِجْري، يدها اليمنى تقود السيّارة وحدها دون الاستعانة بيدها اليسرى؛ مبتورة عند الكوع، تستعين بها حين تهتز فوق مطبات الطريق. كانت صامته شاحصة إلى الأمام، وجهها من الجانب من الفولاذ أو الماس، نوع من الأحجار الكريمة المشعة، لا أستطيع أن أحرك عيني بعيداً عن هذا الأنف المرفوع الشامخ، يشق الظلمة مثل نصل السيف، أيكون لأنفي مثل هذه الارتفاع الشامخة، لم تحرك رأسها ناحيتي، وأنا لا أحرك رأسي بعيداً عنها.

في المقعد الخلفي جلستُ أم الفدائيين، عيناها غائرتان عميقتان تغطيهما طبقة شفافة من الدموع، تشبه اللعة الخاطفة أو الابتسامة الدائمة، تشبه أم إبراهيم أو جدتي الفلاحة

في قرיתי على ضفاف النيل، ملامح وجهها مؤكدة في عتمة الليل، الجبهة البارزة القوية مثل النتوء الصخري يطل على النهر، يناديها الفدائيون «أمنا»، كما ينادون الأرض الضفة الأخرى من النهر، حيث الوطن والأهل، هي تناديهم أطفالا كما تنادي الأرض نبتها الأخضر. لم يكن لها بيت، لا رجل ولا أب ولا أم، البيوت كلها بيتها، الرجال كلهم رجالها، النساء نساؤها، في ذاكرتها منذ ثلاثين عامًا قصة حب، وجنين في أحشائها لم تلده أبدًا، أو ولدته ثم ضاع منها في الأغوار.

الظلام مكتمل والقمر والنجوم غابت، العربية المصفحة تشق الليل كالسهم المارق، الجنود الإسرائيليون يُطلُّون علينا من أبراج المراقبة، الظلمة تحوطنا، تخفينا عن عيونهم، وصلنا إلى حطام مدينة اسمها الكرامة، وقعت معركة الكرامة من شهرين فقط، ٢١ مارس ١٩٦٨، قُتل كل سكانها. توقفت العربية بجوار جدار أسود مثقوب بالرصاص والدانات، مرسوم عليه وجه طفل يبتسم، عين الطفل اليمنى مثقوبة تحت الابتسامة وحروف متعرجة محفورة في الحجر: سنقاتل حتى الموت. البيوت كلها متهدمة، الشوارع والأزقة خالية من البشر. عثرت وأنا أمشي في شيء صغير، فردة حذاء طفل، انحنيت الفتاة الفدائية بجسمها النحيل المشوق، التقطت فردة الحذاء بأصابعها الطويلة القوية، ضمتها إلى صدرها كأنما تضم الطفل، عيناها مرفوعتان تشقان الظلمة، تتطلعان إلى الأرض وراء النهر، إلى البيت القديم الذي ولدت فيه، كانت في العاشرة من عمرها حين استولى الإسرائيليون على البيت، ذبحوا أباهما أمامها، أربعة منهم اغتصبوا أمها واحدًا وراء الآخر، ثم بقر أحدهم بطنها قبل أن يقطع ثديها بخبطة واحدة. أخوها أخذوه إلى السجن الذي يسمونه سجن الأنصار، قطعوا أصابع يده اليمنى، لم يعد قادرًا على حمل السلاح، يجلدونه كلَّ يوم بالسياط، يُدخلون في فتحة الشرج عمودًا من الحديد، يطفئون السجائر في جسده، بتروا ساقيه وذراعيه، دون جدوى، لا يمكن أن يعترف، لا ينطق اسم أحد زملائه الفدائيين أو الفدائيات، نماذج من القوة الإنسانية يعجز عنها الخيال.

عادت الفتاة إلى العربية ومعها فردة الحذاء، وضعتها إلى جوار سلاحها، وانطلقت في الأغوار. عند حافة النهر توقفت، كان هناك الجريح راقدًا داخل العشب، حوطته أم الفدائيين بذراعيها كالأُم تعثر على ابنها، تناديه باسم طفلها الغائب، لم تعد الأسماء تهم، غسان أو يوسف أو فتحي أو زياد، كلهم هذا الجسد الجريح ينزف الدم، فقد ذراعيه وساقيه، يئنُّ بصوت مكتوم، يناديها أمي، وهي تغرقه بدموعها وتناديه ابني.

حملنا الفدائي الجريح إلى الخيمة في معسكر السلط، سُفي بعد ثلاثة شهور، أصبح يمشى داخلَ مقعد يتحرك فوق العجلات، جسد ورأس بلا أطراف، عيناه زرقاوان عميقتان تشعّان ما يشبه اللهب الأزرق، ابتسامته عريضة، أسنانه بيضاء مثل فصوص من اللؤلؤ. في المدرسة الابتدائية في منوف كانت لي زميلة اسمها حميدة مبتورة الساقين، داست عليهما عجلات كارو في يوم العيد، لم يكن في إمكاني النظر إلى جسمها المبتور، يرتعد جسدي لمنظر الأجساد المشوهة، كأنما التشويه مرض مُدٍ ينتقل لمجرد النظر. في الخيمة كنت أنام تحت رأسي قطعة حجر ناعمة دافئة تشع حرارة الشمس في الليل، إلى جوارى أم الفدائيين نائمة عيناها نصف مفتوحتين، شفتاها نصف منفرجتين، أنفاسها عميقة مسموعة في صمت الليل، ملايين الأصوات الخافتة الهامسة تصنع الصمت، تدوّي في أذني بكلمة واحدة: «ابني».

تركت في القاهرة ابني عاطف عمره عامان ونصف، وابنتي منى عمرها عشرة أعوام، يرعاها زوجي شريف، غبت عنهم ثلاثة شهور ونصف الشهر، الحنين إليهم يشدني إلى القاهرة، أود العودة وأود البقاء. بدأت رواية جديدة أعطيتها عنوان: عين الحياة، بطلتها امرأة تشبه أم الفدائيين، طويلة القامة فارعة مثل جدتي الفلاحة في القرية، هذه المرأة ظلت تتراءى لي في النوم حتى جلست إلى مكتبي، تجسدت فوق الورق باسم عين الحياة. بعد عودتي إلى القاهرة كنت أتابع أخبارها حتى ماتت في مدينة عمّان بالأردن في سبتمبر الأسود عام ١٩٧٠، قبل موت جمال عبد الناصر بشهر واحد؛ لكنها بقيت حية في روايتي عين الحياة، يقرؤها الناس في بلادنا العربية، وفي بلاد أخرى بعد أن نشرت الترجمة فيما بعد. أستعيد صورتها وهي تمشي على حافة النهر تبحث، لم يكن بحثاً عادياً تعرف فيه الشيء المفقود، أو تعرف أنها قد تجده وقد لا تجده، كان بحثاً غريباً عن ابن لم تلده، أو ولدته ثم ضاع منها في زمان ومكان لا تدري عنهما شيئاً.

الليلة الأخيرة في معسكر السلط قبل أن أعود إلى القاهرة، خرجت من الخيمة أتمشى في الأغوار، كنت أردتني بدلة الفدائيين، من فوقها معطف الأطباء الأبيض، الليل ساكن إلا من حفيف الأشجار، صوت مياه النهر من بعيد، نسمة الصيف الناعمة تتسلل بين جبال الأردن، أمشي في الأغوار كأنما أمشي في حُلم داخل حُلم. أسمع وقع حذائي على الأرض الصخرية، لونها أحمر كالدّم يغطيها عشب أخضر، ريح باردة خفيفة من الشمال لها رائحة الخيال، نسمة دافئة تهب من الناحية الأخرى، حيث يرقد الشاب قبل أن يفقد أطرافه، أغمض عيني

ويحلم أنه عاد إلى الضفة الغربية حيث ترقد أمه العجوز، تبحث في النوم عن ابنها الغائب في الضفة الشرقية، تصطك أسنانه قليلاً كأنما من الرجفة، أو رعشة الخيال، الريح محملة برائحة اللحم، صوته يسري في أذني في سكون الليل: أراك في معطفك الأبيض تسيرين بين الخيام، أراك بالعين في جسدي، في مكان غير المكان الذي توجد فيه العيون، هل عندك وقت لاكشف لك عن هذه العين وأخبرك بسرّ قوة ذراعِي وساقِي؟! لا تخافي يا دكتورة هناك في الضفة الأخرى وراء النهر أعداءٌ اعتقدوا أنني مت، لكنني لم أمت، أنا فقط جريح، والجرح ليس في محجر العين، أنا أراك هنا والآن في ضوء القمر المختفي، أشهد ما بعد الموت، لماذا أنتِ صامتة؟ هل أنتِ جريحة مثلي؟ لا تخافي إن فقدتِ ذراعيك وساقيك، ما دميتِ قادرة على الاستماع إليّ، فأنتِ قهرتِ الموت، قهرتِ العدو داخلِك قبل العدو هناك على الضفة الأخرى، وأنا مثلك قادر على الاستماع إليك، ليس لأمثالك إلا الاقتراب، أو التلامس جسداً لجسد، أعطيني يدك، ضعها فوق صدري العاري لألمسها وتلمسين، انتظري لا تتبدي عني، لا تخافي من شكلي المختلف، ربما فقدت أطرافي لكنني لم أفقد قلبي، لست من الرّجال الذي يغتصبون النساء في الظلمة، لم يعد لي جسد رجل أو امرأة، إنما هي الرغبة الأخرى يا دكتورة، أتعرفين الرغبة الأخرى؟!

كان راقداً فوق ظهره مبتور الذراعين والساقين، حول عينه اليسرى رباط من الشاش الغارق في الدم، بشرته بلون الطوب الأحمر، لم يكن وهماً ولا خيالاً، كان فدائياً فلسطينياً في لحظات الاحتضار الأخيرة، يفتح فمه ويغلقه في صمت، يحاول أن يكشف قبل أن يرحل عن سرّ خفيّ، اقتربتُ بأذني من فمه وقلت: تكلم ... أنا أسمعك يا غسان.

– يا دكتورة أتعرفين الرغبة الأخرى؟! كل الأجسام الراقدة هنا في الخيام كانوا شباباً مثلي فقراء، لا يملكون شيئاً في الحياة إلا أجسادهم، وهذه الأجساد أيضاً لا يملكونها، تملكها القيادة العسكرية، وهي قيادة لها رائحة تشمينها من البعد، أتعرفين رائحة القيادة؟! هواء ثقيل بارد يهب من هذه الناحية، انظري، لم أكن أعرف أن السلطة لها رائحة، ولها صوت يضطكُ مثل قرقعة الحديد أو ارتطام الفولاذ بالمعادن الصلبة، يتحول الصدى إلى صوت أشبه بهذا الصوت الذي نسمعه، اسمعي!

حركت رأسي في الاتجاهات الأربعة أحاول التقاط صوت الريح فلم أسمع إلا صمت الليل، ملايين الأصوات الهامسة التي تصنع الصمت، قربت أذني من فمه.

– لا أسمع شيئاً يا غسان.

– لأنك فقدت أذنيك يا دكتورة منذ زمن بعيد، منذ ولدت على هذه الأرض، وأردت أن تحمي نفسك من سماع الكلمات النابية؛ مثل كلمة «مرّة»، ألم تسمعي كلمة السباب الأولى

فوق هذه الأرض؟ إذا أرادوا إهانة رجل يقولون له: «ابن المَرّة». إن أعدائى قادرون على تمزيق جسدى بالألم، لكنه أخف منذ هذه الإهانة، وفي يوم قال لي قائدنا أو زعيمنا كما يسمونه، قال لي: «ابن المره»، منذ ذلك اليوم فقدت أذنى حتى لا أسمع الكلمة مرّة أخرى. لم أكن فعلت شيئاً سوى أنني لم أضع قليلاً من السكر في فنجان قهوته، نسيت أنه يشرب القهوة ع الريحّة كما تقولون في مصر، وكان يفقد مزاجه إن لم يشرب قهوته ع الريحّة في الصباح، يصبح هائجاً كالضبع، يكاد يعرض من حوله بأسنانه، ومن فمه تنثال كلمات السباب، أولها هذه الكلمة يا ابن المره! وهربت من المعسكر بعد أن فقدت أذنى، وكنت قد فقدت ذراعى اليمنى في عملية فدائية داخل الضفة الأخرى، في قلب أرض العدو، التي كانت أرض أمى، نجحت في تدمير معسكر العدو وبدأت أهرب لأعود إلى هنا، وأنا أزحف فوق بطنى شممت رائحة أمى في الأرض، تمهلت قليلاً، توقفت لحظة أملاً صدري بالرائحة، وانهمرت طلقات الرصاص من حولي مثل سرائب الحمام الأبيض في ظلمة الليل، لم أعرف أنها طلقات رصاص، كنت مستغرقاً في اللذة الطفولية، عدت طفلاً أدس أنفى داخل صدر أمى وأملاً صدري بالرائحة، أتذكرين رائحة أمك يا دكتورة؟!

- رائحة أمى؟!

فاجأنى السؤال، ماتت أمى منذ تسع سنوات، نسيت رائحة أمى، بدأ الهواء يتحرك حاملاً لي الرائحة، أوشتك الإمساك بها قبل أن تتسرب من الذاكرة، لكن الهواء تحرك بفعل الريح؛ فهربت منى كما تهرب السمكة الصغيرة من بين أصابعى في البحر. جلست فوق قطعة حجر بجوار الخيمة، وهو راقد كما كان فوق ظهره، قطعة مربعة من اللحم البشري بلا ذراعين ولا ساقين، عين مربوطة بالشاش، العين الأخرى ترمقني في الظلمة كالنجمة الوحيدة في سماء سوداء، صوته يدخل مسامّ جسدى مع نسمة الليل كالحلم.

- هربت من المعسكر يا دكتورة أزحف فوق قطعة من الخشب لها أربع عجلات، أدفعتها بكتفى، لم أعرف ماذا أفعل بجسمى بلا أطراف ولا أذان ولا عيون، ولا شيء إلا هذا الصدر المكشوف والضلوع تحتها قلبى يخفق ممثلاً بالحنين للحب، ورأيت عيون الأطفال ترمقني من بعيد في خوف، يتحسسون أذرعهم وسيقانهم، يطمئنون إلى وجودها، يخشون فقدانها، كأنما يرون مستقبلهم فيّ، وعيون الكبار ترمقني من بعيد أيضاً، يلقون إليّ بقطعة من النقود من بعيد، لا يكاد يقترب منى أحدهم إلا وضاعت منه أطرافه وأذناه وعيناه، تسقط قطعة النقود فوق بطنى، ألثقتها بلسانى، الذي أصبح يدي ألثقت بها

الأشياء، وصنعت لي القيادة ملقاً صغيراً ضمن ملفات أصحاب العاهات أو الشحاذين، كنت ألتقط طعامي من فضلات النَّاس في الطريق، وإذا جاء المبعوث الأميركي يزور قائدنا تنتشر عربات الجيب المصفحة في الشوارع تلم الشحاذين، تكنس الشوارع من القمامة، تدهن سيقان الأشجار بالبويا البيضاء، ترفع الأعلام وأقواس النصر، تحولت من الفدائي وجه الوطن المشرف إلى الوجه المخزي المطلوب إخفاؤه كالعورة عن عيون الضيوف.

- وكيف عدت إلى معسكر الفدائيين يا غسان؟

- آه يا دكتور، هذا سؤال مهم، جاءني مندوب من القيادة وسألني؛ أيهما تفضل: أن تعيش شحاذاً محتقراً أم تموت شهيداً مكرماً؟ قلت على الفور: أموت! كنت أشد الموت دون جدوى، أريد أن أمسك بيدي مسدساً أو موس حلاقة لأقتل نفسي، لم تكن لي يد أمسك بها آلة القتل، ربطوا حول صدري وبطني حزاماً من القنابل الموقوتة، حملوني مثل طرد من الديناميت إلى معسكر الأعداء لسوء الحظ لم تنفجر القنابل، كانت كلها مغشوشة، صفقات الأسلحة الفاسدة تجارة دولية، تقتسم القيادات الربح فيما بينها. سقطت أسيراً بين أيدي الأعداء تشاءموا من منظري فأعادوني إلى قيادتي كنوع من العقاب لها، وضعوني في هذه الخيمة في معسكر السلط.

كلما أرادوا تفجير معسكر في الضفة الأخرى ربطوا حزام القنابل حول صدري وبطني، أنطلق في مهمتي سعيداً، وعندني أمل وحيد، ألا تكون القنابل مغشوشة لأموت شهيداً وأدخل الجنة مع الأنبياء، ويحصل أبي بعد موتي على المعاش، كان أبي ينشد موتي فهو رجل فقير يعول أسرة كبيرة. أحياناً أصدق أن هناك جنة بعد الموت، وأحياناً تبدو لي الجنة مجرد خدعة من اختراع القيادة، أتعرفين أحداً في هذه القيادة يا دكتور؟ القيادة هي القيادة في أي بلد في العالم، هل وقعت في حب أحدهم؟ هل وقع أحدهم في حبك؟

- أنا يا غسان؟!

- أيوه! إنت! كيف جئت إلى هنا يا دكتور؟ لا أحد يأتي إلى هنا من دون أن يمر على القيادة، دون أن تفحصه القيادة، إنهم رغم قُبْح الملامح، فيهم شيء من الجاذبية، وتشدد الجاذبية بارتفاع المكانة؛ لهذا يحظى القائد بنصيب أكبر من النساء... هل أغراك أحدهم بالتطوع والموت في سبيله؟! نعم في سبيله وليس في سبيل الله أو الوطن؛ فالمرأة أكثر نكاءً من الرّجل، لا يمكن أن تموت المرأة من أجل كلمة مجردة، بل من أجل شيء ملموس حقيقي؛ مثل جسد رجل له ذراعان يضمنانها في الليل، وأنا رجل بلا ذراعين ولا ساقين لم تعد هناك امرأة ترغب في الموت من أجلي.

الساعة تنقضى وراء الساعة وأنا جالسة فوق قطعة الحجر بجوار الخيمة، وهو راقد فوق ظهره، صدره يعلو ويهبط بأنفاس متقطعة، تعلوه طبقة من التراب والدم، عينه الوحيدة لا تزال مفتوحة ترمقنى فى الظلمة وتومض مثل دُؤابة ضوء توشك على الانطفاء، صوته ينخفض قليلاً، يتقطع، أكاد لا أسمع، أقرب أذنى من فمه.
- استمر ... أنا أسمعك يا غسان.

- صوتك الحزن يكشف أنكِ عرفت فى حياتك رجالاً كثيرين، إن صدرك مثل صدر الأم رقدت فوقه رءوس كثيرة متعبة، لكنك كنت تطردىن الرجال الأطفال الباحثين عن الأم، كنت تبحثين عن رجل مكتمل الرجولة يحمل السلاح ويقتل العدو، تريدان فداءً شجاعاً لا يخاف الموت، تضعين رأسك فوق صدره كأنما هو صدر أمك؛ ألهذا جئت إلى هنا يا دكتورة؟!

- لا يا غسان، أنا لا أبحث عن صدر أضع عليه رأسى، لكنى بعد الهزيمة لم أعد أطيق الحياة فى مدينة القاهرة، الهواء هناك أصبح مشبهاً بالدخان والهزيمة، العيون منكسرة حزينة، حتى جمال عبد الناصر نفسه تهدلت ملامحه وانكسرت عيناه مثل الأسد الجريح.
- سمعت من الزملاء أنكِ كاتبة، هل جئت إلى هنا بحثاً عن رواية جديدة؟ كنت فى طفولتى أكتب الشعر وكانت هناك لها عينان سوداوان مملوءتان بالأمل والحلم مثل شعاع الشمس، عيناهما أراهما بعينى الواحدة تشبهان هذه الطفلة؟
- هل ترانى يا غسان؟

- لا يا دكتورة، لا أراك؛ لأن العين الباقية لم تعد ترى، لكنى أراك بقلبى، صوتك يذكرنى بصوت أمى، أحلم كل ليلة أنني عدت إلى حضن الأم فى الوطن القريب البعيد، أحلم بامرأة لها صدر الأم وجسد الأنثى، لكن الأمومة والأنوثة لا يجتمعان فى امرأة واحدة، وأنت طبيبة وكاتبة لا يمكن لرجل أن يلمسك إلا إذا كان جريحاً أو موضوع رواية جديدة، أحلمين مثلى بالموت ودخول جنة عدن؟ لكن الجنة خلقت لنا نحن الذكور وليس فيها للإناث دور إلا الجوارى الحوريات، أتعرفين هذه الحقيقة يا دكتورة؟
- نعم أعرفها يا غسان؛ لذلك لم أحلم أبداً بدخول الجنة.

- أنت إنسانة ذكية، كشف زيف الذكورة والأنوثة، تجتازين المحيط الواسع بينهما بخطوة واحدة من قدمك، وأنا أريد منك طفلاً يرث نكاهك قبل أن أموت، أتحققين رغبة إنسان فقد كل شيء من أجل الوطن إلا القدرة على الإنجاب؟!

رأيتة يضغظ على أسنانه كأنما يكتم ألماً عميقاً فى الجسد، يمر بلسانه على صدره المملوء بالجروح والكدمات، كان يتحرك فوق المقعد نى العجلات بصعوبة، يريد أن

يتبول، يخجل أن يتبول أمامي، تحت الشعر الأسود الكثيف أسفَلَ بطنه كانت المثانة منتفخة ممثلة حتى الحافة، يجز على أسنانه من شدة الألم، أسمع صوت اصطكاك الفكين القويين، وأقدام حديدية تصطك بالأرض، شباب فدائيون استيقظوا من النوم بدءوا يؤدون التدريبات، ينظفون بنادقهم يملأونها بالرصاص، يطلقونها في الجو، الفجر لم يطلع بعد، وأنا متكورة حول نفسي أمام باب الخيمة، أرتدي المعطف الأبيض فوق بدلة الحرب، في جيبي قلم رصاص جاف، في الجيب الآخر مفكرتي اليومية، قد أنزع منها ورقة غير مكتوبة لأكتب عليها اسم دواء، أو كلمة غسان، صوته أصبح ممزوجاً بالعرق والدم. الآن لم يعد جسده يفزعني، لم أعد أراه مشوّهاً، أحوطه بذراعي كأنما هو طفلي، حملت به وولده في مكان وزمان لا أدري عنهما شيئاً، إنه يموت بين ذراعيّ، أنا أحقق له رغبته الأخيرة قبل أن يموت.

مات غسان تلك الليلة قبل أن يطلع الفجر، وضعوه داخل حفرة في الأرض وأهالوا التراب فوقه، عدت إلى القاهرة صباح اليوم التالي، كان شريف ينتظرني بالمطار، رأني شاحبة الوجه معفرة الملابس، سألني: ماذا حدث في الأردن؟ قلت: مات غسان يا شريف. قال: من هو غسان يا نوال؟ قلت: شاعر مجهول ربما ينبج طفلاً ذكياً في جنة عدن يرجم إبليس بالحجارة. ضحك شريف وقال: أهي رواية جديدة؟!

كان ذلك في نهاية صيف عام ١٩٦٨، لم أكن أعرف أنه بعد عشرين عاماً بالضبط سوف يتزايد عدد الأطفال في فلسطين، أطفال من الأولاد والبنات يشبهون غسان، ملامحهم فدائية منحوتة في الصخر، عيونهم يكسوها البريق، أصابعهم قوية، أعدادهم كثيرة أكثر من الأعداء، قلوبهم شجاعة لا تهاب النار ولا تطمع في الجنة، قلوب أطفال ولدوا بلا أب ولا أم، يمسك الواحد منهم أو الواحدة منهم حجراً. قامت ثورة الأطفال عام ١٩٨٨، عُرفت باسم ثورة الحجارة، انتصر الأطفال على الجنود المسلحين، أصبحت ثورتهم حديث العالم، كادت موازين القوى تنقلب ضد إسرائيل لولا عملية الإجهاض السرية، المؤامرة الجديدة تحت اسم المفاوضات في أوسلو ومدريد، وكامب ديفيد الأولى والثانية، ولا نكاد نعرف متى تكون الثالثة والرابعة، ربما بعد الموت في يوم القيامة.

الطيران في الحلم

من نافذة الطائرة أُطل على الغابة الصغيرة التي يُسمونها غابة ديوك، عصفت بها رياح المحيط الأطلنطي والهوريكين، خلع عنها الشتاء أوراقها، أشجار البلوط تلمع عارية تحت الشمس، رءوسها حليقة منتظمة في صفوف، كراءوس الجنود في المحافل والمارشات العسكرية. أشجار الأرز مثلثة الرأس تومض أوراقها بدوائر الضوء، الثالوث المقدس في عيد المسيح، يسمونه الكريسماس، نحن في اليوم الأخير من الشهر الأخير من عام ١٩٩٦، وأنا في طريق العودة إلى الوطن بعد سنوات المنفى، أشجار الصنوبر بسيقانها النحيفة الرشيقة تتمايل مع الهواء مثل راقصات الباليه. من وراء النافذة الصغيرة المستديرة، لوّحت بيدي أودعهم، أربع من طالباتي واثنان من الطلبة، جاءوا نيابة عن الفصل إلى المطار، عيونهم تلمع فيها الابتسامات والدموع، ينادونني باسم دكتور ساداوي، كريس أصغرهم سنًا، عمره عشرون عامًا، عيناه زرقاوان بلون مياه المحيط، أكثرهم انتباهًا في فصل الإبداع والتمرد، طويل ممشوق، بشرته بيضاء ملوحة بالشمس، في حفل الوداع بالأمس عزف أغنية على الجيتار من تأليفه وتلحينه:

خذي معك إلى الشاطئ الإفريقي
يا ابنة النيل عينك ساحرتان
الليل أفضيه حبيس الإنترنت
وفي الغابة أجري كالحصان
أذناي مسدودتان بالسماعات
رأسي مشدود بالأسلاك
عيناى تنظران ولا تريان

آه يا أستاذة التمرد والإبداع
أريد أن أطيّر معك في الحلم
إلى حيث أعرّس على نفسى من جديد.

إلى جوار كريس كانت تجلس كارولين، تترىض معى أحياناً في الغابة، تفضل الرسم على الكتابة، في طفولتها كانت مثلى تطير في الحلم، لم تحلم أختها بالطيران أبداً. سألتنى كارولين: لماذا يعجز بعض الناس عن الطيران في النوم؟! أهدتني لوحة رسمت فيها نفسها محلقة في الجو، تحرك ذراعيها في الهواء وتطير كما كنت أفعل في أحلامي بدون أجنحة. وهي فتاة أميركية وُلدت في مدينة نيويورك، عيناها زرقاوان، نفاذتان، بشرتها سمراء، ولدتها أمها في حي هارلم الفقير، أبوها أسود اللون جندوه في حرب فيتنام ولم يعد، حصلت على منحة تفوق وجاءت إلى جامعة ديوك تدرس الرسم والإبداع، تشتغل وأمها في هارلم، تشتغل عاملة في مصنع للبلاستيك، تنفق على البيت وأطفالها الأربعة.

قالت كارولين وهي تودعنى: سأدخر ثمن التذكرة إلى القاهرة وأزورك يا نوال، أصبحت تنادينى باسمى، رغم فارق العمر نتبادل الحديث كأنما من عمر واحد، في طفولتها تذهب مع أمها إلى الكنيسة، كانت في العاشرة من عمرها، سرقت من زميلة لها في المدرسة قلمًا ملونًا، كانت تحب الرسم ولم تكن تملك ثمن القلم الملون. سمعت في الكنيسة أن السرقة حرام، وأن الاعتراف ضروري لمسح الذنوب، تسللت من وراء أمها وذهبت إلى القسيس، طلب منها أن تركع وتعترف، أغمضت عينها واعترفت بالسرقة، ربت القسيس بيده على كتفها وقال: غفر الله لك يا كارولين. ثم امتدت يده من كتفها إلى صدرها وبطنها، همس في أذنها: لا تخافي ولا تصرخي أنت فتاة مؤمنة يحبها الله. لكن كارولين صرخت من الألم، عرفت أمها ما حدث، تكتمت الخبر، خرجت كارولين من الحادثة سليمة، لم تحمل بالمسيح مثل العذراء مريم، وفقدت إيمانها بالله والكتاب المقدس.

أول يوم دخلت إلى الفصل سألت الطالبات والطلبة: لماذا اخترتم هذا الفصل بالذات؟ قال كريس: أنا أدرس الموسيقى، كنت متمردًا منذ الطفولة، أريد أن أعرف العلاقة بين التمرد والإبداع. وقالت كارولين: أنا أدرس الرسم، في الطفولة كنت أحلم بالطيران، أختى لم تكن تطير في الحلم، أريد أن أعرف لماذا يعجز بعض الناس عن الطيران في الحلم. وقالت طالبة هندية اسمها مايا: قرأت روايتك «فردوس»، وتغيرت حياتى، فوجئت باسمك ضمن الأستاذات في جامعة ديوك، جئت إلى هنا لأكون طالبة من فصلك. بشرتها سمراء، عيناها

سوداوان يكسوهما البريق، شعرها أسود غزير، في نهاية العام الدراسي بدأت تكتب رواية طويلة قبل أن تعود إلى الهند.

كان شريف قد سبقني في السفر إلى القاهرة، قال لي: يمكننا العودة إلى الوطن وقد زال الخطر إلى حد كبير، جاءتنا رسائل تقول إن قائمة الموت لم تعد هناك والأحوال في مصر أكثر هدوءاً. سافر شريف، وبقيت في جامعة ديوك ثلاثة شهور أخرى حتى انتهى العام الدراسي.

الطائرة تحلّق فوق المحيط الأطلسي متجهة شمالاً نحو نيويورك، أول مرة ركبت الطائرة منذ سبعة وثلاثين عاماً، منذ الطفولة كان هناك حلم يتكرر أنني أطيّر في الجو، أحرك ذراعياً كالجنّاحين وأشعر بجسمي ينفصل عن الأرض ويحلق في السماء، كأنما أمتطي جواداً له جناحان، أخترق السحب، أجدني في عوالم أخرى وبلاد لا أعرفها، وأتلقت حولي في دعر، أرى الأرض بعيدة راقدة في الظلمة، ومصباح صغير في نافذة وطفلة مؤرقة في الليل ترمق الطائرة في السماء، تلمع في الخضمّ الأسود كالنجمّة.

تشهق جدتي حين أحكي لها الحلم.

– هذه ليست أحلام البنات.

– وماذا تحلم البنات يا جدتي؟

– يحلمن بالعريس وفتتان الزفاف.

لكني لم أحلم بالعريس أو فتتان الزفاف، وفي كل عيد يشترى لي أبي فستاناً جديداً، ويشترى لأخي طائرة صغيرة لها زمبلك. كان أخي يلوي الزمبلك بأصابعه حتى يتكسر، يقذف الطائرة في الهواء، لكنها لا تطير، تسقط إلى الأرض، كنت أجلس إلى جوار حُطام الطائرة ثقيلة القلب، أجمع أشلاءها وأعيد تركيبها لتصبح طائرة من جديد، أركب الزمبلك مكانه أسفل البطن، أحركه ناحية اليمين دورة واحدة أو دورتين، فجأة تتحرك الطائرة وتحلق في الغرفة، أصفّق بيديّ الاثنتين وأصرخ من الفرح، تسمعنني جدتي أو إحدى النسوة من عائلة أمي أو أبي، أرى تكشيرة الغضب فوق وجهها، تشد الطائرة من يدي وتلقي بها على الأرض ثم تصرخ: تعالي المطبخ لا وقت للعب!

كنت أفضل اللعب بالطائرة على تقشير البصل والثوم، وأهمس لأمي بأحلامي، كانت أمي في طفولتي تحلم بالطيران مثلي، لكنهم أمسكوها كما تمسك الفرخة قبل الذبح، وساقوها إلى حفل زفاف تحت إيقاع الطبول.

منذ ركبت الطائرة لأول مرة عام ١٩٦٣، لم أتوقف عن السفر، سبعة وثلاثون عاماً رأيت فيها بلاد العالم، كتبت الجزء الأول من رحلاتى فى كتاب صدر منذ خمسة عشر عاماً، لم أنشر الجزء الثانى بعد، ربما أفعل ذلك بعد الانتهاء من هذا الكتاب الجديد.

الطائرة تحلق بى فوق المحيط الأطلسى متجهة نحو الجنوب بعد الهبوط فى نىويورك جاءت المضيفة الأمريكية تجرُّ العربى عليها المشروبات، انحنى باسمه سألتنى: ماذا تشربين يا سيدتى؟ قلت: جين تونيك. تذكرت صديقتى بطة منذ ثمانية وثلاثين عاماً حين سمعت منها لأول مرة كلمة «جين تونيك»، كان ذلك بعد موت أبى فى فبراير ١٩٥٩، أصبح الجين تونيك مشروبى المفضل، يساعدى قليلاً على الاسترخاء، أنسى قليلاً مشاكل الحياة، أتحرق من مخاوى الرائدة فى قشرة المخ، مخاوى صغيرة مكبوتة منذ الطفولة. رغم عشقى للطيران كنت أخاف من ركوب الطائرة، أراها تسقط وتتحوّل إلى حطام. اهتزت الطائرة قليلاً وأنا أقول «جين تونيك»، سمعت الصوت ينبعث من الميكروفون يقول: اربطوا الأحزمة، نمر ببعض المطبات الهوائية. كم مرة سمعت هذا النداء خلال رحلاتى فى العالم على مدى سبعة وثلاثين عاماً، مئات المرات! آلاف المرات! وفى كل مرة لا يحدث شىء، لا تسقط الطائرة؛ مع ذلك ما إن أسمع النداء حتى أتصور أن الطائرة سوف تسقط حتماً هذه المرة.

أخذت كأسين من الجين تونيك، تبعتهما بزجاجة نبيذ أحمر بوردو، سرى الدفء فى أوصالى، شعرت بالنشوة، شحنة من الحياة تدفقت فى عقلى وجسدى، تلاشى الخوف من سقوط الطائرة، جاءت المضيفة الأمريكية مرة أخرى بالمشروبات، كانت ابتسامتها مشرقة كالشمس، بدت أجمل امرأة رأيتها فى حياتى، قالت بصوت رقيق: ماذا تشربين قبل العشاء يا سيدتى الجميلة؟ رنّت كلمة «جميلة» فى أذنى كالموسيقى، منذ الطفولة لم يكن أحد من عائلة أمى أو أبى يقول عني «جميلة»، كنت أسمع أحياناً كلمة «ذكية»، لكن كلمة «جميلة» لم يكن ينطقها أحد، إلا فى وصف واحدة من أخواتى اللاتى ورثن بشرة أمى البيضاء، وأصابعها الناعمة البضة، واستدارات جسمها الممتلئ وعينيها العسليتين الوادعتين، وصوتها الرقيق. كانت هذه هى مقاييس الجمال الأنثوى، أما أنا فقد ورثت بشرة أبى السمراء، والقامة الطويلة النحيفة، العينين السوداوين المرفوعتين لا يطرف لهما جفن، «تندب فىهما رصاصة» بلغة جدتى والدة أمى.

فى المقعد المجاور لى بالطائرة كان هناك رجل، صعد من نىويورك لم أنتبه إليه إلا بعد الجين تونيك والنبيذ الأحمر، كنا يرشف النبيذ على مهل مع حبات من الفستق، يقرأ فى جريدة الجارديان، ملامحه من الجانب تبدو مألوفة، هذا الأنف المرتفع فى كبرياء يشبه أنف

أبي، هذه الجبهة العريضة تشبه جبهة شريف، هذا الشعر الأبيض الغزير أراه في المرآة كل يوم، بشرته مزيج من السمرة والحمرة، رغم الخطوط الغائرة قليلاً حول الفم والأنف تبدو بشرته مشدودة بلا تجاعيد، هذا الوجه رأيته من قبل، ربما فوق الشاشة، يكاد يشبه جريجوري بيك، هذه الوسامة الطبيعية غير الذكورية، هذا المزيج من الشباب والكهولة والطفولة، الجسم القوي المشوق مع بياض الشعر واستقرار الملامح، عيناه يكسوهما بريق أشبه بالجنون وهذوء مثل العقلاء والحكماء من الفلاسفة في التاريخ، مزيج عجيب! لا أدري أهى ملامحه الحقيقية، أم هو خيالي الجامح وأنا أطير في السماء أرشف الجين تونك والنيبذ الأحمر؟!

رأيته يرمقني بطرف عينه، تظاهرت أنني لا أراه، ربما كان يتأمل شعري الأبيض الغزير مع بشرتي السمراء الملوحة بالشمس، ربما لمح البريق الأسود في عيني وأنا أبتسم للمضيضة وأقول: زجاجة أخرى من النيبذ وقليل من الفستق يا سيدتي. ابتسمت المضيضة ووضعت أمامي زجاجة البوردو وصحنًا مليئًا بالفستق والبندق، سمعت صوت أسناني تفرقش بشهية الطفلة، كنت جائعة، أتشمم رائحة العشاء من غرفة الأكل والمضيضة ترص الصواني فوق العربة، جاعني صوته بعد قليل، سمعته بوضوح رغم أزيز الطائرة: إلى أين أنت ناهبة؟

– إلى القاهرة، وأنت؟

– إلى لندن.

– هل أنت إحدى نجومات السينما، ملامحك مألوفة تمامًا، كأنما رأيتك فوق الشاشة، لا أذكر اسم الفيلم ولا المخرج، أهو فيليني أو ستانلي كوبريك؟

ضحكت بصوت لم أسمعته بأذني منذ تسعة وثلاثين عامًا كان ذلك في صيف عام ١٩٥٩، بعد موت أبي بخمسة شهور، قرأ المخرج صلاح أبو سيف روايتي «مذكرات طبية»، جاءني في زيارة إلى البيت، كان يريد إخراج الرواية كفيلم سينمائي، ثم قال لي قبل أن ينصرف: إيه رأيك تمثلي إنت دور الدكتوراة في الفيلم؟!

ضحكت يومها وقلت: لا يمكن يا أستاذ صلاح. ليه يا دكتوراة نوال؟ عندك وجه فوتوجينيك وعندك موهبة كمان ... قلت: موهبة في الكتابة وليس في التمثيل. قال صلاح أبو سيف: الموهبة الفنية هي الموهبة، في الكتابة، في الموسيقى، في التمثيل، على العموم فكري في الموضوع، حاتصل بيكي بالتليفون بعد أسبوع.

كانت مواعيد صلاح أبو سيف دقيقة، جاعني صوته بعد أسبوع بالضبط يسألني عبر الأسلاك: رأيك إيه يا دكتوراة نوال؟

- رأى إن الرقابة حترف فى الفلم.
- أوه، لكن ممكن نغير بعض المشاهد فى السيناريو، كل المخرجين بيعملوا كده.
- لكن، إذا غيرنا حاجة فى الرواية حتبقى رواية تانية وليست مذكرات طبية.
- يمكن أقدر أفوت الرواية من الرقابة، لكن قررت إيه بخصوص التمثيل؟
خلال ذلك الأسبوع أخذت رأي الصديقات بطة وسامية وصفية، ضحكت بطة وقالت:
خذي معك يا نوال طول عمري أحلم إنى أكون نجمة سينمائية. ومطت سامية بوزها
فى وجهى وقالت: تمثيل إيه وكلام فارغ إيه يا نوال ... دي حاجات غير محترمة فى بلادنا.
وقالت صفية: أنا متأكدة إن الرقابة حترف الرواية، وتبقى المشكلة محلولة.

كان ذلك فى يوليو ١٩٥٩، مصر تتأرجح بين اليسار واليمين والوسط والإخوان
المسلمين، أعوان عبد الناصر يضرّبون أى رأى لا يدين بالولاء والطاعة، والرقابة على الكتب
والأفلام والصّحف وكل شيء. رفضت الرقابة رواية مذكرات طبية. حاول صلاح أبو سيف
مرة أخرى بعد عامين، لم ينجح فى الحصول على الموافقة. حاول مرة ثالثة عام ١٩٦٦،
ومرة رابعة عام ١٩٧٢، ثم سمعت صوته الياّس عبر الأسلاك يقول: المشكلة ليست فى
الرواية يا دكتورة، المشكلة فى اسم نوال السعداوى.

- ما له الاسم يا أستاذ صلاح؟!

- بيقولوا عليكى شيوعية.

كانت المضيفة قد جاءت بالعربة عليها صواني الطعام، سألتنى: سمك أم لحم البقر
أم فراخ؟ تحيرت لحظة وقلت: ما رأيك أنت؟ ابتسمت وقالت: كله لذىذ يا سيدتى. ضحكت
وقلت: هاتى كله! ضحك الشاب الكهل الشببى بجريجورى بيك الجالس إلى جوارى وقال
للمضيفة: أظن أن لحم البقر الأكثر لذة يا سيدتى.

- لماذا يا سيدى؟

- لأنه مريض بالجنون.

أطلقت المضيفة ضحكة عالية متحررة من قيود الأرض، ووضعت أمامه طاجناً ملتهباً
خارجاً لتوّه من الفرن، تفوح منه رائحة اللحم المشوى والبازلاء الخضراء، لم أكن بهذه
الجرأة لأمراض جنون البقر، رغم الجين تونيك والنبىذ الأحمر كانت خلية فى عقلى لا تزال
واعية تماماً، خاضعة لقيود الأرض والمنطق، تؤكّد لي أن السمك المشوى أو الفراخ المشوية
أفضل للصحة من اللحوم الحمراء. توقفت عن أكل اللحم الأحمر منذ عامين؛ بسبب ارتفاع
الكوليسترول فى الدم، وبسبب ما أقرأه فى الصّحف الأمريكية عن مرض جنون البقر فى

بريطانيا. كان جريجوري بيك يلتهم طاحن اللحم بشهية الأطفال، أسنانه بيضاء حادة مثل أسنان الذئب، عيناه تلمعان بلون السماء الأزرق تشوبه خضرة الزرع.

– هل قال لك أحد من قبل أنك تشبهين صوفيا لورين؟!

– وهل قال لك أحد من قبل أنك تشبه جريجوري بيك؟!

ضحكنا طويلاً وجاءت المضيفة تجر العربة عليها زجاجات الليكور الصغيرة، أنواع من المشروبات المركزة التي يشربها الأثرياء بعد وجبات الطعام كنوع من مسك الختام، أخذ زجاجة صغيرة من الكونياك «ديمي مارتن»، وأخذت أنا زجاجة من الليكور، له نكهة البرتقال، اسمه «كوانترو».

دار بيننا حوار طويل، طوال المسافة ما بين نيويورك ولندن، سبع ساعات ونصف ساعة نتحاور معاً دون انقطاع، نام الركاب جميعاً في الطائرة، إلا هو وأنا، شحنة من الحياة والسعادة تغمرني من قمة الرأس حتى بطن القدمين، حالة من الحالات لم أعشها منذ كنت في العاشرة من العمر، تشبه الطيران في الحلم، أرمق جناح الطائرة الفولاذي الأسود يشق السحب البيضاء كأنما هو خيال، أو مشهد في فيلم سينمائي، وأنا ألعب دور صوفيا لورين، ولماذا صوفيا لورين بالذات؟ في أول الشباب حين كنت طالبة بالسنة الأولى بالجامعة كان بعض الطلبة ينتظرونني أمام مدخل الكلية، أسمع أحدهم يقول: سامية جمال جت أهه! صديقتي بطة كانت تقول إنني أشبه إستر ويليامز، لكن صافية تقول إنني أشبه صوفيا لورين، أما سامية فكانت تراني عاطلة من الجمال، إلا العينين. فقط عيناك يا نوال، والباقي كله لا شيء، صحراء جرداء. تمط بوزها إلى الأمام وهي تنطق الكلمتين: صحراء جرداء.

تكلمنا سبع ساعات ونصفاً دون أن أسأله أو يسألني عن اسم أبي أو جدي، أو جنسيتي أو ديني أو قبيلتي أو عائلتي أو أي شيء آخر من هذا القبيل. بدت كل هذه الأشياء غير ضرورية، المكتوبة في جواز السفر، وما يسمونها عناصر الهوية أو الشخصية، بدت في تلك اللحظة كأنما هي أغطية، مجرد أغطية، تُخفي حقيقة الإنسان أكثر مما تظهرها.

وأنما جزء من الحقيقة بدأ يظهر فوق السطح، مثل جبل الثلج تحت الماء، يظهر بالتدريج مع يقظة ما يسمونه اللاوعي، أو على الأصح غياب الوعي، ربما بسبب الارتفاع الشاهق فوق كوكب الأرض واكتشاف الكواكب الأخرى، أو ربما التغيير الكيميائي داخل خلايا المخ إثر النبيذ والجين تونيك والكوانترو.

أوراقى ... حياتى (الجزء الثالث)

- يبدو أنكِ سافرتِ كثيرًا في بلاد العالم.

- وأنتِ أيضًا؟

- سافرتِ إلى كل بلاد العالم ما عدا البلاد العربية وإسرائيل.

- لماذا؟

- لأنى غاضب من حكومة إسرائيل ومن الحكومات العربية، كنت أحد المسئولين في الأمم المتحدة عما يسمونه مشكلة الشرق الأوسط، ثم قدمت استقالتي.

- قدمت استقالتك من الأمم المتحدة؟!

- منذ ثلاثة أيام فقط في اجتماع نيويورك الأخير.

فرد ذراعيه عن آخرهما وملاً صدره بشهيق عميق أعقبه بزفير طويل، وقال: أخيرًا تحررت من سجن الوظيفة بالأمم المتحدة بعد ثلاثين عامًا، عشت ثلاثين عامًا كالسجين، أسيرًا للقوى الدولية ومحكمة العدل ومجلس الأمن، كنت أفكر كلَّ يوم في الاستقالة، لكنى لم أكن أملك حريتي، كنت أسيرًا لمؤسسة أخرى داخل البيت.

حرَّكته وهو يفرد ذراعيه عن آخرهما ويقول «أخيرًا تحررت من سجن الوظيفة» يكاد يشبه أبى حين فرد ذراعيه عن آخرهما بعد أن أحالوه إلى المعاش وصاح بعد أن أخذ شهيقًا عميقًا أعقبه بزفير طويل: أخيرًا تحررت بعد ثلاث وثلاثين سنة، كنت رهين المحبسين الوظيفة الحكومية وسرير الزَّوجية.

- هل أنت متزوجة؟

- نعم.

- وعندك أولاد وبنات؟

- ابنة واحدة وابن واحد، وأنت؟

- عندي ثلاث بنات، تخرجت الكبرى من كلية الصيدلة؛ لكنها لم تحب رائحة الأدوية فالتحقت بفرقة موسيقية في سويسرا، الابنة الوسطى درست الأدب المقارن ثم سافرت إلى باريس، حيث تزوجت زميلًا لها من جنوب إفريقيا، الابنة الصغرى في لوس أنجلوس ضمن حركة نسائية جديدة يسمونها ما بعد الفيمينيسيت. ضحك بصوت طفولي وقال: أنا مع تحرير المرأة، لكن ابنتي تعيش مع زميلة لها أمريكية، تفخر بأنها «ليزبيان»، أنا لست ضد الحرية الجنسية؛ لكنى لا أنجذب للذكور، ربما أكون رجلًا تقليديًا عجوزًا، وأنت؟ ماذا عن ابنتك وابنتك؟

- ابنتي تخرجت من كلية الاقتصاد وحصلت على درجة الماجستير والدكتوراه، لكنها تركت كل ذلك وتفرغت للأدب وكتابة القصص والمقالات، وابني تخرج من كلية الهندسة واشتغل مهندساً لمدة أسبوع واحد فقط ثم تفرغ للإخراج السينمائي.

- فانتاستيك! هذا جنون رائع! وأنت؟

- أنا تخرجت من كلية الطب وكذلك زوجي شريف، لكنه ترك الطب وتفرغ للأدب وكتابة الروايات، وأنا أيضاً كاتبة روائية.

- أنتم أسرة عجيبة مجنونة، وكلكم تعيشون في القاهرة.

- نعم.

لم يكن سألني عن اسمي حتى ذلك الوقت، ولم أكن سألته عن اسمه، لكنني تذكرت أنني قرأت عن استقالة أحد المسؤولين بالأمم المتحدة في إحدى الصحف قبل هبوط الطائرة في نيويورك، كان هو قد غادر مقعده واختفى قليلاً ربما في دورة المياه. رأيت جريدة الجارديان تطل من الجراب أمام مقعده، بدأت أتصفحها حتى رأيت صورته في إحدى الصفحات، وحواراً قصيراً معه عن أسباب استقالته. أعدت الجارديان إلى مكانها في الجراب، عاد إلى مقعده يحمل لفة صغيرة مربوطة بشريط أخضر رفيع، وضعها في حقيبته الصغيرة تحت مقعده، ضحك وقال: لا بد من هدية صغيرة لزوجتي أكفّر بها عن ذنوبي الكبيرة.

- قرأت الحوار معك في الجارديان.

- ما رأيك؟

- أتفق معك في كل شيء إلا شيئاً واحداً!

- ما هو؟

- كان يجب أن تستمر في موقعك ولا تستقيل؛ لأن شخصاً آخر سوف يحتل مكانك

وينفذ ما يريدون.

- أنا معك، لكنني تعبت، ثلاثون سنة وأنا أعيش هذه المأساة، أشارك في هذه اللعبة السياسية التي يسمونها اجتماعات الأمم المتحدة، وقرارات مجلس الأمن، وكلها مجرد لعبة للتغطية على جرائم إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، لم تنفذ إسرائيل قرارات مجلس الأمن، بينما تقوم الأمم المتحدة بنزع أسلحة الدمار الشامل في العراق والبلاد العربية والإفريقية والآسيوية. لم تتحرك لنزع السلاح النووي في إسرائيل؛ لأن الولايات المتحدة ومعها بريطانيا، تريدان أن تكون إسرائيل القوة العسكرية النووية الوحيدة في المنطقة. تملك إسرائيل أكثر من مائتين وخمسين صاروخاً محملاً برعوس نووية، أين ستوجه هذه

الرءوس؟ إلى بغداد ودمشق والقاهرة وطهران وأنقرة وأى بلد فى المنطقة لا ىدين بالولاء والطاعة! وهذه اللعبة السىاسية التى يسمونها مفاوضات السلام فى الشرق الأوسط! أيمكن أن يكون هناك سلام وشعب العراق يموت منه الآلاف يومياً من الجوع تحت الحصار لأكثر من ثمانية أعوام؟! وهذه الأكذوبة عما يسمونه برنامج النفط مقابل الغذاء؟ هل يعقل أن فريق التفتيش على أسلحة الدمار الشامل فى العراق الذى يضم موظفين فى المخبرات الأمريكية يعيدون صياغة التقارير كما يشاءون؟! هل يعقل أن يتم تحمىض الأفلام فى إسرائيل، هذه الأفلام التى تم تصويرها فى العراق بواسطة فريق التفتيش؟ هل يعقل أن المخبرات الإسرائيلية الموساد كانت تزود فريق التفتيش بالمعلومات عن المواقع الهامة كى يتم تدميرها بالكامل، وإسرائيل خبرة فى هذا منذ ضربت المفاعل النووى فى العراق. وهذه المهزلة التى يسمونها تحريك عملية السلام، والمفاوضات المسدودة لتحقيق بعض حقوق الشعب الفلسطينى، فى الوقت الذى لا تتنازل إسرائيل عن شىء، بل يزداد عدد المستوطنات ويزداد عدد القتلى من الفلسطينىين! وبكل أسف فإن بعض الحكومات العربية تشارك فى هذه اللعبة كما شاركت فى حرب الخليج عام ١٩٩١.

توقف عن الكلام حين سمعنا الصوت ينبعث فى الميكرفون يقول: اربطوا الأحزمة ستهبط الطائرة فى مطار لندن، هيثرو.

– أنا أعىش فى لندن منذ ثلاثين عاماً، زوجتى إنجليزية وهى أستاذة فى الجامعة تدرّس الفيزياء، شعرها أبيض مثلك وهى فى جنيف الآن تحضر مؤتمراً نسائياً، إنها فيمينيست من الموجة الأولى، وهى تحب النساء أيضاً، حب برىء، وليس مثل ابنتنا الصغرى فى لوس أنجلوس، ثم ضحك، وسألنى، هل أنت فيمينيست؟!

– هذه كلمة إنجليزية، وفى لغتنا العربية نستخدم كلمات مختلفة، وإن كان المعنى هو تحرير النساء، بالطبع أنا مع تحرير النساء وتحرير الرجال أيضاً؛ فالمشكلة تتعلق بالنظام الأبوى منذ نشوء العبودية وحتى اليوم.

هبطنا من الطائرة، كانت الساعة فى لندن السابعة صباحاً، أخرجت ساعتى الصغيرة من حقيبة يدي، كانت لا تزال حسب التوقيت فى «ديرهم» متأخرة عن لندن سبع ساعات. حركت الوقت إلى الأمام بإصبعين اثنين سبع دورات، رأسى يدور دائماً فى تلك اللحظة حين أهبط من الطائرة وأحرك الوقت إلى الوراء أو إلى الأمام، يبدو الوقت لعبة أو أكذوبة دولية أو كونية مثل قرارات الأمم المتحدة. أترنح قليلاً فى مشيتى مع الدوران فى رأسى أو فى الأرض تحت قدمى، ربما بسبب الساعات الطويلة فى الجو داخل الطائرة النفاثة، لكن ما هى إلا

لحظة ويعود رأسي ثابتاً في مكانه، والأرض ثابتة تحت قدمي. أدبُ بقوة على بلاط الممر اللامع الذي يشبه الرخام الأبيض، كعب حذائي مربع متين يشبه كعوب أحذية الرِّجال، لا ألبس الكعب الأثنوي الرفيع العالي، خطواتي واسعة سريعة، في يدي حقيبة جلدية صغيرة، وهو يمشي إلى جوارتي بالخطوة الواسعة السريعة، جسمه ممشوق وشعره أبيض غزير، عيناه يكسوهما بريق طفولي، يتلفت حوله في دهشة كأنما يرى مطار هيثرو للمرة الأولى، توقف أمام بوتيك صغير يبيع البطاقات والهدايا التذكارية.

- ما رأيك بأن أشتري لك هدية صغيرة من لندن؟

- أشكر، ليس عندي وقت.

- متى تطلع طائرتك إلى القاهرة؟

- الساعة الرابعة مساءً.

- أوهوه! الساعة الآن السابعة صباحاً، أمامك أكثر من ثماني ساعات انتظار، أنا لا

أطيع الانتظار في المطارات، وأنت؟

- أنا لا أطيق الانتظار أيضاً، لكن معي رواية جديدة كنت أنوي قراءتها في الطائرة.

- ضيعتُ وقتك في الكلام؟!

- أبداً، لقد استمتعت بالحديث معك.

- فانت سبع ساعات مثل سبع دقائق، لم أشعر بالوقت.

- الوقت أكذوبة كونية مثل قرارات مجلس الأمن.

أطلق ضحكة طفولية، مددت يدي لأودعه لكنه تراجع خطوة إلى الوراء وقال: ولماذا تودعيني الآن وأمامك ثماني ساعات؟! ما رأيك في فنجان قهوة كابيتشينو وقطعة كرواسان؟ لا أحد ينتظرنني في البيت وليس عندي عمل بعد الاستقالة، ويمكن أن أبقى معك قليلاً إن شئت.

دخلنا إلى الكافيتيريا، نكهة القهوة تملأني بالانتعاش، أتشمم النكهة، أملأ بها صدري في شهيق عميق، ألامس بطرق لساني رغوة اللبن المغلي المزوج بالبن، يحترق طرف اللسان من شدة السخونة، مع ذلك لا أعتاظ ولا أتوقف عن تكرار ارتشاف السطح الملتهب، كما كنت أفعل في طفولتي، أرشف الشاي واللبن المغلي، يتصاعد البخار إلى أنفي، أتلقاه فوق وجهي، تمتصه مسام بشرتي، أضم قطعة الكرواسان كأنما هي الفطيرة التي كانت أمي تخرجها من الفرن، وهو يرمقني بعينين يكسوهما البريق، كأنما رأيت هذا البريق وهاتين العينين في مكان وزمان لا أدري عنهما شيئاً، كأنما أنا أجلس في هذه الكافيتريا في مطار

هثرو منذ زمن بعيد، منذ وعيت الحياة وأصبح عندى ما يسمى الوعى، كأنما سألبقى جالسة هكذا فى مكانى إلى آخر الزمن، حتى يتسرب منى الوعى وأموت.

بعد لحظة واحدة أفىق إلى أننى أجلس إلى رجل غريب، تصادف أن جلس إلى جوارى فى الطائرة من نيويورك إلى لندن، إننى أجلس معه فى الكافيتيرىا داخل صالة الترانزيت، أقرأ كلمة «الترانزيت» باللغة الإنجليزية، أعرف أنها تعنى الانتظار المؤقت الذى سوف ينتهى عاجلاً بعد دقائق أو ساعات قليلة.

– أنت شاردة تماماً، فىم تفكرين؟!

– هذه الحياة غريبة جداً، تصور أن ...

– نعم أتصور أن الصدفة أغرب من الخيال.

– عندنا مثل عربى يقول: ربَّ صدفة خير من ألف ميعاد.

– هى تبدو لنا صدفة، لكنها ليست صدفة، وقد ركبت آلاف الطائرات وجلس إلى جوارى آلاف الرجال والنساء ... ومع ذلك لم أتبادل كلمة واحدة مع أى منهم، إنها ليست صدفة يا ... فجأة توقف عن الحديث، اتسعت عيناه بدهشة، تصورى لم أعرف اسمك حتى الآن! أنت عرفت اسمى من الجارديان، لكن أصدقائى ينادوننى باسم «بيل».

– اسمى نوال يا بيل.

– نافال؟!

– نوال، بالواو.

– نوال.

– لا توجد ألف بعد النون، نوال.

– نوال؟

– أيوه هذا صح!

– يا له من اسم عجيب، نوال!

أصبح ينطق الاسم على نحو صحيح، لم تكن كلمة «نوال» سهلة النطق لمن لا يتكلمون اللغة العربية، أغلب أصدقائى الأجانب وصديقاتى ينطقون اسمى «نافال» أو نوال، دائماً بالألف بعد النون، لكنه أصبح ينادينى نوال كأنما يعرف اللغة العربية.

– هل تعرف بعض كلمات عربية يا بيل؟

– كلمات قليلة جداً مثل شوكرن.

– شكراً وليس شوكرن.

– شوكرًا.

- شكراً، بدون الواو بعد الشين.

- شكراً.

- أيوه هذا صح.

- شكراً نوال.

- الاسم يأتي أولاً، نقول: نوال، شكراً، وليس شكراً نوال.

- نوال، شكراً.

أطلق ضحكته الطفولية المعدية، ضحكت وأنا أعلمه النطق الصحيح، وهو ينطق الحروف بدقة كأنما سيتكلم اللغة العربية حتى الموت، وأنا أضحك كما كنت أضحك في المدرسة الابتدائية في منوف.

- سأقول لك سرّاً يا نوال، لو قلتِ تعالَ معي إلى القاهرة سأشتري تذكرة وأركب معكِ الطائرة الساعة الرابعة، لكنني أعرف أنك لن تقولي هذا؛ لأنك إنسانة عاقلة، وأنا أيضاً عاقل ... لكن هذا العقل جعلني سجين الوظيفة ثلاثين عاماً، هذا العقل قضى على سعادتي في الحياة، ولقد جاءتني بعض الفرص القليلة لأخرج من السّجن لكنني كنت أخاف، منذ عشرة أعوام تقريباً، قابلت إنسانة مثلك في مؤتمر الأمم المتحدة في جنيف عام ١٩٨٦، كدت أترك كل شيء وأسافر معها إلى ريو دي جانيرو، لكنني تراجعته وعدت إلى السّجن، مثل المحكوم عليه بقرار مؤبد من قوّة عليا مجهولة.

- ربما هي مارجريت تاتشر. أطلق ضحكة ثم واصل الحديث: تقريباً كلّ عشر سنوات ألتقي بهذا النوع من النّاس، نساءً أو رجالاً، هذا النوع من الصداقة النادرة التي لا تعرف الفروق المصنوعة بين البشر، لا الجنس ولا الجنسية ولا اللون ولا العرق ولا اسم العائلة، فقط الاسم الأول: نوال.

حين نظرت إلى الساعة وجدتها الواحدة والنصف، مضت ست ساعات ونصف ونحن نتكلم دون أن نشعر، كانت الكافيتيريا قد ازدحمت بالمسافرين، ناس يجيئون يجرون حقائبهم ثم يروحون، ويأتي غيرهم بحقائبهم ثم يمضون في حياتهم دون أن يتركوا وراءهم أثراً. أتأمل وجوه المسافرين، رجالاً ونساءً وأطفالاً، كأنما رأيت هذه الوجوه من قبل في كل المطارات، وهذه الحقائب يجرونها فوق العجلات، وهذه الفتاة الجرسونة التي تحمل الصينية فوقها الصحون والأكواب وتجري بين الموائد، وصوت الملاعق، وفرقعات سدادات الزجاجات، وصوت الثلج داخل الكؤوس، ورائحة الشواء والطواجن الخارجة من الفرن.

- لا بد أنك جائعة وقد أتى موعد الغداء، أنا شخصياً أشعر بجوع غريب، ماذا تشربين قبل الغداء، جين تونيك؟!

حكيت له عن صديقتى بطة وأول مرة أسمع كلمة الجين تونيك منذ سبعة وثلاثين عاماً في عيادتي الطبية، بميدان الجيزة عام ١٩٥٩، بعد وفاة أبى.

- أنت طبيبة يا نوال؟

- نعم، ولكنى كرهت المهنة، أغلقت عيادتي منذ سنين طويلة.

- وماذا تعملين الآن؟

- أكتب روايات وقصصاً!

- فانتاستيك! أنت مجنونة يا نوال، وأنا أحب هذا الجنون، أنجذب إليه لأنى أفقده، لقد فقدت جنونى ثلاثين عاماً داخل السجن، أصبحت موظفاً بالأمم المتحدة أشارك في مهنة السياسة الدولية دون أن أومن بها، وأخيراً بعد ثلاثين سنة أحرر نفسي، لكن بعد فوات الأوان يا نوال، كان حلم حياتى أن أكون موسيقياً مثل شوبان أو موتسارت.

- ليس هناك شيء اسمه فوات الأوان، أنت لا زلت في ريعان الشباب يا بيل.

- لكنى أرى نفسى في المرأة كهلاً عجوزاً.

- المرأة خادعة وكاذبة مثل قرارات الأمم المتحدة! ضحكنا ونحن نرشف الجين تونيك، ثم طلبنا زجاجة النبيذ الأحمر، مع السمك المشوى وطاجن أرز في الفرن، وسلطة خضراء من الخيار والطماطم والخس.

ثم سمعنا الصوت يعلن في الميكرفون عن توجه المسافرين للقاهرة إلى باب الخروج رقم أربعة، سار معى حتى باب الخروج، توقف لحظة يصابحنى، تظاهرت أنني لا أرى عينيه، ابتسمت وأنا أشد على يده وأقول: سنلتقى مرة أخرى يا بيل.

- هذا أكيد يا نوال، سأكتب إليك، ومن يدري ربما تريننى في القاهرة قريباً جداً.

استدرت قبل أن أختفى وراء باب الخروج، رأيته واقفاً يلوح لي بيده، عيناه فيهما حزن عميق. سرت نحو باب الطائرة بخطوات بطيئة ثقيلة، جلست في مقعدي بجوار النافذة، دخل رجل وجلس في المقعد المجاور لي، وجهه أبيض منتفخ باللحم، كتفاه عريضان مثل مروّضى الثيران في إسبانيا. خلع الجاكيت وناوله للمضيفة بحركة ذوى السلطة والنفوذ، جلس وملأ المقعد بجسده الضخم، فتح حقيبة سوداء سامسونات وأخرج منها بعض الأوراق، راح يبخلق فيها بعينين جاحظتين قليلاً، أسند رأسه إلى الوراء، ثم راح في سبات عميق.

الطيران في الحلم

في مطار القاهرة، كان ينتظرنني شريف، ومنى وعاطف، الوجوه الثلاثة الحميمة رأيتهما تطلُّ عليَّ وأنا أخرج من الباب أجرُّ العربة فوقها الحقائب، تعانقنا بحرارة الشوق والحب. سرت بينهم أملاً صدري بنسمة الوطن الدافئة. في الليل قبل أن يحوطني شريف بذراعيه حكيت له ما حدث في مطار هيثرو، ابتسم شريف بهدوئه المعتاد وقال: أول ما شفتك في المطار قلت نوال راجعة من مغامرة مثيرة، مشكلتك يا نوال إن كل حاجة بتبان في عينيك. وضحكنا كما كنا نضحك منذ ثلاثين عامًا، حين كنا نحكي عن المغامرات قبلَ الزَّواج.

